العدد الرابع
نيسان (ابريل)
السنة السابعة عشرة

No. 4
April 1969
17 ème année



مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
ص. ب ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون ٢٣٢٨٣٢
AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - LIBAN
الادارة : شارع سوريا ـ بناية درويش
B.P. 4123 - Tel. 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس
Propriétaire - Rédacteur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

شهادة جديدة

يحمل استشهاد عبد المنعم رياض وفايز جراد هذا الشهر ، معاني تدعو الى الاستبشار والتفاؤل اكثر مما تدعو الى الأسى الذي يخلّفه موت بطلين .

ذلك أن هذا الاستشهاد يكرّس الآن التحاما حقيقيا طالما افتقدته الامة العربية بين قاعدتيها : القيادة والشعب .

فعلى المستوى العسكري يكرّس استشهاد رياض التحام القائد بالجندي ، هذا الالتحام الذي يملأ الجندي اعتزازا وثقة تدفعانه الى الاقتداء بالقائد ، فاذا التضحية هي الغاية والهدف البعيد . وهنا انفتاح الأفق اوسع انفتاح على امكانية النصر جزاء للتضحية وثمنا للبذل .

وعلى المستوى الشعبي ، يكرّس استشهاد فايز جراد التحام القائد الفدائي بالفرد الفدائي، هذا الالتحام الذي يبث في ضمير الانسان العربي ايمانا نهائيا بأن قدره الآن ، لكي يصلح للحياة ، هو ان يموت .

ان روح التشكيك والانهزامية تنحدر أبعد انحدار لدى مواجهة هذا الواقع : أن يموت القائد الى جانب الجندي ، بل قبله ، بل حماية له أحيانا . ولن يبقى ، بعد ذلك ، امام الجندي ، الا ان يقتحم الموت قبل القائد ، بل حماية له . وهذا التواصل في التضحية هو سرّ البطولات والانتصارات ، وهو الذي يقضي على الهزيمة والانهزامية .

ان استشهاد عبد المنعم رياض وفايز جراد ، هذا الشهر ، شهادة جديدة على ان الانسان العربي لا يستطيع الا ان يحيا ، لأنه يعرف أن يموت .

س. ا

إلى أين المصير ؟

بقلم الدكتور اسماعيل صبري عبدالله

عرفت الثورة العربية خلال السنوات العشر الاخيرة حركة مد وجزر متعاقبين . وقد عرفت القوى الثورية قبلنا المد والجزر . ولسنا نقول هذا تبريرا لاخطاء ، او تعزية حيث لا عزاء . فليس حتما مقضيا على كل ثورة ان تعرف على التوالي التقدم والتراجع . وانما نحاول ان نضع الساعة الراهنة موضعها الصحيح من سلسلة الزمن المعاصر حتى لا يلهينا حدث على فداحته عن ادراك حركة الاحداث في جوهرها . ان الثورة العربية بابعادها الثلاثة : التحرري ، والتقدمي ، والوحدوي قد احرزت نجاحات مؤكدة على رأسها استقلال الجزائر وثورة اليمن الشمالي ثم الجنوبي ، واجراءات التحرر الاقتصادي والتحول الاجتماعي في عدد من الاقطار العربية ، واتضاح المحتوى التحرري والتقدمي الضروري لفكرة الوحدة العربية . وقد تعثرت الثورة في مواقع كثيرة لاسباب متعددة في مقدمتها تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينهما . ولكن الجزر الاعظم الذي واجهته حركة التحرر العربي هو يقينا هزيمة ١٩٦٧ . نعم لقد كانت تلك الهزيمة باثارها العميقة ، وابعادها الرهيبة ، وبوقوعها ثالثة بعد ١٩٥٦ و ١٩٤٨ اعتى ما اصاب الامة العربية في العصر الحديث : اقتطاعا من الجسد ، وهوانا للعزة ، وامتحانا عسيرا للعقل والارادة .

واذا كان رد الفعل المباشر والتلقائي للجماهير العربية قد جاء رائعا وملهما ، رفض للهزيمة ، وصمود في وجه العدوان ، واصرار على النضال حتى النصر ، فان ردود الفعل في دوائر الحكم والسياسة واوساط المثقفين وطلائع الشباب لم تكن دائما في مستوى الاحداث . لقد انتاب البعض بلبلة فكرية هائلة دعتهم الى اعادة النظر في كل شيء ، والشك في كل شيء . واشرأبت روح الهزيمة والاستسلام تتشفى بالقوى الثورية وما اصابها وتشيع باسم التعقل والاعتدال والواقعية الدعوة الى التسليم للاستعمار الجديد والتماس الامن في ظل عصا الامبريالية الاميركية الغليظة واداء ما تقتضيه تلك الحماية من اتاوة في شكل التخلي عن امالنا العراض في الحرية والاشتراكية والوحدة . وفي الطرف الاخر وقف ثوريون شرفاء تقطر وطنيتهم مرارة واسى ، يكاد القنوط ان يملك عليهم نفوسهم ويحملهم الى المطالبة بالمغامرة بأي شيء كمن يشتهي غسل عار الهزيمة ، وسقي فولاذ الارادة ، والتطهر من اخطاء وصلت احيانا الى حضيض الخطيئة في نار حرب تحقق ذلك كله او لا تبقي على شيء .. وليس في ردود الافعال تلك غنى لشعوبنا . اذ لا غنى لاي شعب يواجه ما نواجه من امتحان الا في التفكير الهادىء والحساب الدقيق . وهذا ما لا يتأتى الا بمعرفة بالواقع شاملة وكافية . ولكن الفرق بين الثوريين و« الواقعيين » في هذا المجال يكمن في ان تلك المعرفة تنتهي بالاخرين الى الاستسلام للواقع ، في حين انها في نظر الاولين ضرورة بالدقة لتجاوز الواقع بفاعلية ونضال بدل الفرار منه تعلقا بالخيال . ومن الناحية الاخرى ، لا شك ان الحماسة ذخر للمقاتل لا تعادله ذخيرة ، والوطنية المشبوبة درع واقية من سهام الاستعمار الجديد ، ولكن التحليل العلمي « على البارد » هو وحده الذي يهدي الى سبل النصر .

وهذا التحليل العلمي المنشود من اصعب الامور . ولا ترجع صعوبته فقط الى ما يجيش بالنفوس من غيظ مكظوم والم مضطرم وسخط متقد . بل ترجع كذلك الى اننا نواجه ظاهرة عدوانية بالغة التعقيد تشابكت عندها عوامل متعددة ، وتراكمت حولها عبر السنين احداث ذات اثار متنوعة ، ومن ثم لا يمكن ان نملك لها حلا فردا بسيطا وواضحا . ان مواجهة الظاهرة الصهيونية الامبريالية في فلسطين والوطن العربي لا بد بالضرورة ان تمتد افقيا من حيث التنوع الموضوعي في الاساليب والوسائل ، ورأسيا من حيث الامد التاريخي . والسؤال : الى اين المصير ؟ يجب ان يسبقه سؤال اخر : ما هو المصير ؟ ما ظهر منه وما استتر .

النظرة الجزئية خطأ وخطر

فمنذ ان حلت بالوطن العربي نكبة الصهيونية سادت في بلادنا في اوقات مختلفة ، وتعاصرت احيانا ، نظرات الى الظاهرة الصهيونية الامبريالية تركز على جانب واحد منها ، واحيانا تتوهم فهم احد الجوانب ، وتهمل بقية حقائقها المعقدة . ولا بد من الخلاص من تلك النظرات ومن الفكريات التي تعبر عنها . وكلما تخلصنا من واحدة منها رفعنا عن البصر غشاوة حتى يصبح حديدا لا يخطىء الرؤية .

واكثر تلك النظرات فجاجة هي **النظرة العنصرية** التي قوامها ان اليهود عنصر شرير يدبر باستمرار لافساد البشرية والسيطرة عليها مستغلا المال والجنس ، يسيطر في الخفاء حتى يتمكن فيسيطر في العلن . وتستند تلك النظرة الى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » ، وتستمد الكثير من الحجج من مستنقع النازية . وهذه

النظرية تتناقض تماما مع قيم الحضارة العربية التي قامت وازدهرت تحت شعار « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » والتي رفضت بصفة عامة المفاهيم العنصرية . ان العرب لم يروا في « اليهودية » « عنصرا » وانما رأوا فيها دينا من الاديان السماوية ، لمن يعتنقه ضمانات وفرها الاسلام . لقد عاد اليهود الى القدس بعد ان طردهم منها الامبراطور طيطس بحوالي ستة قرون بعد انحررها العرب من حكم بيزنطة . وحين احتل الصليبيون المدينة المقدسة، اعملوا التذبيح في المسلمين والمسيحيين وطردوا منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد اهلها من اليهود اليها خلف جيش البطل العربي الكبير . وفي الوقت الذي كانت فيه اوروبا في العصور الوسطى تحاصر اليهود في احياء لا يخرجون منها وتفرض عليهم صنوفا من الاضطهاد كان الفكر اليهودي يزدهر في بلاد العرب . وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية اثر الفلسفة الاسلامية ، على منهج المتكلمين اولا ثم متأثرة بفلاسفة الاسلام الكبار . واكبر الاسماء في تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا ادنى شك اسماء موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وطبيب صلاح الدين، ويوسف بن سعيد الفيومي المشهور عند اليهود باسم سعديا . ان الفكر العنصري ظهر وتأكد وانتشر في اوروبا ، ليس ضد اليهود وحدهم، وانما كسلاح ايديولوجي في خدمة السيطرة الاوروبية. فمواطن روما سيد غير منازع في كل انحاء الامبراطورية. و«السلام الروماني» معناه خضوع الامم لسيطرة روما لتعيش في سلام تفرضه جيوشها ، تماما كما يتصور القوم في واشنطون اليوم « السلام الاميركي » . واللاسامية ليست الا احد مظاهر ذلك الاتجاه العنصري الاصيل الذي يتمثل في الموقف من السود ، او من الصفر ، او من شعوب العالم الثالث كلها . والتسليم بمعاداة السامية مطبقة على اليهود يسقط كل حجة في تطبيقها على العرب . ذلك اننا بمنطق العنصرية ساميون كاليهود تماما . ان تقاليدنا الحضارية رفضت هذا الفكر . وعاش اليهود بيننا يعانون ما يعاني مجتمعنا ويتمتعون بما يصيب من تقدم . واللغة دائما شاهد حضاري لا يكذب . لقد تكلم يهود البلاد العربية لغة العرب . في حين ان الاضطهاد حملهم في اوروبا على ان يستخدموا لغات خاصة بهم . ومن المعروف في علم اللغة ، ان اللغات الخاصة تنشأ من احتياج الجماعات المضطهدة الى استخدام لغة لا يعرفها مضطهدوها . وهكذا نشأت « اليدش » و « اللادينو » . وليست اي منهما تعبيرا عن حفاظ على لغة قومية . فالاولى وهي لغة الاشكناز مشتقة من الالمانية (وكلمة اشكناز نفسها تعني المانيا) والثانية وهي لغة السفارديم مشتقة من الاسبانية (وسفراد تعني اسبانيا) . واليهود قد فقدوا ارتباطهم بالعبرية منذ قرون عديدة . ففي القرن الثاني الميلادي كان يهود مصر عاجزين عن قراءة التوراة ، مما حمل بطليموس على تكليف عدد من الاحبار بترجمته الى اليونانية (الترجمة السبعينية) . والتسليم بهذه النظرة العنصرية يطمس نهائيا دور الاستعمار في انشاء اسرائيل ودعمها . ومن المعروف انه لولا بريطانيا لما وجد الوطن القومي ولا نشأت اسرائيل ، ولولا سلاح فرنسا واموال وسلاح المانيا الغربية ، واموال وسلاح ونفوذ الولايات المتحدة لما اصبحت اسرائيل ما هي عليه اليوم . ولكن اخطر ما في النظرة العنصرية هي انها تسليم كامل بوجهة نظر العدو الصهيوني نفسه ، فالصهيونية تقوم على فكرة ان اليهود عنصر متميز بين سائر البشر . حقا انها تعتبره العنصر الممتاز ، اما اعتباره على العكس العنصر المنحط فانه لا يغير من التسليم بأنه عنصر متميز على كل حال .

وثمة نظرة اخرى ، على جانب كبير من الصواب ، ولكنها تخطىء حين تصاغ في اطلاق يهمل حقائق اخرى ، واعني بها نظرية **اسرائيل اداة الاستعمار** . ولها ولا شك فضل القاء الاضواء على دور الاستعمار في نشأة اسرائيل ودعمها ، وعلى دور اسرائيل في خدمة الاستعمار. ولكنها تهمل دور الصهيونية كحركة استعمارية لها مكانها المتميز داخل اطار الاستعمار العالمي . فاسرائيل ليست مجرد قاعدة عسكرية تابعة لاميركا مثل جوانتانامو في كوبا . ومهما يكن من مدى اعتمادها على الغرب بصفة عامة وعلى اميركا بصفة خاصة ، فانها تستند الى حركة صهيونية منظمة تنتشر في بلاد كثيرة ، يقودها احتكاريون كبار ، وتملك من وسائل التأثير ما بدا واضحا مثلا في الانفصام الكامل بين سياسة ديفول وبين موقف الصحافة الفرنسية. او حتى الاذاعة والتلفزيون بالرغم من تبعيتهما للدولة . كما انها تتجاهل حقيقة وجود مجتمع اسرائيلي يتجاوز المليونين عدا له صراعاته ، وبه طبقة مسيطرة ، وايديولوجية توسعية ، وقدرات عسكرية ، تجعل اسرائيل اقرب الى الشريك الصغير للدول الامبريالية ، منها الى مجرد الاداة معدومة الاطماع الذاتية . فالى جانب دور اسرائيل كاداة للاستعمار ، توجد اسرائيل كدولة استعمارية . بل انها بقدر نجاحها في دورها في خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة .

وخلال كتابات ما بعد نكسة ١٩٦٧ ظهر شيئا فشيئا ان جوهر الظاهرة الصهيونية الامبريالية هو ان الدولة الصهيونية امتداد عنصري للغرب الاستعماري في قلب الوطن العربي . انها اخر محاولات **الاستعمار الاستيطاني** التي قام بها الغرب ، والتي اتخذت دائما شكل هجرة بعض مئات الالوف من الاوروبيين الى ارض اجنبية يسيطرون عليها وينشئون منها دولة غربية « فيما وراء البحار » ، كما كان يقال بلغة القرن الماضي . ولكن حقيقة اسرائيل كاستعمار استيطاني لا ينبغي ان تقودنا فورا الى القياس باحداث الجزائر . فالمستوطنون في اسرائيل قدموا من بلدان شتى ، وبالتالي ليس لهم « وطن ام »

يفكرون في العودة اليه جميعا اذا ضاقت بهم سبل الحياة في فلسطين . ولهذا فالشعور السائد بينهم هو انهم يقاتلون وظهرهم الى البحر . ان المستوطن الاوروبي في الجزائر كان من الناحية القانونية فرنسيا يعيش في الجزائر . اما المستوطن الاسرائيلي فليس له جنسية اخرى . وبالتالي عليهم ان يستميتوا من اجل البقاء. ومن ناحية اخرى ، قدم عدد كبير من هؤلاء المستوطنين من البلاد العربية . وليس خافيا ان السياسة الخاطئة التي عمدت اليها بعض الحكومات العربية في تشجيع اليهود على مغادرتها نهائيا قد لعبت دورا حاسما في الدعم البشري لاسرائيل . ففي الخمسينات كانت موجة الفرار من اوروبا قد انحسرت بعد انهيار النازية واستقرار الاوضاع في شرقي القارة . ولولا يهود اليمن ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين الى اسرائيل على النحو الذي تم به . ومهما يكن من امر ، فهذا الفريق من المستوطنين ليس اوروبيا ولا يفكر في العودة الى اوروبا . ومن ناحية ثالثة ، نشأ في اسرائيل جيل جديد « السابرا » ولديها وسط دعاية ايديولوجية مركزة تفهمه ان تلك هي ارضه وارض آبائه ولا يعرف لنفسه وطنا اخر . واخيرا ، لم ينتشر المستوطنون داخل بلد اغلبية سكانه من قومية اخرى ، كما كانت الحال في الجزائر . بل فرضوا لوجودهم مرحليا حدودا لهم فيها الاغلبية الواضحة ، وزاوجوا بين التوسع الاقليمي وطرد السكان العرب بغية ان تكون لهم الارض خالصة . وكل تلك امور تعقد ظاهرة الاستيطان الاسرائيلي . ويتعين دائما اخذها في الحسبان .

المخطط الصهيوني : ابعاده ووسائله

حقا ان اسرائيل في الجوهر **مشروع استعمار استيطاني اوروبي اقامته الصهيونية العالمية** . فالهجرة الى فلسطين ظلت الى ما بعد قيام دولة اسرائيل ، اوروبية خالصة . ولم يهاجر يهود الشرق الى « ارض الميعاد » الا على اثر المشكلات التي خلفها في البلاد العربية قيام تلك الدولة وولاء بعضهم لها على حساب الوطن الذي نشأوا فيه ، وسياسة الحكومات العربية الرجعية التي ساعدت على هجرتهم . وهذا امر مفهوم تماما . فاوروبا هي موطن اضطهاد اليهود الذي كان « روتينا » عاديا طوال العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، والذي اشتدت وطأته في شرقي اوروبا حيث يكثر عدد اليهود حيث تخلفت الثورة البورجوازية . وليس هنا مجال البحث المستفيض حول ظاهرة اللاسامية في اوروبا . ولكن التعصب العنصري يحكمه ، كما يقول مكسيم رودنسون ، قانون اساسي ، وهو انه يشتد كلما التقت الفوارق العنصرية — حقيقية كانت او مدعاة — مع فوارق اقتصادية . وقد احترف اليهود في العصور الوسطى تجارة المال والاقراض بالفائدة ، كانوا الرأسماليين في وسط مجتمع اقطاعي فحل بهم سخط الاقطاعيين ورقيق الارض في آن واحد. ولكن حين نمت الرأسمالية في اوروبا الغربية على مستوى المجتمع كله اختفت المشكلة اليهودية ، لان اوروبا الغربية غدت — كما قال ماركس — كلها يهودية ، اي رأسمالية . ومهما يكن من امر ، فان ما يستحق الاهتمام هو ان اليهود المضطهدين ، كانوا يهاجرون قبل قيام الحركة الصهيونية، كغيرهم ممن تضيق بهم اسباب الحياة في اوروبا في القرن التاسع عشر ، ضمن تيارات الهجرة الاوروبية الاساسية : الى العالم الجديد ثم الى استراليا ونيوزيلاندا (١) ... الخ. ولكن الصهيونية حاولت منذ البداية تغيير هذا الاتجاه . وينبغي ان ننبه هنا الى ان الصهيونية في البداية لم تكن تصر على فلسطين بالذات ، وانما كانت تحاول اقامة دولتها ايضا في سوريا . بل ان هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الانجليز والخديوي في تنفيذ المشروع في شبه جزيرة سيناء . ومم ثم يتضح ان القضية لم تكن في المحل الاول « ايمانا بالوعد الالهي في ارض كنعان » وانما كانت **رغبة من الصهيونية كقوة استعمارية متميزة في المشاركة في اقتسام تركة الرجل المريض .** كانت الصهيونية تحاول وسط السباق الامبريالي المحموم حول اشلاء امبراطورية آل عثمان ان تقتطع لنفسها نصيبا. وكان ذلك في منطق العصر . وقد حدد هرتزل الامور

(١) والدليل على ذلك هو عدد اليهود في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو يقارب نصف عدد اليهود في العالم كله .

بأوجز عبارة ، حين كتب عام ١٩٠٨ يقول ((**ان دولة يهودية في فلسطين او سوريا ستكون امتدادا للحضارة الغربية وحصنا ضد الهمجية الشرقية**)) . وهكذا تحدد الطابع المزدوج لدولة اسرائيل قبل انشائها باربعين عاما : جزء من الغرب حضارة وسياسة ونهما استعماريا ، ولكنه جزء متميز بانتمائه الصهيوني وعدم ارتباطه بالتالي بدولة معينة من دول الغرب الاستعماري .

ولكن ثمة امرا اخر يميز تجربة الاستيطان الاسرائيلي عن الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا او روديسيا مثلا . ذلك ان **التوسع الاقليمي حتمية ملازمة للوجود الاسرائيلي نفسه** . وليس التوسع مرهونا باحتمالات الهجرة المقبلة . وكثيرا ما يقول لنا المثقفون الاوروبيون انه لا ينتظر ان تستمر الهجرة الى اسرائيل بمعدلات مرتفعة نظرا لان الغالبية العظمى من يهود العالم موزعة حاليا بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، ويهود هاتين الدولتين لن يهاجروا الى اسرائيل ، وان اختلفت اسبابهم في ذلك . ولكن ما يفوت هؤلاء المثقفين حسني النية هو ان **اسرائيل بعدد سكانها الحالي مدفوعة بالفعل نحو التوسع** . فالاقليم الذي كانت تسيطر عليه الدولة الصهيونية حتى ١٩٦٧ كان عاجزا عن ان يوفر لسكانه مستوى معيشة يتناسب مع المستوى السائد في اوروبا التي هاجر منها الاسرائيليون . فثلثا الارض صحراء ، والثلث الاخير يعتمد في الري على مطر غير منظم والتربة لم يخصبها طمى . وجوف الارض فقير لا يحتوي على شيء يذكر من الثروات الطبيعية التي تصلح اساسا للصناعة . والسوق المحلية اضيق من ان تستوعب اي انتاج صناعي حديث . ولم تستطع اسرائيل الحياة والتقدم اقتصاديا حتى الا بفضل فيض مذهل من الاموال الاستعمارية لم يسبق له مثيل في اي بلد . فمن المعروف ان اسرائيل قد بدأت حياتها بعملية نهب واسعة النطاق لاموال العرب ، وانها تلقت من الغرب حتى سنة ١٩٦٥ ما يزيد عن سبعة الاف مليون دولار ، اي ما يساوي ٣٠٠٠ دولار لكل فرد من سكان اسرائيل . وكان اكثر من نصف هذا المبلغ غير محمل بأي التزام بالسداد لانه جاء في شكل هبات وتبرعات ومعونات وتعويضات . ولو حصلت الجمهورية العربية المتحدة على النسبة نفسها لكان معنى ذلك معونات تساوي تكاليف السد العالي أربعين مرة !.

وفي ضوء تلك الارقام يمكن تقويم تجربة النمو الاقتصادي في اسرائيل التي أصبحت اسطورة في الغرب وفي العالم الثالث . ويكفي أن نضيف هنا أن صادرات اسرائيل لا تغطي الا نصف قيمة وارداتها ، وان ثلث تلك الصادرات عبارة عن ماس مصنع ، أي انتاج صناعة لا أساس لها في البلاد نفسها . ولا يمكن بالطبع ان يستمر فيض الاموال متدفقا بالمعدل نفسه . ومع نهاية التعويضات الالمانية ظهرت معالم ازمة اقتصادية حادة ترتب عليها ان عدد العاطلين زاد في اسرائيل في اوائل سنة ١٩٦٧ عن المائة ألف ، أي حوالي ١٢٪ من القوى العاملة . ولكل هذا فان اسرائيل ليس امامها من خيار الا التوسع أو الانهيار الاقتصادي والبشري . فامام البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لا بد أن يهاجر من اسرائيل كل أولئك الذين يرفضون أن يعيشوا في مستوى أقل من الذي عرفوه في أوروبا. وسيكون أول المهاجرين بالطبع من الفنيين والعلماء والخبراء الذين ترحب بهم أوروبا وأمريكا . أي أن الهجرة لن تكون تكذيبا فقط لدعوى العودة ، وانما اضعافا لاسرائيل في أهم قواها الحيوية .

على أن التوسع الاقليمي له حدود ودونه مصاعب . فاسرائيل لا تتوسع في خلاء ، وانما في أرض تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ، قد خسرت في تاريخها الطويل معارك كثيرة ، ولكنها كانت تنتصر في النهاية وتحافظ على وجودها وشخصيتها القومية. ومن ثم فان اسرائيل تسعى في الوقت نفسه الى **السيطرة الاقتصادية على الشرق العربي** . فالحلم الذي يردده حتى بعض أولئك الذين يتكلمون في اسرائيل عن السلام مع العرب هو تحقيق « التكامل الاقتصادي » للشرق العربي على أساس ان تكون اسرائيل قاعدته الصناعية وتكون الاقطار العربية مورد المواد الاولية وسوق تصريف المنتجات الصناعية. فالصناعة في اسرائيل في أمس الحاجة الى المواد الاولية التي تنتجها البلاد العربية تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الاموال الاستعمارية الضخمة التي تستطيع تعبئتها . وسوق اسرائيل الداخلية كما قلنا ضيقة لا تستوعب انتاجا يذكر ، والمنافسة في الاسواق الاوروبية عسيرة ، ومن ثم كان أمل اسرائيل هو أن تستوعب البلاد العربية انتاجها الصناعي . بل أكثر من ذلك يمكن أن تصبح اسرائيل بمثابة « كنتوار » للاحتكارات العالمية تقيم فيها مصانع للتجميع والتركيب والتجهيز للكثير من منتجاتها التي تبيعها بالفعل في الاسواق العربية . ولا شك ان للبترول مكانة خاصة في خطط اسرائيل . فالصهيونية العالمية تريد أن تكون شريكا في استغلال البترول العربي ، وأن تكون اسرائيل قاعدة لتصديره ومركزا لتصنيعه تستقر فيه صناعة بتروكيمائية ضخمة تغطي احتياجات المنطقة كلها . وبعبارة أخرى تعرض علينا اسرائيل كأساس للسلام والوئام « الميثاق الاستعماري » ، Pacte Colonial الذي فرضه الاستعمار على كل المستعمرات . والخلاف في اسرائيل بين المتطرفين والمعتدلين ليس خلافا حول الهدف ، وانما حول الوسائل . فالمتطرفون يريدون فرض الميثاق الاستعماري بالقوة ، بأساليب الاستعمار القديم . أما المعتدلون فيرون أن هذا الاسلوب يجافي روح العصر ومن ثم لا بد من الاعتماد على أساليب الاستعمار الجديد . ومن المعروف أن هذه الاخيرة تقوم على الروابط الاقتصادية التي تفرضها الدولة الاستعمارية عن طريق التسلل الى اقتصاد البلاد وتنمية فئات اجتماعية موالية لها وبث

— التتمة على الصفحة ٧٣ —

الانتظار

انا اعرف كيف تضيق الاقبية الرطبه
كيف يضيق الصدر ، وكيف يضيق الشارع
كيف يزوّر وجه الوطن الرائع
كيف اضطرتني الايام لان اهرب
من وجه عدوي والضيف
لكني
حتى لو صارت علب الكبريت بيوتا
لو ينخفض السقف ، ويضحي تحت العتبه
لو ضم رصيف لرصيف
صار الشارع اضيق من حد السيف
حتى لو من جسدي صودرت الرغبه
لو فرطوا الايام كحب الرمان
لو جار الاهل ، تخلى الصحب ،
وهاجر حبي كسنونوه
لو هجم السيل ،
لو انهدمت في حارتنا الجدران
سأظل وحيدا في الحلبه
سأظل كآخر قنديل
بفتيل لا يتعبه التلويح
مرتعشا في العتمة حتى تطفئني الريح

***

سأسمخ كالطحلب في الجدران الرطبه
استنشق كل رطوبتها
سأزور مقابر بلدتنا السغبه
أقرأ فاتحة عند الموتى
ابكي عند المؤودين
وبخوفي منهم
احفر كي اكشف عنهم
باظافري التعبه
سأظل وحيدا في الحلبه
وانا اعلم مثلكم
اني لا احمل سيفا او حربه
وانا اعلم مثلكم اني
لم اشبع من ثدي الام حليب
ان الليل على الضعفاء رهيب

***

انا اعرف طعم البحر
وطعم الحلم بجنيات البحر
انا ادراكم بالقهر
بما في قلبي من قهر
لكني لن الحق احلامي
جريا خلف مياه النهر
اني انتظر الحلم القادم من ليل الموت
– لا بأس اذا انتظر البائس عاما او عامين –
انا اعرف ما يحدث اذ يأتي
كم يحتاج لمعرفتي
برطوبة جدران البلده
بمخابئها ..
وباكوام الجوع المزمن في بيتي
بالخوف النابت من صمتي
كم سيسرُ اذا لاقاه
بوسط الدرب القهر المنتظر
ان فاجأه في زاوية المقهى
ضجر منفجرُ
سيعود ، اقول لكم ،
فعلى الجدران ، على الشطآن ،
على الابواب ، انتظروا
وبكل جراح الوطن المقتول انتشروا
سيناديكم
كونوا حيث يلاقيكم صوت رسوله
كونوا حيث تمدون اياديكم يبصرها
فيمد يدا تجمع جوع العمر ،
وخوف العمر ، وقهر العمر
يركبها خير خيوله
كونوا ، ان عاد ،
على مفترق الطرق المكسوره
ولنصنع من هذا الخوف المفجع صوتا
ولنرفع في وجه الصمت الصوت :
« ان لم يرجع فارسنا
سنظل الى ان يأتي الموت »

دمشق

ممدوح عدوان



الأبحاث

بقلم عبد الجليل حسن

***

واضح ان العدد الماضي من « الاداب » عدد بالغ الاهمية ، فهو بمثابة وثيقة لدراسة « الثورة الفدائية » ، وهو عدد خطط له بعناية حتى يقدم صورة متكاملة عن العديد من جوانب الثورة الفدائية الفلسطينية وآثرها في الحياة الفكرية والادبية العربية . وان كان القارىء ليود ان يرى ايضا بعض الدراسات والابحاث عن الطلائع الذين يقومون بالعمل الفدائي ، وفكرهم وخبرات نضالهم ، وبعضا من الدراسات التسجيلية للنشاط الفدائي وتصاعده ، فليس سرا ان العمل الثوري الفدائي قد نال من العدو ــ بالمقاييس المادية المباشرة ــ اكثر مما نالت منه الجيوش العربية النظامية حتى الان . وانه كبد العدو الاسرائيلي من الخسائر في جنوده اكثر مما كبدته حرب يونيو ١٩٦٧ . وبالرغم من ان المجلة قد اعتذرت بأنها لم تنفذ جميع جوانب الخطة التي وضعتها « بسبب تخلف بعض الادباء المكلفين او اعتذارهم في اللحظات الاخيرة » ــ وهذه حقيقة ــ الا ان العدد يبقى مع هذا مساهمة بارزة ، وكثير من موضوعاته تحتاج الى تأمل طويل . وقد احتفى الكتاب بمعالجة موضوعاتهم وكثير من المقالات امتد واتسع حتى صار اشبه بالكتيبات التي تعالج موضوعها وتستوفيه .

والقضية الاساسية التي تطرحها جملة هذه الابحاث او الدراسات هي بوادر شيوع حقيقة بسيطة صلبة والاحساس العام بها وهي : ان هنا لغة جديدة وصوتا جديدا هو صوت التحرير والفداء ، وكلما استمر وتصاعد هذا ودخل في نسيج الحياة العربية تحطمت«تكلسات» المجتمع العربي التاريخية واسترد وجوده معناه وقيمته وثراءه الخلاق. فالشعوب دائما من خلال الكفاح ومعاناته اليومية المتكررة والمحسوسة وآلامه وعذابه ونزيف جراحه ، تجد نفسها وتستشعر حقيقتها وتبلور ذاتها .

ان لغة العصر ومقولته و « كوجيتو » الشعوب اليوم هو « اني اتحرر ، واذن فانا موجود » او بالاحرى « نحن نتحرر ، واذن فنحن موجودون » .. تلك هي حقيقة عصرنا . فعن طريق « عملية » التحرير يثبت وجودنا الذي كان وجود الاستعمار ينفيه ويلغيه ويشكك فيه . هذه هي الحقيقة البارزة في عصرنا الحديث ــ عصر الامبريالية والتحرر من الامبريالية معا ــ وهي صيحة العصر العالية المنتصرة ، الصيحة التي يتجمع حولها العالم الثالث واللغة المشتركة التي تتجاوب معها شعوبه ، وهذا هو كوجيتو العصر ، كوجيتو التحرير ، وليس كوجيتو ديكارت عصر النهضة الفردي والعقلي ، وهو اليقين الذي تدركه الشعوب الان بداهة وبوضوح تام من خلال « فعل » المقاومة بل وتخلقه المقاومة الشعبية الفدائية ويترسب في وعيها ، وكل شيء وهم حتى تهب عاصفة التحرير كالاعصار ، حتى تنخرط الجماهير في عملية التحرير . وهذا هو ما تعيه الشعوب من « كوجيتو » التحرير ، وهو يقين ملموس وبديهي ، يستحيل ان يطمسه ارهاب او اضطهاد ... « نحن نتحرر » هذه هي الحقيقة التي لا يمكن لاية قوة ان تخدع شعبا عنها لانه يكتشفها بالتضحية والدم والموت . كل ما يعمله الشعب بنفسه من اجل التخلص من المستعمر او المستوطن يصبح هو المعيار الذي يقيس به الامور، يصبح موضع تمجيده واعجابه ، فعندما تأتي اللحظة وتقاوم الشعوب وتقف ضد الاستعمار وتحاول طعنه وضربه او حتى وخزه ... ولو بمسيرة احتجاج شعبية او اضراب عام ، مقاطعة منظمة ، تقطيع الاسلاك، نسف الطرق ، تفجير قنبلة في مخازنه ، وضع قنبلة زمنية في سوق عام.. الخ. عندما تأتي هذه اللحظة من الفعل المادي تتأكد الشعوب من وجودها وتعود اليها ثقتها وتعود لتقبض على حقيقة مؤكدة « نحن نتحرر » .. وهنا يتهاوى كل ما فعله وخطط له الاستعمار ضد الشعب .

***

١ ــ ركز الاستاذ احمد عباس صالح ــ عند استقرائه لمسار الثورة العربية الحديثة في مقاله « الثورة العربية والفكر العربي » ــ على الحاجة الى الخلاص بالمدفع .. « فالذي انكسر في حرب يونيو ليست الاوطان بل التراث الانساني والروحي للعربي ، الشخصية الانسانية للعربي » . ولن يكون خلاص من هذا « الانكسار » الا بالانصهار في الكفاح ، انصهار العابد المتنسك ، ولن نستطيع ان نتطهر الا بمزيد من الدماء ، والتفاهم الجسور مع الموت واختراقه وادراك بعده الحياتي الحقيقي ، وتقديم مزيد من الآلام الايجابية التي يخوضها المحررون دائما بكل ضراوة وابتهاج مدفوعين بحبهم للعظمة الانسانية وحب الحياة « وارتفاعا فوق الحيوانية التي ألفناها من عصور رخوة كئيبة » ... فخلاص الانسان كان دائما في شجاعته . وعند قيام دولة اسرائيل ... ماذا كان رد الفعل العربي ؟ « تجمعت الجيوش العربية وتفرقت وكأنها نجدة قبلية لا صراع كيانات . وقامت دولة اسرائيل ». ويعدد الكاتب كثيرا من ضروب المتاهات التي تاهت فيها القضية الفلسطينية والفكر العربي ، وحين نفتش في الفكر الذي طرح نفسه منذ عدوان ١٩٥٦ حتى عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ لا نجد الا ان قضية فلسطين قضية مؤجلة . وهكذا اجل الفلسطينيون دورهم في انتظار قيام الدولة العظمى الموحدة . ويمسك الكاتب بصلابة بالقضية الجوهرية والبسيطة وهي ان دور الثورة العربية هو اجلاء الاحتلال العسكري الصهيوني من كل الارض العربية وبضمنها فلسطين، ويؤكد على وجه الشبه بين اسرائيل كقاعدة عسكرية وبين السويس كقاعدة عسكرية قبل جلاء الانجليز . فثورات التحرير لا تؤجل نفسها . واننا خلال عشرين سنة لم نكسب شبرا واحدا من ارض فلسطين لان حرب التحرير لم تكن واردة . « ان حرب التحرير الفلسطينية لا تعني الا ما تعنيه اية حرب تحريرية اخرى » اجلاء المستعمر او المستوطن . ولا بد ان يدرك الفكر العربي ببساطة ابعاد الحرب التحريرية وانها ليست نجدة قبلية ولا يمكن تأجيلها . والقضية التي ركز عليها الكاتب في مقاله بمثابة ايديولوجية لحرب التحرير العربية ، تراثها الفكري ما طرحه الانبياء المحدثون لحروب التحرير ... جيفارا ، هو شي منه ، ثورة الجزائر ، كوبا ، فيتنام .

***

والواقع ان قضية الثورة العربية تتلخص ببساطة شديدة في هذه العلاقة اما نحن او هم ، علاقة نفي متبادل وحاسم ، فاما ان نبقى نحن على ارضنا او يبقى الكيان الصهيوني الغريب بعد ان نفنى جميعا، تلك ارادة وجودنا بل ومعناه والا كنا نحيا وجودا بلا معنى ، بلا قيمة. ولكن هذا الوجود يعود ويسترد معناه وقيمته وثراءه الخصب الخلاق في الكفاح وبالكفاح حتى الشهادة . وعلى المدى البعيد ليس هناك حل وسط او تسوية ما ، ان الثوار والفدائيين هم افضل المحررين. ان الذين يؤمنون بالعنف الثوري ويمارسونه انما يصدرون في ذلك عن

ــ التتمة على الصفحة ٦٥ ــ



بقلم حسن توفيق

***

على صفحات العدد الماضي من الآداب ، الذي خصص للتعبير عن الثورة الفدائية ، وابراز قضاياها ومشكلاتها ... على صفحات ذلك العدد التقى خمسة عشر شاعرا عربيا ... اختلفت اوطانهم من حيث نوع الانظمة الاجتماعية ، كما اختلف هؤلاء الشعراء ـ بداهة ـ من حيث نوعية التكوين الثقافي لكل منهم ، ومن حيث نوعية الانتماء الطبقي لكل منهم كذلك . فالحق ان ثقافة الفرد تتدخل في تشكيلها طبيعة وضعه في نطاق المجتمع الذي ينتمي اليه . لهذا نجد ـ على سبيل المثال ـ ان احدا من مثقفي الطبقات الكادحة لم يقبل بمبدأ الفن للفن ، وانما نجد ان الذين قالوا به ليسوا سوى مجموعة من مثقفي البرجوازية ، وذلك لان الثقافة ـ بدورها ـ تلعب دورها الخطير من حيث انها تبرز أسلوب الحياة التي لا يرتضيها الفرد او الطبقة او المجتمع ، واذا كانت الثقافة ـ على حد تعبير ت. س. اليوت ـ « يمكن ان توصف وصفا مختصرا بأنها ما يجعل الحياة تستحق ان تحيا » ، فمن المنطقي ان تحاول كل طبقة من طبقات المجتمع المختلفة ان « تجعل الحياة تستحق ان تحيا » من وجهة نظرها الخاصة التي تدافع بها عن مصلحتها التي تختلف ـ بطبيعة الحال ـ عن مصالح بقية الطبقات الاخرى .

واذا كان الشعراء الذين التقوا على صفحات الآداب في العدد الماضي ، قد اختلفت اوطانهم كما اختلفت ثقافة كل منهم عن الآخر ، وكذلك اختلفوا من حيث أوضاعهم الطبقية في مجتمعاتهم ، فانهم ـ في الواقع ـ قد اجتمعوا على الرغبة في المساهمة الجادة من أجل نصرة القضية الفلسطينية وتعضيد العمل الفدائي ، وان تفاوتت هذه الرغبة من شاعر لآخر تبعا لامكانية كل منهم .

وليس من الغريب ان يحس القارىء لقصائد العدد الماضي ، انها تؤلف نغما مؤتلفا على الرغم من تعدد الآلات الموسيقية التي تتآلف ـ فيما بينها ـ لكي يتسنى لها في النهاية ان تسمعنا هذا النغم المؤتلف . ليس من الغريب ان يحدث هذا ، فمن استقراء التاريخ يمكن للمرء ان يجد انه في أوقات المحن والشدائد التي تعصف بأمة من الامم، فان التناقضات المختلفة القائمة ما بين طبقات الشعب ـ أيا كانت درجتها ـ سرعان ما تتجمد، لكي تتجمع كلها مؤقتا في بؤرة واحدة تحاول أن تتغلب على المحنة والشدة . فمن الطبيعي اذن ان تتجمع اصوات الشعراء خاصة القطاعات المختلفة من الشعب على مقاومة العدو ودحر قواه ، بغض النظر عن اختلاف هذه الاصوات في أوقات السلم والهدوء.

هذه هي الظاهرة الاولى التي تبدو طبيعية في نظر من يواجه شعر العدد الماضي . أما الظاهرة الثانية فهي تبدو غريبة لاول وهلة ، لكن غرابتها سرعان ما تتبدد بعد فحصها فحصا موضوعيا امينا . وتتمثل هذه الظاهرة في محاولة الشعراء ابراز جوانب الزيف في حياتنا الرتيبة المألوفة ، بالقياس الى حياة التضحية والفداء .. ان الشعراء يحاولون ان يؤكدوا زيف الشعر .. وزيف الفن .. وزيف الحياة نفسها ، ما لم ترتبط بالعمل الفدائي المسلح من أجل تحرير الارض ارتباطا وثيقا .

وهنا يبرز تناقض غريب بين الشعراء وبين أدواتهم التعبيرية التي يحسون بقصورها على الرغم من أنها ادواتهم الطبيعية ، كما ان غالبية هؤلاء الشعراء لا يستطيعون تملك ادوات أخرى غير أدواتهم هذه ... فيظلون متذبذبين .. متأرجحين بين الادوات الطبيعية لقدراتهم والتي تتمثل في الكلمات، وبين الادوات الغريبة عنهم والتي تتمثل في السلاح. ولعل هذا أن يرجع الى سبب عام وهو تشكك الجماهير في « القول » ورغبتها الحادة في « الفعل » ، فهناك في الواقع أزمة ثقة بين الجماهير العريضة وبين الاجهزة الرسمية ، مهما تبلغ درجة الصدق التي تتسم بها بيانات هذه الاجهزة ، وقد تجلت هذه الازمة بصورة واضحة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ حيث قارنت الجماهير بين اقوال الزعماء العرب قبل تلك الحرب ، وبين أفعالهم خلالها ، وما نتج عنها ـ وعن غيرها ـ من هزيمة قاسية للامة العربية .

بعد هذه التقدمة السريعة ندخل عوالم شعرائنا ...

١ ـ القضية ـ نزار قباني

بعد نغمة اليأس القاتلة التي عزفها الشاعر بعد أيام قلائل من الهزيمة العسكرية ، والتي تمثلت في قصيدته « هوامش على دفتر النكسة » .. تلك القصيدة التي غرقت في موجة نقد الذات بصورة مرة، والتي تشكك في ثناياها الشاعر في قدرات جيله المهزوم .. جيله الخائب .. التافه مثل قشرة البطيخ .. المنخور كالنعال .. الى درجة أنه خاطب الاطفال ـ الجيل الآتي ـ مطالبا اياهم بألا يسمعوا أخبار ابناء جيله ولا يقتفوا آثارهم .. بعد هذه النغمة اليائسة تغيرت نظرة نزار قباني شيئا فشيئا في قصائده التالية ، وان ظلت نغمة نقد الذات بارزة فيها الى الحد الذي اتهم فيه الحكام العرب التقليديين بأنهم اصبحوا ممثلين ، احترقت اركان مسرحهم ، لكنهم ما زالوا يتشبثون بالحياة متمثلة في مراكزهم التي يحاولون الاحتفاظ بها . والحق ان تشكك نزار في قدرات جيله اخذ في الذوبان ، نتيجة ما لمسه من قوة العمل الفدائي وفعاليته ، لهذا نجده يوجه الحديث في قصيدته « القضية » الى الرجال .. والى الثوار .. بعد أن كان قد قصره على الاطفال .. وما من شك في أن قطاعا من الرجال والثوار الذين يخاطبهم الشاعر ، هم من ابناء جيله هو . والشاعر يتبنى ـ في قصيدته ـ وجهة نظر المنظمات الفلسطينية في رفضها لقرار مجلس الامن الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ :

فقصة السلام مسرحيه
والعدل مسرحية
الى فلسطين طريق واحد
يمر من فوهة بندقية

والحق ان هذه القصيدة تنمو نموا طبيعيا من داخلها وتتمشى مع تجربة الرجل العادي ـ بطلها ـ الذي يريد شراء بندقية في المفتتح ، وباع ما لديه من أجل هذا ، الى أن أصبح يمتلك بالفعل هذه البندقية التي مكنته من أن « يفترش الاشواك والغبار .. ويلبس المنية » .

لكن الشاعر ـ في الواقع ـ قد عاش هذه التجربة من الخارج ـ ان صح هذا التعبير ـ فهو يتمثل نفسية الجماهير المتعطشة الى تحقيق النصر ، ثم يصوغ هذا التمثل شعرا .. ولعل هذا ان يكون ـ في رأيي ـ سمة من سمات تقرب البرجوازية ـ التي ينتمي اليها نزار ـ الى الكادحين والبسطاء .

٢ ـ القدس في عينين ـ راشد حسني

قصيدة غنائية استوحاها الشاعر ـ وهو بعيد عن جو المعركة في نيويورك ـ حين شاهد أختا فلسطينية تعالج عينيها في المستشفى هناك ، فتذكر سقوط القدس في الخامس من حزيران ، فكان ان نظم هذه القصيدة . والحق أن الشاعر لم يتعمد بالنار المقدسة .. نار المعركة .. ولولا أنه شاهد عيني اخته الفلسطينية ، ما كان قد نظم قصيدته في وسط جو نيويورك الذي يحيا في أطاره .

وتبقى القصيدة بعدئذ عاجزة عن التحليق في جو المعركة، فصاحبها ـ كما يخيل لي ـ لم يكن يدري ما يريد قوله ، فانطلق في دندنة موسيقية شبه حالمة عن لون العينين ، فتارة يرى العينين في لون النخيل ، وتارة في لون الحصاد ... وهكذا .

٣ ـ المرآة ـ ممدوح عدوان

أعتقد ان هذه القصيدة دون مستوى قصائد الشاعر التي قرأتها له من قبل . ذلك انه لم يفلح في ايصال الرمز الى القارىء ، فجاءت

ـ التتمة على الصفحة ٦٨ ـ



بقلم فاروق عبد القادر

★★★

بعد هزيمة يونيو (حزيران) اشتد ساعد المقاومة ، واتسعت رقعتها لتغطي معظم الارض المحتلة . هكذا .. بمنطق الحياة نفسها ، كما تغمض الام عينيها بعد ان تهب للحياة وليدا مكتمل الخلقة موفور البدن . وكما حدث في ١٩٤٨ حين افرزت الهزيمة استجابات اكثر صحة وثورية بعد ان اكدت اكثر من أي شيء آخر وجهي المأساة: الخيانة والعجز ، حطمت قرقعة السلاح في سينا والضفة الغربية والقدس الثوابت الزائفة ، واكدت فساد نمط الحياة القديمة بكل ما سادها من غوغائية ودعائية وامتلاء كاذب ، ومع دوي الرصاص وانفجار القنابل ترسخ شيئا فشيئا الحقيقة الوحيدة ، الحرية الباقية والممكنة لشعوب تعيش في أرض محتلة : ان تمضي في قلب الليل والصمت ، حاملا حياتك وسلاحك تفتدي حقيقتك كانسان .

من هنا أصبحت المقاومة هي ((العالم المقابل)) لكل ما في النفوس من سخط وغضب ومرارة وهزيمة ، هي انبثاق الجدوى في عالم خلا من كل ما هو مجدي ، هي الحلم والطموح والامنية ، عزاء الحزانى وآهة المحرورين ، انطلاقة الغاضبين وضوء الحيارى الباحثين عن الطريق . وربما كان التعرض للنماذج الفنية التي تكتب اليوم عن المقاومة ينطوي على خطر ان تكون استنتاجاتنا اسقاطات نابعة عن ذواتنا نحن ـ بكل ما فيها من مشاعر خلفتها جراح الايام الدامية ـ اكثر منها نابعة عن النماذج المطروحة للبحث . لكنني اعتقد اننا ـ كتابا ونقادا ، مبدعين ومفسرين ـ ننطلق من بدايات متقاربة او متلاقية : رفض النمط القديم المهزوم ، ووضع للقضية في اطارها الصحيح : ان ما حدث في سينا والضفة والهضبة والقدس كان الوجه (العسكري) لفساد اشمل واعمق واكثر نفاذا ، القشرة التي كان لا بد ان تنكسر كي يخرج منها انسان عربي متغير ، ليس نابتا من قلب المجهول ولا متدليا بمعجزة من السماء، لكنه نقيض الانسان الذي كان ، يأخذ منه كل ما كان مطمورا فيه من ايجابيات ، ويتجاوز سلبياته من حيث هو نقيضه ، ويتقدم ـ بخيره وشره ، بقوته وضعفه ـ ليكون في قلب انطلاقة جديدة من انطلاقات حياته الموصولة ، الضاربة بجذورها في الماضي ، المستهدفة بتحقيقها نحو المستقبل .

هذا يعني ـ على نحو من الانحاء ـ ان ما حدث في ١٩٦٧ أدى لان تترسخ اشياء ربما كان من اخطرها ان اصبحت قضية فلسطين امرا لا تجدي فيه الكلمات التي عمرت وهرمت (ورغم ذلك لا زال لها نخاسون ومزايدون ووسطاء واسواق) ، الكلمة الوحيدة المجدية الآن هي طلقة رصاص او دوي انفجار : اعدام القديم الفاسد كي ينبثق منه الجديد ، ان تضع حياتك في مواجهة حياة العدو قاتلا ومقتولا ، منتصرا وشهيدا. في ١٩٤٨ كانت القضية قضية فلسطين ، وكان يأتيها ((متطوعون)) (راجع قصتي سليمان فياض ويوسف المحمود) ، الآن اصبحت قضية كل عربي ـ مهما بدا بعيدا عن خط المواجهة ـ من حيث هو عربي ، في ١٩٤٨ كانت فلسطينية الوجه عربية القلب ـ وان بدا هذا خافيا للكثيرين وقتذاك ! ـ لكنها الآن عربية وجها وقلبا وجسدا ، مصيرا وانسانا وحضارة . لم يعد الفداء تطوعا اذن ، لكنه قدر وواجب ، بتعبير سليمان فياض في قصته : لم يعد الجهاد فرض كفاية لكنه فرض عين .

وان تكون قصص العدد الماضي من الآداب كلها عن المقاومة (فلنستثني مؤقتا قصتي فاروق منيب وعبد الرحمن مجيد الربيعي) فأمر لا يعني تخطيطا مسبقا من جانب القائمين على تحرير المجلة بقدر ما يعني استجابة لهموم كتاب القصة في العالم العربي ، طبيعي ان تختلف القصص المنشورة من حيث فنيتها ، وان تتفاوت صدقا واحكاما لكن خيطا واحدا ينتظمها جميعا : في وجه القهر والاحتلال ليس ثمة غير الفداء ، هو الذي يمكن ان يمنح للجزر المعزولة المتباعدة من البشر الكلمة والمعنى ، الدم والضوء والفكرة . وابطالها جميعا يستطيعون ان يقولوا ـ كبطل سليمان فياض في القصة الاولى ـ : ((انني أعيش رجلا أسلم نفسي للحياة والموت معا ، اعانق بوجودي دورة الحياة والموت ، ذلك ما تفعله الشجرة حيال الضوء والتربة والرياح ، ما يفعله الطير والنبات والحيوان ، لا يتردد القط البري في الغابة عن مواجهة النمر الكاسر وهو لا يعلم ما نتيجه الصراع ..)) .

★★★

قصة سليمان فياض ((الانسان والارض والموت)) هي في تقديري أفضل قصص العدد الماضي ، وواحدة من أفضل قصص سليمان على الاطلاق . من خلال تجربة فدائي في ١٩٤٨ يؤكد سليمان ضرورة الفداء وحتميته ، ويبرز هذا الالتصاق الحميم بين الانسان والموت والارض . تبدأ القصة وتنتهي بهذه العبارة التقليدية ـ التي تكتسب دلالة جديدة وطازجة ـ : ((من التراب جئنا والى التراب نعود ..)) ، هذا حقيقي وصحيح .. لكن بين المجيء والعودة رحلة يجب ان نقطعها ، وتقول قصة سليمان ان الموت في الفداء جسر يتحتم ان نقطعه كي نعود الى قلب الارض فنتثمر من جديد . يقولها واحد من الفدائيين وهو يتأهب للنزول الى حفرة صغيرة ينتظر ـ مع عدد من رفاقه في حفر متجاورة ـ مرور قافلة من دبابات العدو ليضع كل منهم في بطن الدبابة قنبلة يحتفظ بها في يده . قبع البطل في حفرته ينتظر وقد اختفت كل ومضة ضوء تحت اغصان البرتقال والليمون. زمن القصة هو هذه الفترة التي تنقضي بين نزول البطل ومقدم دبابات العدو . في هذه الفترة الزمنية يلخص سليمان ـ باختيار ذكي ومحكم ـ أبعاد القضية كلها : قضية البطل وارتباطها بالقضية العامة . في لحظة الصدق الوحيدة ، في التصاقه الحميم بقلب الارض ودنوه من الموت يتحدث البطل الى نفسه والينا : ((يقولون ، هناك على السطح فوق حفرتك ، اننا بين يدي الموت ، في لحظة الاحتضار هذه ، نرى كل ما عشناه في ومضة ، شريطا خاطفا من دفق الذكريات ، وبعده نوصي من نحب وبين يدينا حصاد من تجارب الساعات والايام والسنين ، ولانني أواجه الموت في قاع حفرة ، وفي يدي قنبلة ، وثمة دبابة اثر دبابة ستمر فوقك قد يكون موتك بلا لحظة احتضار ، موتا كشعاع يتدفق فجأة ويتلاشى في اللحظة نفسها ، وتنسف معه كل خلاياك المفكرة ، خلايا الذكريات والضحك والبكاء ، لحظتي الآن تمتد عبر ثلاثين دقيقة ..)) .

في هذه الدقائق الثلاثين ـ في جزيرته الصغيرة المعزولة ـ يسترجع البطل حياته منذ كان في مدينة مصرية صغيرة ، تملأ ايامه حلقات الذكر والفراغ والضياع ، حين سمع للمرة الاولى عن حرب فلسطين . انه لا يعرف الكثير عن فلسطين ، لكنه أحس بصدمة . تذكر غزوات التتار والصليبيين ، ومن فوق قطار مسرع راح يتطلع الى حقول الدلتا الممتدة التي يمكن ان يأتي اليهود يوما اليها .. ((لم لا ؟.. لقد ذهبوا الى هناك عند بيت المقدس ..)) ، وشعر بالعار من كل شيء ، وقشعريرة باردة تسري في الجذور من شعر رأسه .

لكنه لم يكن وحده في هذا الشعور بالعار والتوق الى عمل شيء ، أخذه صديقه سيد ـ الشاب العصبي الذي يحب العزف على الفلوت ويزعم ان له صلات خفية بعالم الجن ـ الى صديق آخر هو أنور : فيربح من المفكر والمغامر والمجنون ، وشرع الثلاثة يدبرون مغامرة ضد المعسكر الانجليزي القائم في مدينتهم الصغيرة . والارتباط بين الانجليز واليهود منطقي في وعي البطل من البداية ، فالانجليز يخلون مدن فلسطين كي يحتلها اليهود . ولان مغامرتهم لم تكن سوى انبعاث عن السخط والسأم وحيرة الاشياء التي تبدو متناقضة فقد بقيت مجرد امنية معلقة ، وضاع انور الذي كان يرسم خطوطها .. بين الحلم والضياع تمزق الشاب الذكي الجسور الخبير بالسلاح ((أمس سار محني القامة ويداه خلف ظهره ، وعيناه شاردتان على الفلنكات الخشبية فدهمه قطار قادم ..)) ، ضاع لانه رفض ان يعمل شيئا قبل ان يجد الحلول ((الشمولية)) لكل المشاكل ، ولانه تعالى على رغبة الانسان

البسيطة والصادقة في الفداء . من موته انبثقت صحوة البطل .. وجد الطريق يمتد امامه كي يبرىء نفسه من الذنب والعار .

مهاجرا متطوعا خرج من مدينته . وعلمته رحلة الخروج الى الفداء دروسا كثيرة ، لم يكن القتال وحده ما تعلمه على أرض معسكر تدريب الفدائيين في رفح ، لان القتال - حين يصبح عملا يوميا - يحتم عليك ان تراجع كل شيء وان تفهمه من جديد ، ولقاؤه بهذه النماذج من الرفاق يفتح عينيه على حقائق لم يكن يعرفها . انه من اللحظة الاولى يصطدم بالحديث عن الخيانة ، وهو يسأل رفيقه الفدائي :

« - لماذا وافقنا على الهدنة ؟.. كنا قريبين من تل ابيب ..

أجابني وعيناه على الطريق :

- الخيانة .

قلت :

- لا أحسب ان هناك انسانا يخون وطنه .

قال ويداه على عجلة القيادة وعيناه على وجهي :

- من خان وطنه بتسليح الجيش بالاسلحة الفاسدة يقبل الخيانة مرة اخرى ..

- ونحن ؟ ..

- الفدائي لا يوقف عملياته .. » .

وقد حدث ان غفا يوما وهو في نوبة حراسة فخيل اليه انه أسر جنديا من جنود الاعداء ، وانه يحاوره . في هذا الحوار يكشف البطل عن فهم حقيقي ، وموضوعي لاهداف العدو ونواياه . أنني انقل فقط جزءا من الحوار :

« تنهد اليهودي الضامر الوجه ، الحاد العينين وقال :

- سنضعكم أمام الامر الواقع عدة سنين ، ثم .. نضعكم امام أمر واقع من جديد .. وهكذا .

- كيف ؟ ..

- مزيدا من الارض ، مزيدا من الارض دائما ، لا شجرة بدون أرض ، لا شعب بدون أرض ، اذا احتاج الواحد منكم لشبر ليعيش ، فالواحد منا بحاجة الى هكتار ليحيا ..

- واصحاب الارض ؟..

- عليهم ان يذوبوا في كيان اسرائيل ، او .. (يبادوا) .. بعد ان تعلم القتال ، ومارس الحرب كحياة يومية تعلم درسا آخر . بدت له الحرب ممكنة في كل الظروف ، للحفاة والعراة والمتخلفين حضاريا والذين لا يكادون يجدون قوت يومهم .. « وفكرت ان الانسان هو اعظم اختراع شهدته الارض وان ارادته هي اكبر طاقة في تاريخها كله .. » . الدرس الاخير الذي تعلمه البطل يرده الى حياته في المدينة المصرية الصغيرة .. الى المومس التي رآها في غرفتها المقابلة ، يضاجعها الرجال في الليل ، ويطلب منها ابوها القروش في النهار .. « ربما أقتل المأساة أيضا في حياتك يا سنية ، واحرر - مع هذه الارض - جسدك .. » ، وهو يجيب في الوهم على شيخه الذي يسأله : متى يكون الجهاد فرض كفاية ومتى يكون فرض عين . انه فرض عين حين يصبح الفداء قدرا وواجبا ، وحين نحيا ما نفكر فيه وما نحسه .

هذا هو الطريق الوحيد . الحرية الباقية الممكنة .. ان تأتي الدبابة بالخلاص ، فيرفع البطل سقف حفرته بيده ، وبيده الاخرى يدفع القنبلة في بطنها ، وهو يجهد كي يذكر ما قاله رفيقه قبل ان ينزل الى حفرته : « من الارض جئنا والى الارض نعود .. » .

في هذه القصة - وعبر زمنها الموضوعي القصير ، وزمنها النفسي الممتد طولا وعمقا - نجد الانتقال بين الماضي والحاضر مقنعا وطبيعيا ، واختيار التفاصيل ذكيا وحساسا ، وتعبير البطل عن اختناقه في المكان بانطلاق خواطره وذكرياته ، واحساسه بضيق الوقت المتاح يدفعه لان ينتقي من التفاصيل اهمها في احساسه بلحظاته التي يمكن أن تكون الاخيرة (هنا يجب أن نلاحظ ان الجزء من القصة الخاص بمعسكر التدريب وكل ما دار فيه من أحداث كان يمكن ان يخضع - اكثر واكثر - لعملية انتقاء وتركيز ..) ، والاسباب التي من أجلها يقاتل عناق منسجم بين الاسباب الخاصة والعامة ، ارتفاع بالقضايا الشخصية حتى تذوب في كل اكثر شمولا ، ومن ثم اكثر انسانية وصدقا .

مرة اخرى .. هذه واحدة من أفضل قصص سليمان فياض : فنيا وفكريا على السواء .

***

واذا كان سليمان يعرض علينا ما حدث سنة ١٩٤٨ من وجهة نظر شاب مصري يعيش في احدى مدن الدلتا الصغيرة ، فان يوسف أحمد المحمود في قصته « حديث الدرب » يعرض نفس ما حدث من وجهة نظر راع يعيش في بادية الشام . وقبل ان اعرض لهذه القصة اود ان ابدي ملاحظة خاصة بصدق الكاتب (السوري ؟) في تصوير حياة الناس في هذه المنطقة البعيدة من العالم العربي . فنادرة هي القصص القصيرة التي تتناول الحياة في مثل هذه المنطقة ، وباستثناء بعض قصص الكاتبين السوريين : سعيد حورانية وعبد السلام العجيلي (خاصة الاول في مجموعته الممتازة : « شتاء قاس آخر » - دار العصر الحديث ، بيروت) لا نكاد نجد اعمالا تتناول حياة الناس في هذه المنطقة ، بل ان قصة يوسف المحمود تحمل شيئا من التشابه - خاصة في الجزء الاول منها - بقصة سعيد حورانية « حمد ذياب » في مجموعته التي اشرت اليها ، تشابه تفرضه البيئة الواحدة ، وتصوير النموذج ، فكل من بطلي القصتين (اذا جاز ان نعتبر ديوب العاصي بطلا لقصة « حديث الدرب ») يمكن ان يكون نموذجا للرجال في بادية الشام .

اما البطل الحقيقي في قصة يوسف المحمود فهو الدرب الذي يتخذ منه عنوان قصته ، هو الدرب الممتد بين بيت ديوب العاصي وحقله ، يقطعه كل يوم مرتين ، وهو يخرج بقراته للمرعى ثم وهو يعود بها ، يهمس للدرب بآلامه وافراحه ، يغني اذا جاد المحصول ، ويغني ايضا اذا قل المحصول وجف المرعى .. والدرب في الحالتين هو رفيقه اذا عز الرفيق ، يقطعه من البيت الى الحقل ، ومن الحقل الى البيت ، والحديث هو نفس الحديث ، حتى كان ضحى ذات يوم ، نشبت الحرب في فلسطين ، وديوب يحاور رفيقه عنها :

- انهم لا يريدون فلسطين وحدها ، وليس من أجلها وحدها جاءوا .. انهم يجتمعون علينا من اطراف الدنيا ، يقتلوننا في أرضنا ، ويعيشون في بيوتنا ، ونحن على ضربة مقلاع بحجر فلم لا نذهب لردهم ؟... الرجال للحرب وليس لرعي البقر والتثاؤب على الدرب ..

ورغم كل ما قاله رفيقه يحذره ، فقد ذهب ديوب العاصي الى الحرب ، كما ذهب آباؤه الى « السفر برلك » ، لكنه يذهب هذه المرة طواعية واختيارا ، ولم يعد ديوب ابدا الى الدرب بين حقله وبيته . دخلت الآن الى الدرب (والقصة) امرأته « تمرة » . صار عليها ان تقطعه كل يوم مرتين ، ترعى البقرات والحقل والاطفال . لكنها لن تجعل ولديه يخلفانه في زراعة الارض ورعي البقرات ثمة ما هو اهم وابقى :

« لو ان شخصا في هذه القرية او في القرى المجاورة قتلك يا ديوب العاصي - هل كنت أرضى لك بعقاب الحكومة ؟.. فكيف ان يكون القاتل من الذين حاولوا ان يقتلوا النبي قبلك ؟ لعينيك يا ديوب .. ما رضيت لك الا دما بدم .. » ، وهي تربي ابنها الكبير « دمر » على هذا الثار ، وحين يشب وتدب خطاه على الدرب لا نراه الا حاملا قصبة طويلة .. متهيئا ليوم يحمل فيه السلاح .

صحيح .. « من خلف ما مات » ، جاء استيفاء الدين بعد عشرين عاما ، ذهب دمر الى الحرب ووضعت تمرة راديو الترانزستور على اذنها وراحت تحدث نفسها ، وتقسم أن ترقص على أرض فلسطين من أولها لآخرها ، لهذا اليوم عاشت من عشرين سنة ، جائعة ظمأى مشتاقة ملهوفة : « دمر .. لا أريدك راجعا ، ابن أبيك والله يشهد ، فلا تترك النساء ارامل كما تركني اليهود .. الاطفال لا تتركهم ايتاما كما تركوك ، كلهم جميعا ، رجالا ونساء واطفالا .. ثمن ما أكلوه من فلسطين .. ظنوا انهم اخذوها بلا ثمن .. » .

لكن الحرب الخاطفة انتهت الى غير ما املت تمرة . انتهت الى

- التتمة على الصفحة ٦٩ -

المسرحيات

قرأت العدد الماضي
نقد مسرحية ((زهرة من دم))

بقلم : فوزي فهمي

***

تتحرك دراما ((زهرة من دم)) لسهيل ادريس بين مستويات ثلاثة، مستوى الارتباط الاسري المتمثل في اسرة ((نزيه)) ((الام ـ ليلى ـ زياد)) ومستوى الارتباط النضالي والمقاومة المتمثل في مجموعة الفدائيين الخمسة ((نزيه ـ فتحي ـ هشام ـ الياس ـ سعيد)) ثم مستوى المغتصب السارق المتمثل في ((الضابط الاسرائيلي وراشيل والجنود الاسرائيليين واحمد الجاسوس)) . بين هذه المستويات الثلاثة التي يخضعها المؤلف لمناخ واحد تفرضه طبيعة القضية المطروحة يجري تماس وتقاطع يعمقان حتى يصلا الى حد الصراع المتفجر ويكشفا ـ بموجب بناء فني يتسم بالبساطة ـ عن منظور ورؤية معينة في قضية النضال العربي تجاه اكبر عملية قرصنة في تاريخ القرن العشرين .

وتحرك الدراما بمستوياتها هذه وفق تصنيف الشخصيات يجعلنا نتساءل عن اية انواع من الشخصيات تلك التي خلقها المؤلف : اهي رموز لاشياء مطلقة ، الامر الذي يحيل المسرحية الى عالم ذهني ، ام هي شخصيات انسانية ذات لحم ودم تتحرك في جو درامي متسق ، ام ان هذه الشخصيات او بعضا منها تنتقل بين البعدين الانساني والرمزي ؟

ان المعانقة الحقيقية للنص الذي تحت ايدينا ، هي التي يمكن ان تجيب على كل تلك التساؤلات .

في الفصل الاول نرى الاطار المادي ((البيت)) الذي يجمع مستويين من المستويات الثلاثة ، هما اسرة نزيه ومجموعة الفدائيين ، وقد شكله المؤلف من موقف يومي سهل ومألوف ، وهو موقف تناول الطعام بما يمكن ان يمنحه من امتداد لتيار من الحديث يكشف عن مكونات نفسية معينة محكومة بابعاد خاصة لشخصيات في وجود حي متفاعل ، بحيث لا تصبح متخشبة مفتقرة لدوافع تفسر سلوكها .

الفدائيون الخمسة يتناولون الطعام في منزل نزيه ، والام وليلى تقومان على خدمتهم ، من هذا المنطلق يتشابك المستويان بلغة غير زاعقة ، ووفق بناء المسرحية التقليدية حيث يكون التعرف على الشخصيات وعلاقتها من اهم منجزات الفصل الاول .

ان تجمع الفدائيين وعودتهم من عملياتهم موقف قوي ، يأسر اهتمام المشاهدين انطلاقا من وضعيتهم كمناضلين ترتسم لهم في الاذهان صور ملتهبة لقدرتهم على استخدام العنف ضد عنف مضطهديهم ، فاذا بهم امامنا في اشد المواقف العادية : انهم يأكلون ويضحكون ويمزحون، يمتد بهم الموقف بالامان والطمأنينة ليرتد بهم الى حيث كانوا قبل لقاء النضال ، فماذا كان كل منهم ؟ ((فتحي)) نشال قديم ، يقدم لنا تبرير اشتغاله بالسرقة ، فيطرح سببا اجتماعيا واقتصاديا خطيرا ((كنت اعمل في مصنع صغير للحلويات ، براتب ضئيل جدا ، وحين طلبت زيادة في الاجر طردني صاحب المصنع ، وظللت اسبوعين لا اجد عملا ، كان علي ان اعيل امي ، ولكن أؤكد لكم اني لم اسرق ولم انشل يوما الا بداعي الجوع)) . ان الانحراف هنا مسؤول عنه نظام اقتصادي يملك بجبروت وتعنت ان يلقي بمن لا يريد في عرض الطريق ، ولكن كيف كانت لحظة التحول في حياة ((فتحي)) : ((صور عديدة رأيتها في الجرائد ، صور النازحين الجدد بعد ٥ حزيران ، كان بينها خصوصا صورة ام وطفلها ماتا جوعا لان بيتهما قد سرق منهما ، وهناك بيوت اخرى كثيرة قد سرقت فتشرد اصحابها او ماتوا . ثم قلت لنفسي ، ان عدوان اسرائيل على الارض العربية كان اكبر عملية نشل في التاريخ، وبعد ذلك قررت ان اتخلى عن النشل والسرقة وان انضم الى اولئك الذين صمموا على ان يردوا البيوت لاصحابها)) .

هكذا اسلمت الشخصية مفتاح تكوينها ، ان لحظة تحولها جاءت نتيجة تأمل لواقع فرض وجوده بعد النكبة التي تصور السلب الوقح، فاذ ((بفتحي)) يتخذ من وضعه ((كلص)) مصدرا لمقارنة واعية يتلمس من خلالها طريقه ، باصالة الانسان الذي الفي به في عالم قاتم فيغير مسار اتجاهه .

اما ((سعيد)) اللبناني فهو صاحب روضة أطفال ادرك ((ان جيلنا مصاب بكثير من الفساد والانحلال ... اما جيل اولادنا فهو النبتة الفتية التي سنكون بالتعهد انقى واصلب)) ، لقد ترك روضة الاطفال رغم انه كان يمكنه ان يبقى بتشاؤمه من جيله ((بحجة اني احاول تربية جيل جديد)) ولكنه اكتشف ان هذا التبرير لا يمكن ان يخلصه من الاحتقار ، لقد احس ((ان علينا نحن ان نعطي القدوة لمن يأتي بعدنا)). لقد رفض سعيد اي تبرير مهما كان منطقيا ومقبولا عن ان يحمل بندقيته ويبرهن على معدنه في مجال هو اصح له من غيره ، رفض التوازن الذي يمكن ان يمنحه لنفسه ، حيث اتجه الى داخله ، نحو ذاته ، رافضا اي تستر خارجي مهما كان مقبولا ، فمقاييسه الاكثر صدقا هي التي يحسها ويراها بنفسه .

ثم ((نزيه)) دارس الهندسة الذي ادرك اهتمامه بقضية وطنه فبحث بلغة العصر ومقتضياته عن طريق به يتكافأ في كفاحه مع عدوه ، فوجده حيث ((ارسى هذا الاهتمام على قاعدة صلبة من العلم والتقدم))، لقد عاش التمزق والاستخفاء والضياع واللاانتماء في غربته وهو يدرس بالمانيا ، انه ابن وطن منتهك مغتال ، وعليه ان يحارب في جبهتين : ان يبني نفسه ويقضي على ذلك الشعور باللاانتماء ، الشعور الذي ولده فقدانه لوطنه ، انه انسان يحمل تاريخا وتقاليد وعقيدة وذكريات طفلة في وطن اجتثته عصابة فاقدة لكل ما هو انساني ، ثم عليه كذلك ((ان يقضي على الحذر والريبة وان يزرع بدلا منها في العيون الاجنبية ثقة وايمانا بعدالة القضية)) . بين هذين الموقفين كانت تتحرك شخصية ((نزيه)) وعسير للغاية امر التوفيق بين الموقفين ، الامر الذي يخلق حالة من اللاانسجام مع العالم المحيط ، وعليه ان يجابه هذه الحالة في حياته اليومية بكل لحظاتها ، وعن طريق المونولوج كحيلة مسرحية للافضاء يعرض المؤلف تطور شخصية ((نزيه)) ، اذ بعد الخامس من حزيران تتزلزل الارض تماما ، فيطالع نظرات الاحتقار والكره والسخرية، وتومض خلال حديثه الفكرة التي دهمته والاحساس الذي اغتاله ((كنا في العواصم الاجنبية نحن ايضا مهزومين ، بل لعلنا كنا في بعض الضمائر المهزومين الحقيقيين المسؤولين عن الهزيمة ، لاننا تركنا ارضنا تسحب من تحت اقدامنا ، لاننا لم نتشبث بها بايدينا واصابعنا واظافرنا . لاننا عهدنا في الدفاع عنها الى من لا ينتمون لتربتها ولا يحسون خفق رمالها)) ، هنا منظور جديد للقضية فجرته نكسة حزيران ، قد يكون صرخة ادانة شاملة لابناء الوطن السليب ، اذ ليس هناك مجال لتهدئة الخواطر ، انها دعوة الى المسؤولية المباشرة واللاتباعد ، ان المناضل الوطني الفلسطيني مطالب بالالتصاق بالقضية وبالا يوكل محاميا للدفاع ، ففي ذلك نفي دائم للاستعداد بالتضحية .
ان الاحقاد الراسخة في اعماق النفوس لا بد ان تخرج الى الميدان لا ان ((تبتلع)) ، وحيث لا يجب ان يبحث الفرد عن درب خلاصه فيما يراه ووفق ما هو ميسر له كأن ((يميت احساسه بالخمر والنساء والغيبوبة)) . ان ((نزيه)) يرى الطريق واضحا ((ان اعود لاحاول أن استرد ثقتي بنفسي وبجيلي وبشعبي)) لقد ادرك ـ وهو المثقف ـ ((ان المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة بل بخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال)) . ان الادانة التي قال بها ((نزيه)) في انهم تركوا الارض تسحب من تحت اقدامهم مواجهة جريئة واحساس حاد بالمأساة لم ينقذه منه اجترار الاحزان ولوم النفس والانصياع لمازوشية محرقة يعاقب بها نفسه ، بل جعله يرفض ان يكون متناقضا ، اما ان يكون او لا يكون ، فلا مستقبل لفرد بعينه لانه عندئذ سوف

يكون هشا لا جذور له تربطه بارضه .

ويستمر البناء الفني للمسرحية في الكشف عن المحتوى الداخلي لكل شخصية ، اما الامتداد الذي يعطيه هذا العالم النفسي الذي يعريه المؤلف فهو ما سوف تكشف عنه حوادث المسرحية .

« هشام » وهو ابن عم نزيه وخطيب ليلى ، يدرس الطب في لبنان ، اختار العمل الفدائي بارادته ، ورفض اية صلة قد تجمع بينه وبين العالم سوى كونه مناضلا لاسترداد حقه السليب ، هناك منطلق بدأ منه مساره ، لقد كان يدرس الطب مستهدفا الغاء آلام البشر فاذا به يجد في دراسته العذاب ، « هذه الاصابع ليست في خشونة اصابعك ولكنها مع ذلك تلطخت بالدم الحقيقي ، لامست حروق النابالم على اجساد الاطفال الطرية ، احترقت بلهيب الحروق . كنت في تلك الليالي احس عليها نار الحروق وهي حتى هذه اللحظة ترتعش » . ان الشخصية التي تتحدث الينا تملك ابعادها كشخصية درامية تتحرك داخل موقف انساني صعد نوترها النفسي فانطلقت تمسك بقبضتها بداية طريق اخر غير ما كانت تسير فيه « انني في تلك الايام الرهيبة نسيت كل الوان الرفاهية ، ان طالب الطب المرفه خرج يعمد حياته بفظائع لم تعرفوها انتم ، خرج يعيش قبل الاوان وجه الحياة الفظيع كانه انتقام من ماضيه » ، ان محنته جعلته يفلت من اسار حياة مرفهة ويتخطى المصير الفردي ليستشعر القهر الجماعي ، ويرفض الوجود السلبي ويتحول لموقع اخر يتحقق له من خلاله وجوده الايجابي .

اما « الياس » فتكمن في نفسه صورة قديمة رهيبة « ذلك اليهودي الذي صفع ابي » منذ عشرين سنة ، وقتها كان في الخامسة عشرة حيث لا يملك شيئا يمكن ان يفعله ، سوى « ان ينظر الى ابيه وهو يتلقى صفعة ذلك اليهودي الذي انبثق من ارض بيارتنا فلا يفعل شيئا الا ان يبكي ثم يستسلم ليد ابيه فيسيران ذليلين يطردهما اليهودي بالصراخ والشتائم ويهددهما بالقتل » . ان صورة التهديد والنفي التي عاش فيها هي التي ظلت تغذي تكوينه الداخلي وتنفذ من كيانه حتى القلب.

واذا امعنا النظر فيما قدمه المؤلف اثناء عملية الكشف – حيث ابان عن العوالم الداخلية لكل شخصيه ، فيما يخص المستوى الثاني ، مستوى النضال والمقاومة – نجد انه قد استطاع خلق شخصيات حية ذات حضور شامل زاخر بتجاربها ودوافعها ترتد لماضيها ولمخزون ذكرياتها الذي يغذي واقعها الحاضر ويبرره ، تلك الصفة الجوهرية التي تتصف بها الشخصية الانسانية دون غيرها ، وفضلا عن هذه القيمة الاساسية في تركيب الشخصية المسرحية ، والذي ابتعد بها عن التجريد حيث لا تفقد حرارتها ودفء حضورها ، فانه ايضا قد جعل لحظة الوعي او الاستنارة لدى هذه الشخصيات ذات منطلق ذاتي ليعمق الاحساس بالتجربة المأسوية على انه احساس اصيل وكامل . فالقضية لا تعيش خارج اي نفس من نفوسهم ، فهي تجربة جماعية تلتهب بوجدانهم ، وان اختلفت وتنافرت ظروفهم ، كل منهم وجود من العواطف والمشاعر يسعى بها وسط الموقف فخرج بنا المؤلف من عالم الميلودراما الزاعقة ، وكذلك لم ينسج شخصيات مثالية تصدر عن هدف مطلق غير محسوس، وانما صورها بخصوصيتها المنفردة بها ، وتمايزها عن بعضها في تكوينها ومثيراتها .

ثم يتخطى المؤلف بعد ذلك مستوى المقاومة والنضال ليتماس جزئيا مع مستوى الارتباط الاسري ، كاشفا ايضا عن ظلال وفروق من الاهتمامات ، فيعرض « لزياد » وهو الاخ الاصغر « لنزيه » ، فيرسم هويته بكلمات بسيطة تجري على لسان « الام » فيحدد مسار اهتماماته « لماذا اذن تراه حريصا هذا الحرص على لقائكم ومتابعة انبائكم » ثم تتخوف الام من ذلك كله عليه وترغب في « ان تنصح اخاك بالانصراف الى درسه » ، وتستمر صيغة التراكم الحواري الذي عن طريقه يرسم المؤلف شخصية « زياد » فيزيدكم التشوق باستخدامه طريقة احالة الحديث عن مجهول غائب عن الموقف ، هناك اهتمام بامره ، وتتحدد ملامحه من خلال حديث الاخرين « الحقيقة انني احاول عبثا اخراجه من صمته ، انه في غيابكم يصاب بالخرس ، لا يوجه الي كلمة ، كانني لست اخته ، يصمت ويصمت كانه في غيبوبة ، كانه معكم يرافقكم في حركاتكم وتنقلاتكم ... يصمت كانه عازم الا يتكلم بعد ابدا ، وهو يقضي وقته كله في القراءة لا في كتبه المدرسية ، بل في تاريخ القضية وتطوراتها » .

وبعد ذلك الاستحضار للشخصية يركب المؤلف موقفا مسرحيا يعتمد فيه على السرعة والمباغتة ، اذ يدهم ضابط اسرائيلي وفرقته البيت لتفتيشه بحثا عن الفدائيين ، فيخلق بذلك موقفا رهيبا غير متوقع ان نقارنه مع ايقاع الموقف السابق له ، فهنا تمر اللحظة تلو اللحظة بحساب وقلق ، عكس ايقاع الموقف الذي بدأ به ، حيث كانت اللحظات وكأنها لازمن ، تتسع لفيض من الذكريات الطويلة ، وتشع الطمأنينة والامان ، ان هذا الموقف يغير نقطة الهجوم بالنسبة للمسرحية، اذ ينتهي بأن يخرج « زياد » – الشخصية التي صيغت لنا ملامحها ومثيراتها من قبل ، ليعلن استسلامه ، وبالقبض عليه اصبح من المحتم ان يكون هناك موقف من المجموعة من اجله ، ان شخصية « زياد » هي التي سوف تحرك الاحداث المقبله ، او بمعنى اخر انها الشخصية المحورية للمسرحية .

لقد تمزق قناع الطمأنينة ، فتحددت نقطة الهجوم ، وتعرفنا على الشخصية المحورية ، عندئذ يبرز السؤال الدرامي العام للمسرحية ، ماذا سيفعل الفدائيون من اجله ؟ وانطلاق هذا السؤال الدرامي يعني ان تندفع الاحداث في المسرحية محاولة الاجابة عليه ، اي انه لا بد ان نتصارع ويصطدم ليشكل بآخر مستوى الارتباط الاسري والمقاومة ضد المستوى الثالث ، ويكون ذلك ايذانا بالانفجار الذي تعنى به المسرحية ويتم خلالها ، وتتحرك شخصياتها بالحضور الفعلي لها لتطور احداثها.

ترى ماذا ستفعل مجموعة الفدائيين ؟ بعد تدبر قصير للموقف يقرر نزيه «اقسم لك بشرف ابي ونضاله ان انقذه واعيده الى البيت»، هذا القرار يعني لا شك انماء امكانيات الفعل الدرامي الكامنة ، اذ ان تكوينه قد هيىء منذ بدايته بصعوبته ودقته وذلك بتحديد نوع العلاقة الاسرية التي تربط موضوع السؤال الدرامي (زياد) بالقوى التي لا بد لها ان تتحرك للاجابة على هذا السؤال (الفدائيون – وبخاصة نزيه وهشام) ، فاكتسب الموقف بذلك نبرة انفعالية عالية توترها وتزيدها عواطف شخصين « الام » و « ليلى » الماثلتين في قلب الحدث .

غير ان القبض على « زياد » في المسرحية يثير بعدا دراميا هاما ، فهو لم يكن المقصود ، ولكنه قدم حياته كلها بحماسة شديدة تضحية وفداء في سبيلهم ، هذا السلوك الذي انهى به « زياد » موقف التفتيش ، كان بمثابة كشف لثراء هائل في شخصية « هشام » ، فهو قد احس انه المسؤول عما حدث ، ودفعه هذا الاحساس الى الرغبة في خوض معركة مع فرقة التفتيش ، غير انه لم يمكن من ذلك ، عندئذ راح يعمق بنفسه احساسه بالمسؤولية ، وقد توصل الى انه السبب

في هذه المأساة « انا الذي اقترحت عليهم ان نأتي فنقضي هنا فترة استراحة ونهدىء الجوع الذي كنا نعانيه ... عارض فتحي ، رأى من الحكمة أن نبتعد عن البيت في هذه الفترة بالذات ، كان على حق ... اعاني منذ اخذوا زياد عبئا على ضميري » هذا الصوت الملحاح الذي نسمعه من هشام انما يفتح امام العقل المسرحي افاقا متنوعة ، ويوسع مجاله ، هل يمكن ان يندفع هشام نتيجة استشعاره هذا الظلام المأسوي الذي القي فيه « زياد » الى ان يفعل شيئا ؟ ... ان المؤلف هنا قد استنبت التوقع المسرحي بذلك الترشيح الذي بدأه بزيادة ثقل الاحساس الذي يعانيه هشام .

ان « ليلى » التي تربطها « بنزيه » و « زياد » رابطة الاخوة ، وهشام ـ اضافة الى انها ابنة عمه نغمة دافئة حارة غير مغرقة في الرومانسية ، ترى هل كان وجودها مجانيا في المسرحية ، هل ثمة عائد من تلك العلاقات المتشابكة يدفع بالاحداث للتطور ، وبحيث لا تبدو الشخصية الدرامية اكسسوارا صامتا ؟ ... ان ليلى عندما يطلب منها هشام الاسراع بالزواج تتمهله وتطلب منه الانتظار .

هشام : تقصدين حتى يتم التحرير ؟

ليلى : ليس التحرير على بعد خطوة أو خطوتين . لا بد لنا على الاقل من ان ننتظر عودة زياد .

هشام : سيعود زياد ليلى وسنلتقي عما قريب ، ان القلق سيملأ ساعاتي منذ الان ، فانا لن اكف لحظة عن التفكير بك من اجل زياد وعن التفكير بزياد من اجلك » .

هذا الحوار لا يمكن فصله عن شخصية « ليلى » اذ يجيب مبدئيا على مسألة الوجود المجاني لشخصيتها داخل اطار الفعل الدرامي ، فهي قد عمقت تيار الاحساس بوجوب انقاذ « زياد » لدى هشام ، بأن اوحت له ان نقطة اللالقاء بينهما حددها القبض على اخيها ، وان زواجهما مرتبط بعودته ، ان دورها يبدأ من لحظة فقد « زياد » فالصلة التي تربطها به كفيلة أن تجعلها تنشد اي طريق لخلاصه من معتقله ، فحالات الوحشة « بدأت منذ الان . اتصور الجو الذي سنعيش فيه انا وامي في هذا البيت الذي غادره رجاله . حين يهبط الليل ، هذا المساء ستقول لي امي من غير ان تنظر في عيني ، هل خطر لك يا ليلى اننا سنقضي الليلة وحدنا ... وستصمت امي بعد ذلك لتقضي الليل كله مفتوحة العينين تحدق في الظلام » ، وعنف الانتظار اللامجدي العقيم جعلاها تنحو تجاه التمسك بانقاذ « زياد » ، ثم تفكر في الوسيلة التي تحصل بها على مبتغاها وانما انهارت امام سحب الضباب التي خلقتها ظروف العذاب اليومي المؤجج لمشاعرها ، فذهبت تطلب من جنود الاغتصاب الافراج عنه ، فاذ بها تلقى « هشام » قد سبقها الى ما تبغي ، وتلمح دمه يلطخ الارض ، فتفقد وعيها وتصبح للانتهاك فريسة سائغة ، ويلجأ المؤلف الى صيغة المونولوج التقليدي لتتدفق خلاله موجة عارمة من العواطف ليكشف كيف اغتيلت البراءة ، ولتبرر « ليلى » كذلك موقفها ، لما سقطت الفراشة في اللهب ! لما ضحت بحياتها من اجل شيء يتجاوزها ، ورغم ان استخدام المونولوج في المشهد الخامس من الفصل الثالث لا يكتمل مسرحيا حيث لا وجود « لليلى » كشخصية مرئية على خشبة المسرح ، اذ يستخدم صوتها في رواية المونولوج ، الا انه قد ساعد الى حد بعيد في خلق مجال متسع للافادة من ابراز لحظات درامية متوترة للشخصيات التي يدور حولها المونولوج والتي توجد في المشهد « زياد ـ هشام ـ نزيه » فيستحضر بصورة مرئية وهج الجو اللافح الذي عاشته « ليلى » حتى اقدمت على ما فعلت . والمؤلف هنا يرد الاعتبار لها عن طريق تأملنا لعذابها ، وفي الحقيقة ان شخصية ليلى دراميا تنتقل بين بعدين ، البعد الانساني والبعد الرمزي ، انها زهرة الدم التي عثر عليها هشام « كانت زهرة حمراء قانية تبدو متوحدة غريبة . وتساءلت في رعشة اي وجه للشبه بين زهرة الدم هذه وبين ليلى ، أؤكد لك يا ليلى انها كانت زهرة حقيقية ، ها انت تذكرينني بها » ، ويستمر المؤلف يحلق بها حين يكتنف موقفها الضباب والغموض « لا ادري اهم الذين اغتصبوني ام انا التي استسلمت ، اليست هذه قصة ارضنا كلها » انه يربط بينها وبين الارض ، ذلك الموقف الذي لا يمكن تحديده ، هل هم الذين تركوا الارض تسحب من تحت اقدامهم ام انهم الذين سلموها . لقد استطاع المؤلف ان يتحرك بشخصية « ليلى » في مجال الفعل الدرامي موحيا من خلال الوقائع الروائية التي تحدث في المسرحية ، متخطيا وجودها كشخصية درامية محلقا بها في العالم اللامرئي كشخصية رمزية للارض دون تخليها عن انسانيتها ومثاليتها الدرامية التي لا تنبع منها كمطلق بل كمحسوس له ابعاده .

وحين تندفع الاحداث للاجابة عن السؤال الدرامي العام ، ماذا سيفعل الفدائيون من اجل زياد ، نواجه مجموعة من الاسئلة تفرضها الحوادث المتتابعة في المسرحية : ترى هل سيعترف زياد على الرفاق ـ وهو المراهق الصغير ـ امام التحدي الجنسي الصارخ الذي تعزف عليه راشيل العاهرة الاسرائيلية ، غير ان صمود « زياد » ومقاومته يجيب على سؤالنا وذلك حين تعلن راشيل « اخفقت في مهمتي معه ، استعملوا الطريقة الاخرى » ، ويعاودنا التساؤل مرة اخرى عن هذه الطريقة الاخرى ثم يمتد الحدث فيحضر « هشام » فنتساءل ترى ماذا سيفعل « زياد » بعد ان حضر هشام وهو جريح ، وفي الحقيقة ان تقاطر الاحداث بهذه الصورة يوتر الجو العام للمسرحية ويمنحها قدرة هائلة على النبض الانفعالي لتصل حتى الازمة .

الازمة في « زهرة الدم » تتحدد على خريطة البناء الفني للمسرحية ، لحظة ان تذهب « ليلى » لانقاذ « زياد » ، انها لا تملك سلاحا للدفاع ، كما انها لم تكن عازمة على استخدام منطق القوة ، وانما مثيرها ودافعها الانفعالي قد خط لها وسيلة تصرفها ، فاذ بها تستخدم منطق الاستعطاف من أجل انقاذه ، محاولة اقناع عقول ونفوس ليس ثمة شيء مشترك يربط بينها وبين العواطف الانسانية ، فأية اساءة فهم تلك التي وقعت فيها « ليلى » ؟ وتبلغ المسرحية ذروتها او السمت الدرامي لحظة ان تعرف « ليلى » ان « هشام » قد سبقها وقد اهرق دمه من اجل انقاذ « زياد » ، فتفقد وعيها وينكشف ثوبها عن ساقها امام عيون جافة جائمة خاوية من اي تقدير للظروف المحيطة بها ، عندئذ تدنو « ليلى » من الخطر ، وما زالت الاجابة عن السؤال الدرامي العام حائرة ، حيث قد تكاثر كم التراكمات والتعقيدات في الاحداث التي تشابكت بازدياد يعوق الاجابة عن التساؤل الذي طرحته نقطة الهجوم ، وتشتد عناصر الصراع توترا بالافعال البربرية التي يرتكبها المغتصب ضد اصحاب الارض من هدم لمنزل « اسرة نزيه » ، وبما يحمل هذا الهدم من معان وايحاءات اذ هو « محاولة اجرامية لهدم كل الركائز الروحية للانسان لاقتلاعه من جذوره » وايضا فضح للاكذوبة الكبرى والشعارات الزائفة التي يرفعها المغتصبون « الذين يزعمون في طول

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ

قصائد حب الى عشتار

ـ ١ ـ

تذرف السروة في الليل دموع العاشقة
وتُعري صدرها للصاعقة
وعلى أقدامها يسجد عرّاف الفصول
عاريا أنهكه البرد وغطى وجهه ثلج الحقول
يخدش الارض ، يُعريها ،
يمـوت
تاركا قطرة نور
بين نهديها الصغيرين ، وفي أحشائها رعشة بركان يثور
حيث تنشق البذور
ترضع الدفء من الاعماق ، تمتد جذور
لتعيد الدم للنبع وماء النهر للبحر الكبير
والفراشات الى حقل الورود
فمتى عشتار للبيت مع العصفور والنور تعود ؟

ـ ٢ ـ

نبتت لي أجنحة
وأنا أحمل من منفى الى منفى تعاويذ الملوك السحرة
وزهور المقبرة
وعذابات الليالي الممطرة
مثل ماء النهر من تحت جسور العالم المشحون بالحقد ، تلمست الضفاف المظلمة
وتمزقت وناديتك باسم الكلمة
باحثا عن وجهك الحلو الصغير
في عصور القتل والارهاب والسحر وموت الآلهة
وتمنيتك في موتي وفي بعثي وقبّلت قبور الاولياء
وتراب العاشق الاعظم في أعياد موت الفقراء
ضارعا أسأل ، لكن السماء
مطرت بعد صلاتي الالف ثلجا ودماء
ودمى عمياء من طين وأشباح نساء
لم يرين الفجر في قلبي ، ولا الليل على وجهي بكاء
فمتى تنهل كالنجمة عشتار وتأتي مثلما أقبل في ذات مساء
ملَك الحب لكي يتلو على الميّت سفر الجامعة
ويغطي بيد الرحمة وجهي وحياتي الفاجعة

ـ ٣ ـ

طائر غرّد عبر النافذة
رف في الظلمة والنور وحيّاني
وأهدى وردة محترقة
سقطت فوق ذراعي بضة مرتجفة
وأنا ألتف في نومي بحبل المشنقة :
صارت الوردة طفلة
صارت الطفلة أنثى عاشقة

تتشهى قمر الثلج ونار الصاعقة

ـ ٤ ـ

نبذتني طرق العشق وملتني الدروب
وأنا أبحث في بابلَ عــن خصلــة شعرْ علقتها الريحْ
في حائط بستان الغروب
عن نقوش وكتابات على الطين وآثار حريق
من هنا مرت وفي هذي الطلول الدارسة
لاحقتني لعنات الآلهة
والذئاب الجائعة
وأنا أتلو على المعشوق سفرْ الجامعة
ميّتا عاد من الاسر بأسرار الملوك السحرةْ
ليرى قريته المحتضرة
خبرا يرويه للريح صداح القبرة
وترابا خلفته الزوبعة
في التكايا وعلى وجه دراويش الفصول الاربعة

ـ ٥ ـ

مَنْ تُرى : ذاق ـ فجاعت روحه ـ حلو النبيذ ؟
وروابي القارة الخضراء والمطاط والعاج وطعم الزنجبيل؟
وعبير الورد في نار الاصيل ؟
ورأى الله بعينيه ، ولم يملك على الرؤيا دليل
فأنا في النوم واليقظة : من هذا وذاك
ذقت ، لمّا هبطت عشتار في الارض ملاك

ـ ٦ ـ

وردة مرتجفةْ
حملتها الريح من أرض الاساطير الى المقهى وموت الارصفة
لتغني صامتة
للروابي الخضر في الحلم وأوراق الخريف الميتة

ـ ٧ ـ

جعتُ في بستان هذا العالم المثقــل بالازهار والحب وألوان الثمار
جعت حتى الموت في كل عصور الانتظار
وتمزقت ببطء من نهار لنهار
وتماسكت وقد زعزعني الدهر وقبّلت قبور الاولياء
وتراب العاشق الاعظم في أعياد موت الفقراء
فلماذا عقرب الساعة دار ؟
عندما ألقت على الجائع عشتار الثمار

ـ ٨ ـ

لون عينيك : وميض البرق في أسوار بابلْ
ومرايا ومشاعل
وشعوب وقبائل
غزت العالم ، لما كشفت بابلُ أسرار النجوم
لون عينيك : سهوب حطمت فيها جيوش الفقراء
عالم السطوة والارهاب باسم الكلمة
وغزت أرض الاساطير وشطآن العصور المظلمة

ـ ٩ ـ

طفلة أنت وأنثى واعدة
وُلدت من زبد البحر ومن نار الشموس الخالدة
كلما ماتت بعصر ، بُعثت
قامت من الموت وعادت للظهور
أنت عنقاء الحضارات
وانثى سارق النيران في كل العصور

ـ ١٠ ـ

موجة تلثم أخرى وتموت
وجبال ودهور
وكهوف ملّت الصمت وأقمار من الطين تدور
وأنا اكتب فوق الماء ما قلت وقالت عشتروت :
لا تهدىء آه من حبي ، وقــلْ شيئـا بـه أمسك ، شيئا لا يموت
لا تُوَفر جسدي : أيامه معدودة ، فلتشعل النيران فيه
فغدا فوق ذراع امرأة أخرى وفي أحضان أخرى تشتهيه
انني أصبو الى ذاتك : ما هذي الدموع ؟
قبلة أخرى ، فنعرى ونجوع
حاملين الشمس من تيه لتيهْ
صنم من ذهب أنت وفي أعماقه مختبىء كاهن صحراء النجوم
مال نحوي وارتوى من شفتي ، فانطفأت في يده احدى الشموع

جسدي أصبح وردةْ
عاريا في النور وحده

ـ ١١ ـ

مدن الله على الارض بنيناها ، بنينا كعبة عبر البحار
وتعبدنا بمحراب النهار :
أيها الحب الذي يعمر بالحب القفار
قادما أقرع أبوابك ، أقبلت من الارض الخراب
آه لن تسقط أزهاري على هذا التراب
دون ان تمنح محبوبي الثمار

عبد الوهاب البياتي

✶ من ديوان (الكتابة على الطين) الذي يصدر قريبا عن دار الآداب ، بيروت .

جذور الريح

(مقطع خامس من قصيدة طويلة الى الفدائيين الفلسطينيين
نشرت اجزاء منها في مجلة « الآداب » ..)

يا فتى ، بالله ، خبر كيف جاء
طائر الموت الى عينيك مثقوب الجبين ؟
وانطوى والتف كالخيط على الجذر المضاء
جلدك المحروق في جمر الحنين ؟
زرتنا ، يوما ، وفي عينيك شمس ونجوم
وعلى الكف ندى يحمل امواج الكروم ..
برهة خجلى ، وأصدت في الزقاق الخطوات
وهوت كالصخر ، فوق الباب ، أيدي الغرباء ..
يا فتى مر طعام الذكريات
غير ان الريح هزت قمر الشباك في ليل الشتاء .
يا فتى ، بالله ، خبر كيف جاء
طائر الموت الى عينيك مثقوب الرداء ؟
(أشم شواء لحمي في عيونك ، أستلذ النار تأكلني وتتركني
رمادا في مهب الريح تعصف بي ، وتنثرني .
فيا وطني
ترابك تاج رأسي ، قرة العينين ، ثوبي الرث او كفني فلا تهن ..)
عائد أنت الينا حينما يهمي السحر
مطرا من برتقال ،
حينما يطفو القمر
مثل طيارة طفل فوق امواج التلال .
لا تبال
احرقت عيناك لحمي ، لا تبال
يا زمان البرتقال
مثلما يحمل ، في عتمته ، الجذر النهار
مثلما يحمل ، في رحلته ، النسغ الثمار
عائد انت الينا يا زمان البرتقال .

(وتلسعني
عيونك مثل حد السيف
فاهتف : خبزي المسموم وجهك ، عشبة مهزولة في الصيف ،
فخلي الريح تعصف بي وتحملني
رعودا او بروقا ، ولتشب النار في سفني .)
عائد انت الينا
نخلة فرعاء تمتد علينا ،
راية نجدية ملء يدينا .
عائد انت الينا
حيدرا أو عقبه
تمتطي الريح خيولا متربه ،
قبضة تنزع ، يوما ، خيبرا
تمتطي الريح الى حطين مهرا أشقرا .
(قرأنا وجهك المهجور في الحفر
قرأنا وجهك المحفور في صخر الفؤاد الجائع العاري
وامسكت الاصابع والشفاه بجرفك الهاري ،
وارعدت الذرى في القاع ، وانحدر الهشيم بكل منحدر
وبين توهج النيران تفتح طرفها زهره ..
فاهتف : زهرتي ..
وتلف وجهي غيمة ثره .)
يا فتى ، بالله ، خبر كيف جاء
طائر الموت الى عينيك مثقوب الجبين ؟
سقطت طيارة من ورق اخضر في خندق طين ،
سقط النارنج ،
والجلد الذي احرقه جمر الحنين
ابدا يلتف كالخيط على الجذر المضاء .

بغداد — **حسب الشيخ جعفر**

استراتيجية الفداء

بقلم عبد القادر ياسين

ما ان سمع بما اقترفه ابن اخيه ، حتى القى بنفسه طعما لاكبر البراكين الثائرة في اليابان ، هربا من العار الذي لحق بالعائلة ، بفرار ابن اخيه ـ وكان قائدا في الجيش الياباني ـ الى صفوف اعداء بلاده الروس .

وكانت المفاجأة الاولى ، حين تسلل القائد المذكور عائدا الى بلاده، عشية انتهاء الحرب ، بعد ان لعب دورا هاما في تضليل اعدائه ، مما الحق بجيوشهم انكر الهزائم .

وكانت المفاجأة الثانية ، حين كشفت السلطات اليابانية النقاب عن علم العم المنتحر بالمهمة الوطنية لابن اخيه ، ورغبته في تأكيد خيانة ابن الاخ الهارب ، بالانتحار !

حدثت تلك الواقعة قبل اكثر من ستين عاما ، حين اشتعلت الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٤ . وبالرغم من بعد زمان تلك الواقعة عنا ، الا انها تلح على خاطري كلما جاء ذكر الفداء والتضحية ، لما تعطيه من نموذج مكثف للفداء ، يتعدى حد الخيال .

ما الفداء !

الفداء هو استعداد المرء للتضحية من اجل قناعاته ، ومثله ، ومعتقداته . ويعني ـ لغويا ـ احلال شيء مكان شيء اخر حماية له ، او تعويضا عنه .

والفدائية الاصيلة لا بد وان يكون حافزها نبيلا ، كايمان عميق بعقيدة ، او حب شديد لوطن ، او غيرة على حرمة . والفداء غير التهور والاندفاع الطائش ، ولا بد من اقترانه بعقيدة ، وطنية كانت ام طبقية .

ويختار المناضل طريق الفداء بملء ارادته وحريته ، ودونما ضغط خارجي ... وهذا « ريجي دوبريه » يؤكد : « ولا يستطيع اي رجل ان يأمر اي رجل اخر ان يضحي بنفسه في سبيل الحرية ، لان الرجال لا يضحون براحتهم ورفاهيتهم وباولادهم وبنور النهار ، ولا يموتون ، بناء على اوامر من اي انسان . وانما من اجل عقيدة يختارونها ولا يتخلون عنها » (١) .

ولا يضيع دم الشهداء هباء ، اذ يمثلون لشباب بلادهم انبل الالهامات ، واطهر الحوافز لمزيد من البسالة والجسارة ، مما يجدد دم الثورة ، ويضمن لها الاستمرار والتدفق . « وهناك رجال يكونون اكثر خطرا في مماتهم منهم في حياتهم ، حتى ولو ان اولئك الذين يخافونهم يقطعون ايديهم من اجسامهم ويحرقون جثثهم ويخفون رمادها » (٢) . كما « ان العنف ، كحربة آخيل ، يمكن ان يلأم الجروح التي يحدثها » (٣) .

والفداء قديم قدم الصراع الذي فجرته الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، والتي كانت افرازا طبيعيا للمجتمعات الطبقية ، التالية للمشاعية البدائية . وكان الفداء هنا ذودا عن الارض ، ثم ارتقى الى الانتصار للعقائد ، ثم عادت الارض لتكون الدافع الاول للفداء ، وفي يومنا هذا تشكل الارض والعقيدة معا والدفاع عنهما والانتصار لهما الحافز الاساسي للفداء والتضحية .

فمع نشوء الملكية في التاريخ ، انتعشت الرغبة في الاقتناء وتوسيع الملكية عند الاقوياء من البشر ، وفي المقابل استعد الاخرون للذود عن مزارعهم التي تقيم اودهم وتحميهم .

ومع اتساع رقعة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج في المجتمع العبيدي ، اتسعت الارض التي يدافع عنها الانسان لتشمل كل ارض السيدة . ثم ازداد الاتساع ليشمل الاقطاعية في المجتمع الاقطاعي ، ثم الولاية او الامارة ، واخيرا الوطن وذلك مع افول المجتمع الاقطاعي وبداية المجتمع الرأسمالي .

ومنذ بدء مرحلة الاستعمار ، خاضت الشعوب في البلدان التي اصبحت هدفا للاحتلال والاستعمار ، حروبا باسلة غير متكافئة للذود عن اوطانها . وسمعنا العديد من قصص بطولة وفداء سطرها ابناء تلك البلدان ، من الهند والصين شرقا الى مراكش والجزائر غربا، ومن بلاد الشام شمالا الى جنوب افريقيا جنوبا .. كما قرأنا الكثير عن التضحيات الهائلة التي قدمها ثوار اميركا اللاتينية لطرد المستعمرين الاسبان والبرتغال من اوطانهم في القرن الماضي .

ومع كل دين جديد لا بد من ظهور عمليات تعذيب وقتل للعديدين من معتنقي ذلك الدين ... فمع ظهور المسيحية ، تفنن الاباطرة الرومان في تعذيب وقتل ابناء ومريدي الدين الجديد ، واعطى اولئك اروع الامثلة على التمسك بالعقيدة والاستشهاد دونها ، وتفضيلهم مصارعة الاسود ، وملاقاة الافاعي والحيوانات المفترسة والموت بين مخالبها وانيابها ، على أن يتنكروا لدينهم ، الذي وقع منهم في سويداء القلوب ، فحق لهم ان يضعوه في حدقات العيون .

كما كان لنا المسلمون الاوائل القدوة في الاستشهاد من اجل المبدأ ، وقصص تعذيب واستشهاد الكثيرين من عبيد قريش على يد شرفائها لا زالت ماثلة في ضمائرنا .

في فجر الاسلام

ولشعراء العرب ـ في صدر الاسلام وضحاه ـ الكثير من القصائد التي تحض على الفداء ، لعل من ابرزها تلك القصيدة للمتنبي، والتي يقول في احد ابياتها :

واذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز ان تعيش جبانا

وقول قطري بن الفجاءة :

وما للمرء خير في حياة ... اذا ما عد من سقط المتاع

وقول شاعر عربي اخر :

فاقني حياءك لا اباك ، واعلمي ... اني امرؤ سأموت ان لم اقتل

اما ابو بكر الصديق ، فهو القائل « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

ولعلي بن ابي طالب مأثورة في البسالة والفداء ، حيث يقول : « والله ما ابالي ادخلت على الموت ، او خرج الموت الي » .

وما قالته اسماء بنت ابي بكر لابنها عبد الله بن الزبير ، حين خاف من تمثيل « الحجاج بن يوسف الثقفي » بجثته بعد قتله ، ما زال مضرب الامثال في رباطة الجأش ، وعدم الاهتمام بمصائر الافراد في مقابل الانتصار للعقائد والمبادىء ، حيث تقول له : « يا بني ،ماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها » ؟!

وحين تتفاقم الازمة في صفوف المسلمين ابان خلافة علي ، تطلع

---

(١) ريجي دوبريه ، مرافعته امام المحكمة العسكرية في بوليفيا ، الطبعة العربية ، ص ٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٣) سارتر في مقدمة (معذبو الارض) لفرانز فانون ، ص ٣٨ .

علينا « الخوارج » ، كفرقة فدائية تمثل التيار المتشدد في الاسلام ، ويخرج انصارها طالبين الموت دون عقيدتهم .

ويسارع ابو عبيدة الجراح لملاقاة الفرس ، مغامرا بجعل النهر من خلفه ، محرضا جنده على طلب الشهادة ، قائلا لهم : « يجب ان لا يكونوا اجرأ على الموت منا » .

الحرب الفدائية في الاسلام

كثيرة هي صور الفداء في صدر الاسلام ، سواء في اشكالهـا الفردية او الجماعية . واساطير خالد وعلي وبن الخطاب وغيرهم من شجعان المسلمين اكثر من أن تحصى . والشهيد الحسين بن علـي ، حين لم يكن يطلب منه اكثر من لوي لجام ناقته ، ليضمن بعد ذلـك حياة ناعمة رغدة ، فضل الاستشهاد في سبيل المبدأ ، وخاض بالعشرات القليلة من رجاله الحرب ، ليفدي بروحه العقيدة التي طالما آمن بها ودعا اليها .

وكان سيف الدولة الحمداني امير حلب (القرن العاشر الميلادي) ينظم فرق الفدائيين لتخوض « حملات القفز » لمباغتة قواعد الاعداء في قمم الجبال المتفرقة ، وتسحقها .

اما صلاح الدين الايوبي ، فقد نظم ـ بالاضافة لجيشه النظامي ـ الجيش « المطوعة » ، وقوامه من المتطوعين الذين يتسلحون ذاتيـا ، ويخوضون المعارك الانتحارية في الصفوف الخلفية للاعداء .

وقد استخلص المسلمون الاوائل الشروط اللازمة لنجاح العمـل الفدائي ، من خلال تجاربهم النضالية . وهي لا تكاد تختلف كثيرا عن شروط العمل الفدائي المعاصر ، وهي :

١ ـ الدأب وطول النفس ، وهذا خالد بن الوليد يسير بيـن صفوف مقاتليه ، قائلا لهم : « ان الصبر عز ، وان الفشل عجز » .

٢ ـ السرية ، وكان الرسول يوصي جنوده وقادته علـى ضرورة استخدام « الرسائل المغلقة » .

٣ ـ الايثار ونكران الذات وعدم المباهاة .

٤ ـ الاستطلاع الواسع ، وهذا علي بن أبي طالب يوصي ابنـه محمدا ، حين سيره على رأس حملة عسكرية : « ارم ببصرك اقصـى القوم » . وعمر بن الخطاب يقول لقائده سعد بن ابي وقاص « تعرف الارض كلها معرفة اهلها » و « اذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخـف عليك امرهم » .

٥ ـ الخداع ، وهذا محمد يقول : « الحرب خدعة » .

٦ ـ المبادرة والمباغتة ، وللرسول وصية لاحد قادة سراياه يقـول له فيها : « اغر عليهم قبل ان تتلاقى عليك جموعهم » .

٧ ـ حماية ظهر العمل الفدائي ، والرسول يقول في ذلك : « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا في اهله بخير فقد غزا » .

ويحدد النبي الاشياء التي تستوجب الفداء ، فيقول : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون اهله فهو شهيد » .

الفداء اليوم

واذا كان جيفارا المثال الحي ـ اليوم ـ للايثار والتضحية وروح الفداء ، فان قصصا بطولية كثيرة قد سبقته . الا ان ايا منها لم يصل الى مستوى جيفارا في تضحيته ، وهو الذي تنازل ـ بمحض اختياره ـ عن مركزه كوزير وشخصية مرموقة في كوبا ، ليخوض غمار حـرب فدائية في بلد ليس وطنه ، ويستشهد فيه ، بعد ان عانى الكثير من الجوع ، والبرد ، ومرض الربو ، وخيبة الامل في بعض من كان ينتظر منهم مؤازرته في بوليفيا !

وكانت الاحتكارية اليابانية قد تمكنت من تسخير ابناء الشعب الياباني لخدمة اغراضها التوسعية ، مضللة اياهم بانهم انما يموتـون في سبيل « الميكادو » ، وانهم سيبعثون ـ لذلك ـ من جديد ! لـذا فقد تميز الطيارون اليابانيون ـ ابان الحرب العالمية الثانية ـ بفدائية منقطعة النظير ، فقد كان الطيار منهم اذا عجز عن تدمير سفينةحربية معادية سرعان ما يهوي بطائرته في مدخنة السفينة ، لتنفجر طائـرته والسفينة معا .

ومن القصص الفدائية المثيرة ، قصة الملحق العسكري الياباني في موسكو ، ابان الحرب العالمية الثانية ، والذي كـان مثـار شكوك المخابرات السوفياتية ، مما دفعها الى اعتباره شخصا غير مرغـوب فيه . وكان قبل طرده من موسكو قد سلـم المخابرات السوفياتيـة خرائط ومعلومات تكشف مواقع ، وكثافة ، ونوعية القوات اليابانيـة ومعداتها ، الا ان المخابرات السوفياتية لم تعر تلك الخرائطوالمعلومات اي اهتمام ، نظرا لشكها في مقدمها . وعاد الملحق الى بلاده ، وفوجىء السوفيات بالحكومة اليابانية تعدم ملحقها المذكور ، بعد ان ادانتـه بالخيانة العظمى ، ولم يحتمل والده ، عضو مجلس الشيوخ ، الصدمة فانتحر . وهنا اسرع العسكريون السوفيات الى الخرائط والمعلومات التي كانوا قد اهملوها . واستعانوا بها في اعداد هجومهم على الجبهة اليابانية . الا انهم اكتشفوا ـ اثناء المعارك ـ ان تلـك الخرائط والمعلومات كانت خادعة ووهمية ، مما أنزل بالجيش السوفياتي خسائر جسيمة . وقد اتضح لهم في اعقا بالمعارك التي خاضوها مع الجيش الياباني ، ان الملحق لم يكن خائنا لبلاده ، وان الحكومة اليابانية منحته ووالده وسام الشمس الفضية ، أعترافا لهما بوطنيتهما وجسارتهمـا وتضحيتهما في سبيل انتصار وطنهما !

وتزخر المسيرة الكبرى في الصين بالكثير من مواقف البطولـة والفداء ، لعل اشهرها ما فعله جنود الجيش الاحمر عندما اقتربوا من نهر يريدون عبوره ، ولا تصل حافتي النهر اية جسور ، بل وعلـى الحافة الثانية كان جنود الكومنتانغ يتاهبون لاقتناص الصيد الثمين . وفجاة تشابك بعض الجنود الحمر ، كالحلقات ، من حافة الضفة الاولى حتى حافة الضفة الثانية للنهر ، ولم يفعل جنود الكومنتانغ ، امـام هذا العمل الجسور ، الا ان اطلقوا لسيقانهم العنان ، بعد أن اطلقوا طلقات متفرقة على ذلك الجسر البشري !

وفي صباح الثالث من تموز (يوليو) عام ١٩٤١ ـ أي بعد احـد عشر يوما من بدء الهجوم الالماني ـ وجه ستالين نداءه الـى شعوب الاتحاد السوفياتي ، كي تقيم في المناطق التي يحتلها النازيون«وحدات من الانصار ، راجلة وخيالة ، وتنظم جماعات للتشتيت ، معدة لقتال القطعات المعادية ، وللشروع في حرب العصابات بتدمير الجسـور والطرقات ، وقطع خطوط المواصلات الهاتفية والتلغرافية ، وحـرق الغابات وتدمير المستودعات والقطارات . وينبغي ان تصبح الحياة في المنطقة المحتلة غير ممكنة للعدو او للمتعاونين معه . ينبغي ان يطارد العدو ويدمر اينما وجد ، كما ينبغي نسف وعرقلة كـل التدابير التي يأمر بها » .

ويحدد احد قادة الانصار المهام التي كانت موكلة اليهم ، بانهـا « .. الاستطلاع في المدن ومحطات الخطوط الحديدية الهامة . وكـان ينبغي تحري اخبار العدو وتبليغها الى موسكو : المعلومات عن قواته ، واماكن وجود المصانع الحربية والمستودعات ومراكز القيادة ، ومعرفة عدد واتجاه قواته واسلحته ، ومعرفة كل اسرار الالمان العسكرية.والى جانب هذا كله كان ينبغي ان نكبد الالمان اضرارا انى تسمح لنـا فرصة ذلك » (٤) .

لقد لعب الانصار السوفيات دورا هاما في دحر النازيين الالمـان وهزيمتهم .

ويوميات « جوبلز » توضح لنـا مدى اهميـة وفعالية الانصار السوفيات ، اذ يقول :

« ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٢ ـ يتطور خطر الانصار في المنطقة الروسية المحتلة بسرعة متزايدة ، فلقد عانينا كثيرا من الصعوبات خلال الشتاء ، الا ان هذه الصعوبات لم تنته بظهور الربيع . فعلى الجبهة

---

(٤) « كان هذا في ضواحي روفنو » ، ديمتري ميدفيديف ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

الوسطى ، نسف الانصار الخط الحديدي في عدة اماكن بين بريانستك وروسارو . ان نشاطهم يثير الحيرة والاضطراب » (٥) .

والصراخ الهستيري الذي يطلقه الاسرائيليون ، عند اصطدامهم بقوة من الفدائيين :

ـ فدائييم استسلم !

ويرد الفدائي عليهم :

ـ الفلسطيني لا يستسلم .

يذكرنا هذا الديالوج المثير ، الذي طالما دار بين الجنود الالمان والانصار السوفيات ، حين كان يصيح الالمان :

ـ استسلم ، ايها الروسي !

فيجيبهم الانصار وهم يطلقون النار :

ـ البلاشفة ابدا لا يستسلمون .

ونسجت الحرب الفيتنامية ضد المستعمرين الفرنسيين اروع اساطير البسالة والفداء . وها هم الفلاحون البسطاء ـ اثناء معركة ديان بيان فو ـ يلفون احزمة الديناميت حول اجسادهم ، ويقتحمون بها خطوط الاعداء لفتح الثغرات في حصون « ديان بيان فو » وتمكين قوات الفيت منه من اختراق القلعة واحتلالها .

وكان هؤلاء البسطاء يموتون من اجل حياة سعيدة لابنائهم وللاجيال القادمة من ابناء شعبهم .

اما قصص بطولة الشعب الفيتنامي اليوم ، فلا زال تدفقها يفقدنا القدرة على ملاحقتها وتصويرها .

ولمائة وثلاثين سنة ظل الشعب الجزائري يقدم الشهداء قوافل في قوافل ، مسجلا بذلك اصدق آيات الفداء من اجل الارض والوطن.

والاصرار في التجربة الكوبية على تخليص البلاد من حكم العميل « باتيستا » ، لا يقل في روعته عن التضحيات العظيمة التي قدمها ابناء الشعب الكوبي لتحرير وطنهم وبناء الاشتراكية فيه .

الفداء في فلسطين

صامت لو تكلما	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم ابكما
واخو الحزم لم تزل	يده تسبق الفما
لا تلوموه قد راى	منهج الحق مظلما
وبلادا احبها	ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم	ـ ضجت الارض والسما

بهذه القصيدة يصور لنا الشاعر الفلسطيني « ابراهيم طوقان » الفدائي الفلسطيني ، ولماذا اختار طريق الفداء .

اما الشاعر الفدائي « عبد الرحيم محمود » فقد انخرط في سلك الثوار عام ١٩٣٦ في فلسطين ، وبعد فشل الثورة يلجأ الى العراق ، وهناك يقول قصيدته التي يبث فيها بلاده حبه وشوقه :

يا بلادي يا منى قلبي	تسلمي انت فالدنيا هذر
لا ارى الجنة ان ادخلها	وهي خلو منك الا كسقر
منيتي في غربتي قبل الردى	ان يملى من مجاليك النظر
ظمئت نفسي لمغناك فهل	يطفىء الحرقة بالعود القدر ؟!

وتثير فيه انتكاسة ثورة ١٩٤١ الوطنية في العراق الحمية ، فيعود لمناداة ابناء شعبه :

بني وطني دنا يوم الضحايا	اغر على ربى ارض المعاد
فمن كبش الفداء سوى شباب	ابي لا يقوم على اضطهاد
ومن للحرب ان هاجت لظاها	ومن الاكم ، قدح الزناد
فسيروا للنضال الحق نارا	تصب على العدى في كل واد
فليس احط من شعب تعبد	على الحلسى وموطنه ينادى

ولما قامت حرب ١٩٤٨ سارع الى وداع طلبته في كلية النجاح بمدينة نابلس ، والتحق بجيش الانقاذ في شمال فلسطين ، وبقي هناك حتى بعد انسحاب جيش الانقاذ ، وفي الثالث عشر من حزيران(يونيو) ١٩٤٨ اصيب في « معركة الشجرة » بشظية قنبلة ، وفيما كانت السيارة تنقله الى مستشفى الناصرة سقطت في واد فاستشهد ، ولا زالت قصيدته ـ التي يفسر فيها ما الفداء ولماذا ـ لا زالت في ضمائر كل الوطنيين الفلسطينيين ، حيث يقول :

سأحمل روحي على راحتي	والقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق	واما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان	ورود المنايا ونيل المنى
ارى مقلتي دون حقي السليب	ودون بلادي هو المبتغى
لعمرك هذا ممات الرجال	ومن رام موتا شريفا فذا
بقلبي سارمي وجوه الغزاة	فقلبي حديد وناري لظى
واحمي حياضي بحد الحسام	فيعلم قومي باني الفتى

وتحرك بسالة الفدائيين في القتال حمية الشاعر معين بسيسو الطالب الفلسطيني بالقاهرة انذاك ، فيصدر قصيدته « المعركة » التي مطلعها :

انا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح
واحلل مكاني لا يخفك دمي يسيل من السلاح

وما ان يتخرج الشاعر حتى يسافر الى عراق نوري السعيد ، حيث روعته المجازر البشرية هناك ، ويعود الى غزة ليبدأ في المعاناة الحقيقية مع ابناء شعبه ، ويقول في حب بلاده قصيدة مطلعها :

يا ايادي ارسمي من دمي ومن اصفادي خريطة لبلادي

ثم هو يطالب الامهات بتشجيع ابنائهن على البذل والنضال والتضحية ، فيقول :

من لم تودع بنيها بابتسامتها الى الزنازين لم تحبل ولم تلد

ويشتد العسف ، ويقع العدوان الثلاثي ، وتحتل القوات الاسرائيلية قطاع غزة ، وتلاحق المناضلين ، ويقع احد رفاق معين في قبضة الاسرائيليين ، وينهار ويدلي باعترافات كاملة عن اسماء رفاقه للضابط الاسرائيلي المشرف على تعذيبه . فتحرك تلك الواقعة المشينة معين في حينه ، ويقول قصيدته « المرتد » التي مطلعها :

اخي لو شحذوا السيف على عنقي فلن اركع
ولو في فمي الدامي حبال سياطهم تنقع
فلن ارجع عن فجري ، لن ارجع ، لن ارجع
من الارض التي من ثديها بركاننا يرضع
اخي ، لو جرني الجلاد قدامك للمذبح
لكي تركع ، ترجوه بأن يعفو وان يصفح
اخي ، ارفع رأسك الشامخ كي تشهدني اذبح
لكي تشهد جلادي ، والسيف الذي يرشح
اخي ، من يفضح الجلاد ، غير دمائنا تفضح

***

ولقد كان الفداء قد طبع المقاومة الفلسطينية للاحتلال البريطاني، فمنذ عام ١٩١٨ والهبات والثورات تتوالى في استمرار متقطع في فلسطين ضد الاستعمار والصهيونية ، فمن هبة ١٩٢٣ ، الى هبة١٩٢٩، الى ثورة القسام ١٩٣٣ ، الى الثورة الوطنية الكبرى ، والتي امتدت من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ ، وكان الفداء هو الخيط الذي يتخلل كل تلك الهبات والثورات .

وكان الشعب يقدم الشهداء اخلاصا منه لمبادئه الوطنية ، ودفاعا منه الارض التي تكالبت عليها الصهيونية والاستعمار البريطاني . الا انه يجب الاعتراف هنا ان القيادات الفلسطينية انذاك كانت عاجزة ـ بسبب طبيعتها الرجعية وقصورها الفكري ـ عن وضع استراتيجية للثورة الفلسطينية ، مما جعل الاحداث تتقاذفها ، واهدر الكثير من الدماء في غير مجراها الحقيقي .

اما اليوم فان نظرية للثورة الفلسطينية تكاد ان تكتمل ، بعد ان تسلم المقاتلون زمام معركتهم بانفسهم ، وبعد السنوات الطويلة من

(٥) ـ (حرب العصابات السوفياتية) ص ٢٩ .

التضحيات لاكتشاف قوانين تلك النظرية . وهكذا يودع الشعب الفلسطيني مرحلة التخبط والارتجال والعجز والقصور في المجالين النظري والعملي ، والتي دامت اكثر من خمسين عاما ، دفع فيها الشعب الثمن غاليا .

وهذا ياسر عرفات ، في حديث له مع مجله « جون افريك » في اوائل مايو الماضي ، يحدد هدف « الفتح » ، قائلا : « هدفنا هو ان نوجد قوة ثورية فلسطينية قادرة على التصدي لتحدي العدو في اي مجال ، اما من الناحية العسكرية فان هدفنا هو تقطيع أوصال اجهزة الدولة العنصرية الفاشية الاسرائيلية ، ومن الناحية السياسية نريد اقامة دولة فلسطينية تقدمية ديمقراطية ، تضمن فيها كل الحقوق المشروعة لجميع السكان » .

وفي حديث له مع جريدة « الجمهورية » القاهرية ، قال احد قادة الفدائيين : « .. ورسمنا منذ البداية خطنا السياسي على اساس تحرير فلسطين وبناء مجتمع ديمقراطي تقدمي يحفظ للانسان فيه حقه الطبيعي في العيش دون تمييز في الدين او العقيدة » .

« والجبهة الوطنية مطلب شعبي ، وشعار ثوري لا بد ان يتحقق من خلال الفعل والممارسة ، وليس من خلال عمليات تنسيق ولقاء مظهري بهدف المشاركة في تسيير دفة النضال وليس المشاركة بالعمل في القواعد » .

و « .. خلق الجبهة العربية المساندة للثورة الفلسطينية المسلحة » . « ولا يكفي ايها الرفاق ان نخلق تيارا فضفاضا يؤمن بصحة اتجاه ثورتنا ، ولا بد ان يتبلور هذا التيار في شكل منظمة » .

« وحددنا اهدافنا بما يلي :

١ ـ تحرير فلسطين تحريرا كاملا من الاحتلال الصهيوني .

٢ ـ تصفية دولة الاحتلال الصهيوني سياسيا وعسكريا واجتماعيا وفكريا .

٣ ـ اقامة دولة فلسطينية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة،تحفظ للمواطنين الاصليين حقوقهم الشرعية دون تمييز في الدين او العقيدة .

٤ ـ بناء مجتمع تقدمي على اسس ديمقراطية شعبية عادلة .

٥ ـ ضمان حقوق الانسان والحريات العامة لكافة المواطنين .

٦ ـ المشاركة الفعالة في تحقيق اهداف الامة العربية وبناء المجتمع العربي التقدمي الموحد .

٧ ـ مساندة الشعوب المضطهدة في تحرير اوطانها وتقرير مصيرها من اجل بناء صرح السلام العالمي على اسس عادلة » (٦) .

وتمثل تلك البنود السبعة ـ في رأيي ـ الطرح الصحيح لقضيتنا الوطنية . وبدون الوضوح السياسي ، وبدون خط سياسي وخط عسكري صحيحين فان دم الشهداء سيهدر عبثا ، ودم الشهيد ـ كما يقول ريجي دوبريه ـ ليس حجة سياسية .

وقد ادى الطرح الصحيح لقضيتنا الوطنية الى اعادة ترتيب قوات الثورة ، وتغيير مواقعها ، ليأخذ الشعب الفلسطيني موقعه الصحيح كطليعة للتحرير ، بعد ان ظل طوال عشرين عاما تحت وصاية المزايدين والمساومين من الزعماء العرب ، مبعدأ عن مكانه الصحيح وخندقه الاصيل .

ويكتسب العمل الفدائي الفلسطيني اليوم اهميته ، ليس فقط في طرحه الصحيح للقضية الفلسطينية ، بل باعتباره اول عمل شعبي بحت يجري لطرد المحتل الاجنبي من الارض العربية . صحيح ان صلاح الدين سبق وجهز الحملات لطرد الصليبيين ، ونجح في ذلك ، الا انه فعل ذلك من موقع السلطة .

ومما يزيد في اهمية دور العمل الفدائي ـ ايضا ـ انه يعمل لتحطيم اطماع الصهيونية ، التي يسيل لعابها لابتلاع مزيد من الاراضي العربية ، بعد ان قاربت على الانتهاء من هضم كل فلسطين !

كما أن العمل الفدائي ، لا شك ، يحدث الكثير من التغييرات في مواقع العديد من الطبقات والفئات في البلدان العربية ، ويعجل في انضاج الظروف الثورية في البلاد العربية .

ويمنع العمل الفدائي بعض القادة العرب من التوصل الى تسويات ومساومات مع الصهيونية والاستعمار ، بما يشكله من تهديد لانظمة اولئك القادة .

هذا بالاضافة الى ما احدثه من تغيير في نظرة اجزاء ليست بالبسيطة من الرأي العام العالمي تجاه فلسطين وشعبها ... حيث اوضح العمل الفدائي ان قضيتنا الوطنية هي قضية تحرير وطني وليست « قضية لاجئين » ، وان شعب فلسطين قد نبذ الى الابد الديكور الاستعماري ، الذي حوله ـ لاكثر من ثمانية عشر عاما ـ الى شعب لاجيء يستحق العطف وفتات الموائد !

ولزيادة دور وفعالية العمل الفدائي الفلسطيني ، لا بد له من :

١ ـ أن يأتي انعكاسا لوحدة وطنية شاملة ، بما يحقق وحدة البنادق على ارض المعركة .

٢ ـ الارتباط بالمعركة النظامية العربية ... التمهيد لها ، ومؤازتها .

٣ ـ التركيز على بناء المزيد من القواعد داخل الوطن المحتل .

٤ ـ اقامة العلاقات وتمتينها مع الحركات الوطنية العربية ، والتنظيمات التقدمية في العالم .

٥ ـ منح العمل السياسي ـ محليا وعالميا ـ مزيدا من الاهتمام ... اذ تزداد امكانية نجاح العمل الفدائي بدعمه بمقاومة سياسية صائبة ونشطة .

٦ ـ تجنب تجميع قوات الفدائيين في قواعد ثابتة .

واذا كان العمل الفدائي هو الان الشكل الاساسي للنضال في الوطن المحتل ، فان نشوب معركة نظامية بين الدول العربية واسرائيل، يعني ان يصبح العمل الفدائي العامل المساعد للحرب النظامية ، في حين تصبح تلك الحرب والعمل السياسي هما الشكل الرئيسي للنضال من اجل التحرير وتحطيم جهاز الدولة الاسرائيلية .

عبد القادر ياسين

---

(٦) من حديث لبشير المغربي الى الكاتب المصري طاهر عبد الحكيم « الجمهوريه » أيار (مايو) ١٩٦٨ .

عرس الأرض

الغربـــه

... وربما يا طفلتي حوصرتِ بالغربه
لكنني من غيرك الغربه
من غيرك انتظار أن تغتالني عيناكِ
يا حبيبتي
أعيش لو تغتالني
في صوتك المرتعش الحنونِ
شعر عاشق من الصحراء لا يملُ روعة الفناءِ
أو حكاية الرحيل .. والواحاتْ

✶✶✶

ترى تحيطني يداكِ
هل يفرّخ العصفور في فمي غناءه القديمَ
يا يمامتي
وهل يبرعم الشباب فـــي المـدى الملىء بالندى
الناريِّ والصخورِ
أغنياتْ

✶✶✶

شربت غربتكْ
عصرتها دما على دمي
وقلت الشعر مرتينِ
مـــرة لهـــا
ومرة حملته اليك كلمة وقنبله

✶✶✶

« هُمُ بعرسْ وأفراحْ والبيَّـــة بيَّــــة
لنْ عجزنْ الرّجلينْ لمشـــي عدَيَّـــة »

العبـــور

... وقيل
– ههنا انتظره
– فمن « تراب الغرباء (١) » البدء
– أين كنت ؟
– من تكونْ ؟
– مسافر غريب
– وحيثما مضيت من هنا لا بد أن تمرَ
– قفْ
– كأننا من قبل أيها الغريب نعرفكْ
– كأن وجهك المجفف العريق من وجوهنا
– كأنما يبحث عن طفلة
– كأن في يديه ديناميتْ
– أصابعـــه
– أنا الغريب دونما عشاء
– لا خبز في سلالنا سوى رغيف
– وطفلتي ؟
– هناك حيث كنت
بانتظار ان تمر كي نعود بك
معك
– لا بد أن نسير فالزمان ليل
والجليل عند مطلع النهار
– طفلتـــك
– يزوجونها للاعور الدجال .. طفلتك
حناؤها دمك
– ماذا تقول ؟
– الشعر ..؟
– كيف ؟
– « هم بعرس وافراح والبيَّـــة بيَّـــة
لن عجزن الرجلين لمشـــي عدَيَّـــة

المـــوت (٢)

– خذ الرغيف أنت جائع قديمْ
– فقدت امعائي
– أكلت قبل جيل
– أشمه كفى
– فخذه أنت
– انـــت
– أنـــت زائغ العينينْ
– نسيت كيف الجوع
– وانت يا غريب
– أحب طفلتي خذوه لن أذوق لقمة بدونها
– وما عرفت غير جوع ما اشتهى الرغيف
– حرمت طعم الخبزِ
– صائـــم
– وأنت ما أكلت
– بل فعلت
– يا أحبتي والله ما كذبتْ
– كـــذا أنـــا
– أجوع غير أنني أقسمت أن أجوعْ
– وعدت ذلك الغريب
– كيف والمجاعة الوجود والانسانْ
– وطفلة الغريب عرس الجوع
– كأنه حجـــر
– لانه دم ولحم ميتة وطين

ـ لانني حزينْ
ـ لانني يا أخوتي يشبعني الحوّار
ـ ربطت فوق بطني الحجر
ـ حملت همكم لم تأكلوا .. فكيف
ـ كيف آكل
ـ والعرس مأتم الغريب
ـ مأتم الجموع
ـ والريـاحْ
ـ والتين والزيتون
ـ والطورِ
ـ والليمون
ـ والقرى المسحوقة العيون
ـ والعيون ... والعيو ....
ـ ... ...
ـ ... ...
ـ ...

***

ـ مفارة الجوع أنـا
طحنت فيَّ الانبياء الاربعينْ
أكلتهم
أكلت بعدهم رغيفهم
لان حزنهم عقيم
ناموا على أنينهم .. تصوفوا
وأصبحوا ملائكة

***

العـــودة

لم نأكل تفاحة آدمَ
لكن أقسمنا
أن نحيي الارض
عناقا
حبـا
ونصير لها اوفى بشرا
نأكل خبز القمح المعجـون بشوق الارض لمـن هجروها
زمنا لم تزهر فيه
ولم تمنح سنبلة يقطفها الجاثي في الجنة
والجاهل أن الجنة ما كانت الا في الارض
الارض
حبيبتنـا
نحتمل اللعنة نقبل بالحرمان من النهرين
ونهبط نبدأ من « حرمون » (٣)
يسعدنا أن الارض البكر تلقتنا صدرا في الصدر
أحبتنـا

ما قالت : لا
في وجه أغاني الحب

***

سقطت أجنحة الغربة والتهويمِ
وعاشت أمجاد الاقدام
وعاش الدرب
وعاش الشوق لعينيكِ
« الناصرة .. القدسْ »
للثغـرِ ،
وللشفق البحريِّ
و « للسيلة » (٤)
جهتك الصلدة والمفروشة ألقا من جبل النارِ
ومن أسنان مقاتلْ
اخطأنا
أنت الجنة في عينيك « حواكير الشمسِ » (٥)
ومطلعهـا
وحصاد الشمسْ

العرس

عمري عشرون وتجربتي
غنتك قرونا دموية
لكنك أنت تخطيت العشرينَ
وما زالت فيك الطفلة ترقب في البادية الفارسْ
هتفت في قلبك عرافتك الفجرية
ـ الريح تسوق الكوكب تدفعه
نحو العينين الضارعتين ، الطافحتين محبة
ـ يـاه ..
ـ في بعد جبين الفارس خال يدفق دم
ـ سيف اليزنيُّ
حبيبي
من قلت وقلت يجيءْ
ـ رملي ما قالَ ولا غنىَّ
الا للحب البدوي الاسمر يا سمراء
ـ « حوِّلْ .. حوِّلْ »
ـ « حوّلت » فمات الموتْ

شباط ١٩٦٨ **خالد ابو خالد**

١ ـ حي من احياء حلب الفقيرة .
٢ ـ مغارة الجوع كهف في جبل قاسيون بدمشق تقول الاسطورة ان اربعين نبيا ماتوا فيه جوعا لانهم رفضوا ان يأكلوا رغيفهم الوحيد .
٣ ـ جبل الشيخ ، وتقول الاسطورة أن ملائكة هبطت عليه بقصد الزواج من بنات آدم ، فحلت عليها اللعنة .
٤ ـ قرية الشاعر .
٥ ـ مكان في نفس القرية .

الطّوفان ...

مسرحيّة في فصل واحد

بقلم الدكتور عمر النص

غرفة في بناء قديم لها في صدرها مدخل يؤدي الى باب يصل البناء بالطريق وباب على اليسار يفضي الى بقية غرف البيت . أما الى اليمين فهناك مدفأة حجرية فيها نار خافتة ، والى جانب المدفأة منضدة فخمة رصت عليها رزم ضخمة من الصحف البالية القديمة ، ووراء المنضدة نافذة مغلقة اسدلت عليها ستارة صفيقة . أثاث الغرفة فاخر ولكنه متآكل مهترىء . وفي وسط الغرفة مقعدان وثيران قد تهرأ غطاؤهما وظهر القطن من خلال ثقوب فيهما ، وقد جلس على احدهما الاب وهو رجل في الستين من عمره نحيل أشيب وجلست على ثانيهما الام وهي امرأة في الخمسين من عمرها يدل منظرها على صبا جميل وطيبة قلب . وعلى مبعدة خطوتين من المقعد طست نصف مملؤ موضوع على ارض الغرفة تتساقط عليه قطرات من الماء يرشح بها السقف بصورة رتيبة . الغرفة مضاءة بضوء خافت يكاد يكون خياليا .

يرفع الستار عن الاب وهو ينفض الغبار عن رزمة من الصحف ثم يضعها على الارض ويدس يده في داخلها ويخرج منها احداها ويرجع بها الى مقعده في جوار الام التي لم ترفع بصرها اليه خلال هذه المدة والتي تقوم بحياكة صدار صوفي لصبي صغير .

الاب : لا . لا فائدة لا استطيع أن اصبر على كل هذا . أنظري الى هذه الجدران العفنة والباب الصدىء والنوافذ التي يلطمها الطوفان دون هوادة . أتظنين أن في مستطاعي أن أحتمل كل هذا عاما آخر ؟

الام : عام آخر ؟ من قال أن الطوفان سيدوم عاما آخر ؟

الاب : عام آخر . عامان . مائة عام . لا احد يدري كم سيدوم .

الام : ترى هل نعيش حتى نرى نهاية هذا الطوفان ؟

الاب : لا ادري . انظري . لقد تورمت قدماي . لقد تورمتا حتى بت لا اطيق أن أسير عليهما .

الام : لعلها الرطوبة قد آذتهما .

الاب : نعم . انها الرطوبة . انظري الى هذا السقف الذي يرشح ماء .

الام : ألم أقل لك أن تضع دثارا صوفيا على قدميك حين تجلس لتقرأ ؟

الاب : لا فائدة . لا فائدة . أي دثار يستطيع ان يقي قدمي هذه الرطوبة . أني احس بها تجري في عظامي كلها .

الام : لقد أوقدت لك نارا .

الاب : يجب أن أرى طبيبا عندما ينقطع هذا الطوفان . ولكن متى ينقطع ؟ أخاف أن نهلك جميعا قبل أن ينحسر عنا الماء .

الام : ألم تقل لي انك لن تذكره مرة اخرى ؟

الاب : ولكن ماذا أنا صانع ان انا توقفت عن ذكره ؟ لقد قرأت الصحف التي وصلت قبل الطوفان . لقد قرأتها جميعا . ثم حدث الطوفان فسدت الدروب وغمر الطين كل باب حتى أضطررنا جميعا الى البقاء في بيوتنا مغلقين .

الام : أعد قراءتها مرة أخرى فلا شك انك واجد فيها شيئا مثيرا .

الاب : لقد قرأتها . لقد قرأتها مرات لا حصر لها . أستطيع ان اعيد عليك الان انباءها واحدا واحدا . استطيع ان أعيد عليك نوادرها واعلاناتها . حتى عناوينها غدت محفورة في ذهني حفرا .

الام : يخيل الي أحيانا انك تتحدث اليها كما تتحدث الى انسان آخر .

الاب : لا . أنا لا أتحدث اليها بل أعيش معها . اعيش معها كما يعيش المرء مع اشباح يخافها ولكنه يخاف أن يعيش بدونها ايضا . نعم أنا اعيش معها . أحاورها . اداورها . أهرب منها تارة . الجأ اليها تارة اخرى . لقد نصب خياني . لقد عقمت حياتي . لقد زهد فيّ الناس . حتى هذه الاشياء التي تحيط بي منذ اعوام طويلة غدت تنكرني . تكشر في وجهي . أما هذه الجرائد ..

الام : ماذا تجد فيها ؟

الاب : اجد فيها ارضا صلبة أستطيع أن اقف عليها . انها الحقيقة الوحيدة التي لا مفر من القبول بها . لقد سلبنا الطوفان كل شيء . لقد غدت الحياة منذ ذلك الحين شيئا غريبا . لقد انقطعت شلتنا بالوجود ، بالشمس ، بالدفء ، بالهواء . لقد صرنا عبيدا مغلولين الى صخرة لا نعلم متى تنهزم أمام الماء فتنحدر بنا الى القاع . نعم لقد صرنا عبيدا .. غير ان العبد لا يفقد الامل في أن يصبح حرا ذات يوم ! أما نحن فلا أمل لنا في النجاة .. لا امل لنا .

الام : ألهذا تجد لذة في اعادة قراءة تلك الجرائد ؟

الاب : كما تجدين انت لذة في حياكة هذه الملابس الصوفية .

الام : اني أصنعها لان هناك اطفالا كثيرين سوف يحتاجون اليها ذات يوم .

الاب : منذ حدث الطوفان وانت لا تصنعين غير هذا . طوال النهار تحوكين وتحوكين . كم قطعة حكت حتى اليوم ؟ الفا ؟ الفين ؟

الام : لا ادري . اني لا اعدها ولكن اضعها في مكانها من خزانتي .

الاب : ولكن ...

الام : ولكن ماذا ؟

الاب : ماذا يحدث لو اننا انتهينا قبل ان ينتهي هذا الطوفان ؟

الام : سيكون هنالك دوما اطفال يحتاجون الى ادثرة من الصوف .

الاب : اتعلمين ؟ الام : ماذا ؟

الاب : .. لو كان لنا .. لو كان لنا (لا يكمل) .

الام : لا تقل شيئا .

الاب : (يفتح جريدته ويضع نظارته على عينيه) : سأقرأ جريدتي (يقلب صفحاتها) سأقرؤها مرة أخرى (تقع عيناه على نبأ فيتوقف) اسمعي ، هذا نبأ ذو شأن (يقرأ) : يقول علماء الآثار ان المكتشفات التي توصلت اليها بعثة التنقيب الدنمركية في جبال آرارات قد تصل بالعلم الحديث الى معرفة الاسباب الحقيقية التي أدت الى حدوث الطوفان . قامت البعثة بتصوير تلك المناطق لتحديد الموضع الذي رست عليه سفينة نوح . (يتوقف ثم يرفع رأسه وينزع نظارتيه) اترين ؟ سوف نتعلم شيئا .

الام : أجل سوف نتعلم شيئا .

الاب : ترى هل كان نوح راضيا عما حدث .

الام : لا أدري . تلك كانت مشيئة الله .

الاب : اجل مشيئة الله .

الام : لعل الطوفان كان عقابا . لقد اذنب قوم نوح .

الاب : الم يكن نبيا ، فلماذا تركهم يذنبون ؟
الام : لعله اراد ان يكون الطوفان درسا .
الاب : وطوفاننا هذا ؟ هل كان بسبب ذنب اقترفه احد ما ؟
الام : هذا ممكن .
الاب : لا شك انه كان بسبب ذنب ما . اني على يقين من هذا .
الام : لم نصدقه عندما زعم .. (لا تكمل)
الاب : لم نصدقه . ولكن من الذي لم نصدقه ؟
الام : (مترددة ناشجة) هو ..
الاب : هو ؟
الام : أجل ابننا .
الاب : ابننا ! نعم . لا ادري كيف تستطيع هذه الكلمة ان تخرج من بين شفتي ، فانا لست ابا .. لست ابا .
الام : بلى . انه ابننا . لقد حملناه في دمنا .
الاب : لقد فقدته حين تركته يفقدني .
الام : لقد هزئت بما قال .
الاب : لم اكن اعلم ان عينيه كانتا اقوى من عيني .. ترى اين هو الآن ؟
الام : (لا تجيب)
الاب : لعله ما يزال في المدينة . لقد رحل عنا ولكن لا اظنه رحل عن المدينة .
الام : (لا تجيب)
الاب : لقد سألته ان يبقى .
الام : كان الوقت قد فات .
الاب : كدت ابتهل اليه ولكن كان في عينيه اصرار غريب .
الام : لم يكن ثمة فائدة من محاولة اقناعه .
الاب : لقد جهدت في ان اريه صوابا . كنت احس ان ما اشرت عليه به كان صوابا .
الام : كلنا لا نفهمه احيانا . كان يخيل الي انه كان يتحدث الي من وراء غيمة
الاب : لقد اراد ان يتزوج من تلك الفتاة فاردت ان اجد له واحدة خيرا منها .
الام : لقد كان يحبها .
الاب : يحبها . اجل هذا ما قاله لي . ولكن كنت اريد له خيرا منها .
الام : لعله كان يرى فيها ما لم تر انت .
الاب : وهكذا تزوج منها على الرغم مني . لقد تزوجها .
الام : وماذا كنت تريده ان يصنع ؟ لقد ظل يجهد في ارضائك زمنا .
الاب : ثم حدث الطوفان .
الام : أجل . ثم حدث الطوفان .
الاب : كم مر من السنين على هذا ؟
الام : لا ادري . فالدروب مملوءة بالطين والناس لا يأتون لزيارتنا .
الاب : لا شك اننا كبرنا . انني احس بقدمي تؤلمانني وبعيني تزدادان ضعفا .
الام : لا شك في ذلك .
الاب : هل تظنين اننا تغيرنا ؟ اعني هل تظنين ان هذا الكبر قد بدا على وجهينا ؟
الام : لماذا تسأل ؟
الاب : لماذا اسأل ؟ لا ادري . لعله مجرد سؤال . انني اتساءل كيف يكون وجهي اذا ما عاد .
الام : سيكون لك الوجه الذي احبه .
الاب : اعطيني المرآة .. اريد ان ارى وجهي فيها .
الام : لم يعد لدينا اي مرآة . لقد تحطمت احدى المرآتين وانا امسحها
الاب : والثانية ؟
الام : لقد اخذها معه .
الاب : ماذا ؟ من ؟
الام : لقد اخذها ابننا معه عندما رحل .
الاب : لقد اصبحنا اليوم اذن بدون وجوه .
الام : حدق الى عيني تر فيهما شابا .
الاب : لقد رحل من غير ان يودعني .
الام : لعله هرب من فراقك .
الاب : هل كانت كلماتي قاسية ؟ اني لا اذكر شيئا .
الام : لا . لم تكن قاسية بل كانت كلمات اب .
الاب : هل رأيته عندما خرج من البيت ؟
الام : لقد رأيته عندما اخذ يجمع حوائجه فحاولت صرفه عن عزمه ولكنني لم افلح .. فاستخفيت وراء ستارة فرأيته يحدج الاشياء التي تركها وراءه بعينين كئيبتين ثم ينفلت من البيت خارجا .
الاب قلت انه اخذ معه المرآة .
الام : أجل . واخذ معها شيئا آخر . اخذ صورتنا التي كانت على منضدة غرفته .
الاب : (وهو يحبس بكاءه) : ولدي . ترى هل كان يحدث هذا الطوفان لو انني استمعت الى ما قال ؟
الام : من يدري .
الاب : لقد قال ان طوفانا سوف يحدث .
الام : هل قال هذا حقا ؟
الاب : كان فتى يحب الحياة . كان يجد في تسلق الجبل والسير في الحقول لذة كبرى .
الام : كان ربيعا مشرقا وسط شتائنا البارد .
الاب : هل تذكرين عينيه ؟
الام : كانت عيناه نبعين من عسل .
الاب : كنت احب ان ارى صورتي فيهما . كانتا تضيئان لي طريقا لا ادري اين نهايته .
الام : كنا نريده ذخرا ليوم لا يؤنس وحدتنا فيه مخلوق .
الاب : لقد صار رجلا . ولكنه ظل في نظرنا صبيا صغيرا .
الام : كنا لا نفهمه احيانا . ألم اقل لك ذلك . كان يخيل الي من وراء غيمة .
الاب : الذنب كله ذنبي . كان يريد ان يجعل مني صديقا ولكنني كنت اصم اذني عنه .
الام : لقد احببته حبا عظيما ولكنك لم تكن تعير اذنا لما يقول .
الاب : كان يقول اشياء لا استطيع فهمها . اشياء لا استطيع قبولها .
الام : لقد كان يرى مالم نكن نرى .
الاب : كان يحلم احيانا فيخيل اليه ان في مقدوره ان يجعل من ذلك الحلم حقيقة . كنت اريد له ان يهبط الى الارض . ان يقبل بحدودها . ان يخضع لنواميسها . ولكن عينيه كانتا معلقتين دوما بنجم لا يراه احد .
الام : لعله كان اقوى منا بصرا .
الاب : لعله .
الام : ترى هل يعرف اننا ما زلنا في هذا البيت ؟
الاب : لا اشك في انه يعرف هذا . انني احس احيانا بقدميه تضربان في دروب المدينة ثم تنتهيان عند باب بيتي هذا فتتوقفان هنيهة طويلة ثم تنصرفان بعدها دون ان تدخلا .
الام : الدروب مغلقة والطين يغمر كل باب .
الاب : لا . انه يحاول ان يكنس الطين الاسود . ان يمسحه عن ابوابنا، ان يمسحه عن وجوهنا ايضا .
الام : ليتك استمعت الى ما قال .
الاب : لم اكن وحدي عندما اتى الينا بالنبأ .
الام : لقد اراد ان يقي المدينة شرا كبيرا .
الاب : لا ادري . لعلنا كنا نخاف جميعا ان نعترف بان شرا كبيرا

كان يتهدد المدينة . كنا قبضة من النباتات الرخوة تخاف ان تسمع بوجود ريح .

الام : ولكنه كان لكم نذيراً . لقد حدثكم عن الطين الاسود .

الاب : اجل . كنا جلوساً في الندوة عندما دخل علينا . كان في عينيه قلق مرعب كأنه خرج لتوه من كهف مملوء بالاشباح . اقترب مني وقال انه يريد ان يحدثني . قلت له ان يتحدث امام الآخرين . كان مهذبا . قال ان حديثه لن يكون ممتعا . لقد ضحك الرجال . اما هو فقد ازدادت عيناه قلقا . قال انه كان يسير في ضاحية من ضواحي المدينة . انت تذكرين انه كان يحب السير في الامكنة النائية كأنه كان يجد فيها شيئا كان يبحث عنه دوما . قال انه كان يسير في ضاحية من ضواحي المدينة فرأى حديقة مهجورة نبتت فيها ازهار جميلة لم ير لها مثيلا من قبل . كانت الازهار تنتفض بشاشة كأنها كانت تريد ان تحييه . وبغتة رأى غيمة دكناء تسد الافق . كانت غمامة ليست كالغمامات . هكذا قال . قال انها كانت غمامة قاتمة مربدة انفجرت فجأة فاذا بقطرات ثقيلة من الطين الاسود تتساقط منها . لم تكن القطرات كبيرة . هكذا قال . ولكنها كانت ثقيلة مرعبة . قال ان واحدة منها سقطت على زهرة من الزهرات فترنحت الزهرة تحتها كأنها تترنح تحت ثقل صخرة . قال انه مد يده الى الزهرة يريد ان يسندها فرآها تتآكل شيئا فشيئا حتى استحالت الى رماد قاتم موبوء . كانت القصة تكاد لا تصدق . لقد كان جادا . كانت عيناه مملؤتين بقلق مرعب . قال انه هرع الى المدينة لاخباري . قال ان الامر ليس هزلا .. ان شيئا ما سوف يحدث وشيكا . لقد ضحك منه فريق وسخر فريق آخر . قلت له ماذا تريد منا ان نفعل ! قال يريد ان نبني سداً . قلت له الآن غمامة خبيثة مرت لحظة في سمائنا يجب ان نبني سداً . قال ان هناك غمامات اخرى سوف تأتي . ان القطرات السوداء سوف تتكاثر حتى تصبح طوفانا . قلنا له ان بضع قطرات من الطين الاسود لا يمكن ان تحدث طوفانا . كاد يبكي وهو ينصت الى حديثنا . قال ان استخفافنا بتلك القطرات لا يمكن ان يوقفها . ان يمنع سقوطها . ان يحمي المدينة منها . قال احد الحاضرين انه طوف في بلاد الله كلها وقرأ اخبارها فلم يسمع بطوفان تحدثه قطرات قليلة . لقد ضحك منه رجال . اما انا فلم اكن ادري ماذا اقول . كنت ارى في عينيه جدا . وارى فيهما قلقا . ولكن هزء اصحابي جعلني انكر ما قال . ولكنه ما لبث ان انتفض فجأة وقال انه ذاهب لبناء السد وحده . لقد ضحك منه فريق وسخر فريق آخر . قيل له ان يديه ناعمتان صغيرتان لا تقويان على حمل رفش او رفع صخرة . قال ان ايديا اخرى سوف تنضم الى يديه . قال الايدي القوية لا تصلح الا للهدم . اما الايدي الضعيفة فهي التي تعرف كيف تبني . كان في عينيه عزم لم اره قط في عيني انسان . ثم اقترب مني وانشأ يحدق الى عيني . اجل انشأ يحدق الى عيني وقال : اما انت يا ابي فكنت اريد ان تكون لي سنداً ولكنك خذلتني . ثم انحنى على يدي فقبلها (يأخذ في البكاء) .

الام : لا تبك . انك تعلم انه لم يكن يضمر لك الا حبا .

الاب : (مستدركا) لقد انحنى على يدي فقبلها وقال لي اني سأدرك ذات يوم انه كان على حق . (يبكي)

الام : لاتبك . لا تبك . لقد حاولت ايقافه عندما عاد الى البيت لاخذ حوائجه ولكنني لم افلح .

الاب : لقد كان على حق . لقد كان على حق . لقد جاء الطوفان من بعد ذلك .

الام : اجل لقد جاء الطوفان . ولكن لم يكن في ميسورك ان تفعل شيئا.

الاب : لقد انذرنا . لقد قال لنا ان الطوفان لا بد آت .

الام : أجل . اجل . ولكن لم يكن في ميسورك ان تفعل شيئا .

الاب : ترى اليس في ميسورنا اليوم ان نفعل شيئا .

الام : بلى . ننتظر .

الاب : ننتظر ماذا ؟

الام : نهاية الطوفان .

الاب : نهاية الطوفان أم نهايتنا ؟

الام : لقد قال لي انه سيعود عندما ينتهي الطوفان .

الاب : لن يجد عندها في المدينة الا امواتا .

الام : كلا . كلا .

الاب : (ينظر الى الطست الذي امتلأ بالماء المتساقط من السقف) انظري . لقد امتلأ الطست . هل اقوم لتفريغه في المطبخ .

الام : دعه لي . (تقوم متثاقلة فتاخذ الطست وتذهب به الى المطبخ)

الاب : (بصوت عال) هل قال لك انه راجع يوما ؟

صوت الام (من المطبخ) : اجل .

الاب : لن اكون حيا عندما يرجع .

صوت الام : ماذا قلت ؟

الاب : قلت انني لن اكون حيا . الا ترين الى ما يحدث لنا ؟ الا ترين الى هذه الديدان التي تزدرد ايامنا يوما بعد يوم ؟ اتظنين بعد هذا كله ان في امكاننا ان نتابع الحياة كأن شيئا لم يكن ؟

صوت الام : لقد قال انه عائد يوما ما ...

الاب : لا . من الافضل لي ان اموت قبل ان يراني .

الام : (تعود بالطست وتضعه في مكانه) لم يبق عندنا غير قليل من المؤونة يكفينا شهرا او شهرين .

الاب : وبعدها ؟

الام : لا ادري .

الاب : اذن فلم يبق لنا غير شهر او شهرين .

الام : ألا اذا انتهى الطوفان

الاب : ولكن متى ينتهي ؟

الام : لا ادري .

الاب : آخ . ان قدمي تؤلمانني (يتحسس قدميه)

الام : لقد نفد الدواء الذي كنت ادلكهما به .

الاب (يضع الصحيفة جانبا) لقد سئمت هذه الصحف . لقد سئمتها.

الام : (تتناول الصوف الذي كانت تحوكه) ترى من سيلبس هذا الصدار ؟ ليتني اعرف .

الاب : لا احد .

الام : ماذا قلت ؟

الاب : لا احد . قلت لا احد . انك تضيعين وقتك عبثا . لقد انتهى كل شيء . لقد امتد الطوفان حتى غمر كل رقعة . هل تظنين ان تلك الفتية الضعاف الذين يحاولون بناء سد سوف يفلحون في حسر هذا الطين الملوث ؟ لا . لا . اننا مدانون . لقد انكرنا اصدقاؤنا . انكرنا ابناؤنا . انكرتنا حتى الاشياء التي التصقت حياتها بحياتنا . اننا مدانون . لقد حكمنا على انفسنا قبل ان يحكم علينا الآخرون .

الام : لماذا تقول لي هذا ؟

الاب : لا ادري . لعلي اشفق عليك مما تحلمين به .

الام : وانت ؟ الا تحلم احيانا ؟

الاب : بلى .

الام : وبماذا تحلم ؟

الاب : بالموت .

الام : بالموت ؟

الاب : اجل . اجل .
الام : هل اضع اذن هذا الصوف جانبا ؟
الاب : (محتدا) ضعيه حيث شئت . ولكن لا تسأليني بعد اليوم لم اقول لك هذا . ان عنادك يضايقني . يخيل الي انك تريدين ان تطيلي هذا الخيط الممدود الذي يصل بيننا وبين الحياة . ترى هل تظنين ان هذا الوهم يستطيع ان يمنحنا فرصة اخرى ؟ ان يهب لنا عمرا آخر ؟
الام : ان يدي لا تقوى على ترك هذا الصوف .
الاب : قلت لك اتركيه (صائحا) اتركيه .
(يسمع قرع على الباب الخارجي . يرهف الاب والام سمعهما كانهما لا يصدقان ما يسمعان)
الاب : هل سمعت شيئا ؟
الام : (مترددة) نعم .
(يطرق الباب مرة اخرى)
الاب : انه الباب . اني اسمع طرقا على الباب .
الام : ولكن الدروب مغلقة . هل افتح ؟
الاب : بل افتح انا . (يقوم الاب بخطوات ثقيلة ويتجه الى الباب فيفتحه) يدخل صبي وضيء في نحو السابعة من عمره ويقف في وسط الغرفة) .
الاب ماذا تريد يا بني ؟
الصبي : لا ادري . قالت لي امي ان اذهب لزيارة جدي
الام : (مندفعة نحوه بحنان) ماذا ؟ اانت ابن .. (لا تستطيع ان تكمل فتخنقها الدموع) .
الصبي : هل انتما جداي ؟
الام : نعم . نعم .
الصبي : ولكن لم اركما من قبل ؟ هل كنتما مسافرين ؟
الام : كلا .
الصبي : هل كنتما مريضين ؟
الام : كلا .
الصبي لعل شيئا ما اذن قد وقع بينكما وبين ابي .
الام : كلا . كلا .
الصبي : لقد قالت لي امي ان ابي يحبكما حبا عظيما .
الام : لقد فقدت حياتنا طعمها منذ رحل عنا .
الصبي : ولكنه لم يرحل . لقد ذهب الى الجبال ليبني سدا .
الام : نعم يا بني . لقد ذهب الى الجبال ليبني سدا .
الصبي : لقد قالت لي ايضا انكما تنتظران عودة ابي . ولكن ابي ما يزال في الجبال .
الام : وهل قالت لك متى سيعود ؟
الصبي : لا . لم تقل شيئا . انها تنتظره هي ايضا .
الاب : ولكن كيف .. كيف استطعت الوصول الى هنا ؟
الصبي : قالت امي ان آخذ الطريق المستقيم . قالت ان بيتكما يقوم عليه . ثم ارشدتني الى مكان البيت .
الاب : اما يزال بيتنا على الطريق المستقيم ؟
الصبي : لقد وجدته كما وصفته لي امي .
الام (الى الاب) : اشد ما يشبه اباه .. انظر الى عينيه . انظر الى انفه الدقيق .
الصبي : اصحيح انني اشبه ابي ؟ لقد سمعت مثل هذا الكلام من امي ايضا .
الام : نعم . كانني اراه وهو في عمرك هذا .
الصبي : قالت امي انكما ستسران لرؤيتي .

الام : لو لم تأت لظل بيتنا قبرا . ولكن قل لي ..
الصبي : ماذا ؟
الام : الطين . اني لا ارى على ثيابك اثرا لطين .
الصبي : الطين ؟ لقد اغتسلت المدينة من الطين . لقد بنى ابي سدا .
الام : اغتسلت المدينة من الطين ؟
الصبي : نعم . ولكن ..
(ينظر الصبي الى الطست الموضوع في منتصف الغرفة وكانت قطرات الماء قد انقطعت منذ دخول الصبي ولكن دون ان يلاحظ احد شيئا)
الام : ماذا قلت يا بني ؟
الصبي لماذا تضعان الطست هكذا ؟
الام : الطست ؟ لا ادري (ترفع بصرها الى السقف فلا ترى شيئا) انظر (الى الاب) انظر . لقد انقطع الماء .
الاب (ذاهلا) : اجل . لقد انقطع الماء.
الصبي : هل اضع لكما الطست في المطبخ ؟
الام : كما تشاء يا بني . كما تشاء .
(يخرج الصبي بالطست)
الاب : لست افهم شيئا . لست افهم شيئا . لقد كان السقف يرشح ماء طوال هذه السنين .
الام : الم تسمع ما قاله الصبي ؟ لقد اغتسلت المدينة من الطين .
الاب : ولكن ما شأن الطين بهذا السقف ؟
الام : لقد حدث ما كنا يائسين من ان يحدث
(يدخل الصبي)
الصبي : يبدو لي انكما لم تخرجا من هذا البيت منذ وقت بعيد .
الام : هذا صحيح . الا ترى الى وجهينا كيف فقدا نضارتهما ؟
الصبي : اتريدان مني ان اقوم لكما بأي عمل ؟
الام : لا يا كبدي . اننا قادران على القيام بما يلزمنا .
الصبي : قالت لي امي ان أسألكما هل تحتاجان شيئا .
الام : لا . لا نحتاج شيئا .
الصبي : هل لديكما من المؤونة ما يكفيكما ؟
الام : اننا نتدبر امرنا .
الصبي : الم يأت احد لزيارتكما قبلي ؟
الام : لم يبق لنا في المدينة صديق . لقد رحل اصدقاؤنا جميعا . اعني لقد رحل بعضهم واجبر بعضهم الآخر على الرحيل .
الصبي : الى من تتحدثان اذن ؟
الام : اننا لا نتحدث الا قليلا .
الصبي : هل تقرآن اذن ؟
الام : احيانا .
الصبي : سأحمل اليكما بعض الكتب عندما اعود مرة أخرى .
الام (بحرقة) : ولكن متى .. متى ؟
الصبي : قالت امي اننا سنعود الى هذا البيت عندما يرجع ابي من الجبال .
الام (باستسلام) : نعم . نعم . عندما يرجع من الجبال .
الصبي : لقد احببت بيتكما هذا . انه يذكرني بحلم رأيته منذ يومين .
الام : وماذا رأيت يا حبيبي ؟
الصبي : رأيت ابي يعود من الجبال وقد حمل في احدى يديه سنبلة وفي يده الاخرى كتابا . كان وجهه كأنه قمر . اما عيناه فكانتا تضيئان كأن في كل منهما لؤلؤة .
الام (بلهفة) : وبيتنا هذا ؟ هل رأيته أيضا ؟
الصبي : نعم . رأيت ابي يضع السنبلة في يد امي ويضع الكتاب في

يدي ثم يقودنا الى بيت قديم لم اكن شاهدته من قبل .
الام : أيكون ذلك البيت بيتنا هـذا ؟
الصبي : نعم انه هـو .

الام : لن استطيع ان احتمله بعد اليوم ان لم يصبح بيتك ايضا .
الصبي سيكون بيتي ذات يوم . اما الآن فانا ذاهب .
الام : ليتك لا تغادرنا . فاننا سنفرش لك اعيننا حتى تنام فيها .
الصبي : الم اقل لكما اننا سنعود الى هذا البيت عندما يرجع ابي من الجبال ؟ أما الآن فانا ذاهب . اخاف اذا تأخرت ان ينال القلق من امي .
الام : كما تشاء يا بني . كما تشاء .

(يتقدم الطفل الى الباب ثم يتوقف كمن تذكر شيئا .)
الصبي : كدت انسى . (يمد يده الى جيبه ويخرج منها مرآة)كـدت انسى . لقد طلبت مني امي ان اعيد اليكما هذه المرآة . قالت انكما ستحتاجـان اليهـا .
الام : (تمد يدها لتأخذ المرآة ثم تضم الصبي اليها) ابني . ابني .
الصبي : هل اقول لامي شيئا ؟ هل ابلغها منكما رسالة ؟
الام : نعم . قل لها ان الطوفان لم يستطع ان يقتلنا . قل لهـا ان وجوهنا قد عادت الينا ، ان الدفء قد دب في عروقنـا مـن جديد . قل لها اننا كنا مسرورين لرؤيتك ؟ مسرورين جدا .
(يخرج الطفل ويغلق الباب وراءه . يعود الاب الى مقعـده والام الى مقعدها . فترة صمت) .
الام : هـل رأيـت ؟
الاب : لن نموت اذن . لقد قهر الطوفان .
الام : ساذهب لفتح النوافذ لعل الشمس تدخل بيتنا مرة اخـرى
(تذهب لفتح النوافذ فيدخل الغرفة ضوء كبير) .

الام : اترى ؟ يا لها من شمس عظيمة (تنظر الى الاب فتراه يبكي) مـاذا ؟ انـك تبكـي !
الاب : لقـد كان على حـق .
الام : (مبتهجة ومحاولة ان تسري عنه) انه عائد انه عائد .
الاب : واخجلتي منـه . لن اجد وجها اقابله بـه .
الام : لعله يغفر لنا ما فعلنـاه .
الاب : لن اجد كلمـات اقولهـا لـه .
الام (تأخذ كبة الصوف وتعود الى الحياكة بعزم) : سيكون هـذا الصـدار عليـه رائعـا .

الاب : (ذاهـلا) مـن ؟
الام : الصبـي .
الاب : أجل . أجل . (صمت طويل)
الام : هلا أطفأت النار ؟ فان الشمس تملؤني دفئا .
الاب : النـار ؟ اجـل .

(ينهض لاطفاء النار ثم يتوقف عند رزم الصحف القديمـة فيتاملهـا لحظة طويلة ثم ينقض عليها ويأخذ رزمة منهـا ويضعهـا في النـار ثم يأخذ في التفرج عليهـا .)
الام : (دون ان ترفع رأسها) ماذ تفعـل ؟
الاب : (وهو يبتسم) لا شيء . انها النـار ...
الام : مـا بهـا ؟

الاب : يخيل الي انها جائعـة . لقد عثرت على جماعة من اشباحي فالتهمتهـا .
(يتعالى اللهيب بينمـا يسدل الستـار) .

دمشق
عمر النص

العشّاق والأرض

« في الرابع من آب ١٩٦٨م رحل المناضل الفلسطيني الرائد فايز محمود حمدان مع شهداء العاصفة » .

***

— ١ —

العاشق الاول

ذلك الشيء الذي أطفأ دفء الكلمات
كان عنوان حياة
حينما سيف المنايا وقعا
باسما كان رفيق الامنيات
فايز العاشق والمحبوب والارض معا
امس ودعناه في عرس من النار وعزم الاغنيات
ثم عدنا ،
نشعل الكبريت في الليل ، نضيء
الف قنديل على الدرب لتمضي القافله
فهو يوما سيجيء
من فؤاد العائله .
ما شققنا الثوب آن
لوحت كل المناديل لتابوت المسافر .

ملحوظة على عدم البكاء

حينما لم نبك فايز
ليس معناه بأنا لم نعد نملك حسّا
والذي بين حنايانا حجر
انما نحن بشر
لم تكن تخلو خوابينا من الجوع واكواب البكاء
وتلفتنا ولكن ،
ليس من قلب على أحزاننا يوما شعر
فعزمنا بيننا ،
أن يظل الحزن في الداخل وعدا كالبذار
فرفضنا الانتظار
وتسربنا الى الارض ، انزرعنا كبرياء
مهرها ليس بكاء
مهرها ليس بكاء
« طلت البارودة والسبع ما طل
يا بوز البارودة من الصدا مختل
بارودة يا مجوهرة شكالك وين ؟
شكالي ع عاداتو سرى في الليل .
بارودة يا مجوهرة شكالك راح
شكالي ع عاداتو سرى مصباح » (١)
مثلما يأتي المطر
مثلما ينبت في الارض الزهر
مثلما المشتاق يأتي من سفر
فهو يوما سيجيء
لم يمت فايز من قال يموت
ذلك الحب الصموت
فهو كالنبع ولمّا ،
هزه التحنان للنور انفجر .

— ٢ —

أم صابر

مثل عمال بلادي البسطاء
راح صابر
ودّع البيت صباحا مع جموع الثائرين
ومضى يهتف في الشارع مرفوع الجبين
واعادوه مساء .

***

كانت « الوحدات » عرسا من دماء
كل أم في انتظار
ابنها الغائب ، كانت ام صابر
بعد أن أدت صلاة المغرب الدامي تدعو ،
أن يجيء
ابنها صابر ، لكن لم تعد ،
ضحكة الوجه البريء
سألت عنه الرفاق
اين صابر
ومشت في كل حاره
سألت حتى حجار الطرقات
ايـن صابـر !
ايـن صابـر !! .

. . . . . .
. . . . . .

وطواها الصمت ، غابت في تلافيف المخيم
وصدى « يا كل اولاد الحلال
من رأى صابر من ؟
آه يا ابني تعال . »
ظل مصلوبا على كل جدار .

— ٣ —

الحب تحت اعناق البنادق

الألى دقوا على باب المساء
بأهازيج الدماء
عبروا مملكة الليل مشاعل
زرعوا خلف خطاهم ،
وردة للحب تنمو تحت اعناق البنادق
ونشيدا داويا :
« احنا زحفنا
واحنا حلفنا
كل الدنيا ما توقفنا (٢) . . »
لهم المجد فيا حرفي المقاتل
منذ ان غنيت ميلاد القنابل
اسمهم صار نشيدا في فمي
صار نبضا في دمي .

عمـان — **محمد القيسي**

---

١ — من الشعر الشعبي الفلسطيني .
٢ — مقطع من اغاني المقاومة الفلسطينية .

« العصافير »

قصة بقلم رشاد أبو شاور

رذاذ خفيف يغسل السفوح والصخور . تتحرك الاغصان الزرقاء العارية مع هبات الرياح المتقطعة .. تشف غيوم اخر الليل ، وترحل مسرعة الى امكنة نائية لتعصر نفسها بوجع اسود . تتناهى الى مسامع « عبد الجواد » سقسقات عصافير فرحة افاقت لتوها من نوم عميق . ملابسه الصوفية العسكرية لا تقوى على منع جسده من الارتعاش. ثقل رصاصي يشد راسه واجفانه .. يتحرك ، يفرك يديه لكن الاصابع لا تطاوعه تماما . يجاهد بوعيه المشتت كي يدحر مد النعاس الملحاح . غبش الصباح المعتم يتبدد قليلا قليلا . وتلتمع مساحات شاسعة بين الغيوم الراحلة .

لذيذ ان يكون الانسان وحيدا في لحظة استمتاع تلوح كانها سرمدية ، تهبها الطبيعة والسلاح و ... اغنيات العصافير بلثغتها المحزنة . تحسس بيد مقرورة عروق الصخرة البرونزية التي يكمن خلفها فانسربت الى بدنه رغشة ثلجية قارصة . فوق رأسه شجرة تساقطت اوراق اغصانها .. عريها موجع .. ادلهم في شرايينه شوق الى اماكن غير بعيدة ، ينسفح بينه وبينها شريان اخضر يتلوى راحلا الى البحر . البحر المالح الدافىء المياه ابدا . كانت عيناه تدمعان كلما انغمس في زرقته . يتطلع الى الشمال الغرابي ، البحر فيانصباح الذابل كانما عين خضراء وسنى .. فوق رأسه عصافير تحك اجسادها باجنحتها ، ترتفع مرفرفة ثم تحط على الاغصان من جديد . على المدى تستلقي بيارات البرتقال في « الاغوار » . ما زالت الاغصان تحمل بعض الحبات الصفراء المغسولة . آه يا حبات البرتقال كم انت لذيذة في « اريحا » و « هناك » .. في الاتجاه المقابل تصحو الحياة باسلوب اخر : تناهى الى مسامعه صوت انفجار ، ثم زخات رشاشات يعرفها جيدا . بلا وعي لثمت يده « مدفعه الرشاش » ووقف يجيل نظرات سريعة صوب القاعدة . خاطب نفسه بيقين : لا بد انهم قد نجحوا في الاقتحام . اعبروا أيها الرجال . اعبروا بالنار . بعد قليل تتمزق قماشة الليل ، وترش الشمس اهدابها العسلية لتشتعل الحياةبالنور فتلتمع اسطحة المنازل على سفح جبل التجربة . ويحن لايام الدراسة في « هشام » . آه كم تخرج منها رجال لهم فرادة خاصة . بعضهم انصلب على ارضه ، وسقاها من قلبه لترتوي . وبعضهم ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .. بدأت تصعد من وراء جبال « مؤاب ». تمزقت عباءة الليل وانهمر دفء ناعم . اتحدت انغام العصافير وتصاعد غناؤها ، كجوقة منتظمة الانشاد . والشمس لا زالت تصعد ، تصعد .

صخبت اصوات على المدى البعيد . هذا لحن الافتتاح . ردت عليه اصوات نشاز يعرفها جيداً . انها بنادقهم تعوي بلكنة مغيظة.. مر بجانب اذنه اليسرى « وشيش » . اخفض رأسه . رصاص طائش، ارتطم بكتفه شيء . تلفت جانبه ، التوت ذراعه لتجوس القماش فوق الكتف . دم . لا يعقل .. ارتجفت امامه بقايا طائر دوري ، وبسرعة فهم ما حدث . اخرج منديله من جيبه لم بقايا العصفور بحرص ، حملت أصابعه بعض حبات التراب المدماة .. حين انتهت نوبة الحراسة تسلق المسارب الصاعدة بين الصخور . توهجتالحياة بنور الشمس . حلقت العصافير مبتعدة في الفضاء الرحب، رؤوسها تتجه الى الغرب . خاطب نفسه : غدا سادخل مع المجموعة ،وسادفنه هناك ، في الارض غربي النهر .

رشاد أبو شاور

ملاحظات قبل الرحيل

رسائل تجيئني مختصره
حروفها معدودة كأنها من ذهب أو ماس
أهكذا يعيش كل الناس
ام وحدنا نموت فوق النطع تحت القاطره
رسائل ثلجية الاحساس
لكنني نسيت انها مغامره
ان تكتبي حرفا به ...
مرارة الشوق وصدق الذاكره
نسيت ان كل حرف في الكتابه
قد صممته هيئة الصليب والرقابه
بداية نهاية مكرره
يا حزن قد ذوبتني
رميتني للعتبات المقفره .

***

هل انت تشتاقين للنهر المقدس والعذاب
هل انت تشتاقين « للأرض الخراب »
ام رؤية الولد المعذب قاطعا صحراء تيه
لا تسأليه
قد ضاع في بحر الحياة وربما لن تسمعيه
يا حلوتي كل هنا
قد جاء يبحث عن بنيه
وانا وانت على الاسى نحيا ،
ونبحر في السراب
هل انت تشتاقين ان تقفي على
قدميك ثائرة المواجع تصرخين :
مات الرجال على الوساده
عسر المخاض وانت في الخمسين
من أين تأتيك الولاده ؟؟.

***

جاء الشتاء المر جاء العيد
ويجيء ما بعد الشتاء
وتظل عيناك المعذبتان تنتظران ...
عودته من البلد البعيد
قد أثلجت دنياك — في ليل العبيد —
ما زاد من دمعي
قرّوا مع الليل البهيم واطفأوا شمعي
وتلوب عبر السحب قهقهة الجنود
ترتد في عيني وفي سمعي .

***

ملحوظة اخيرة :
لا تقطعي النهر المقدس للأماني والوعود
فهناك فوق الجسر جند سود
لا ترحلي
لا ترحلي
مسدودة كل الجهات
النيل يبكي والفرات
عمّان موحشة البيوت
والثلج في بيروت
ودمشق سوداء الثياب
لا ترحلي
لا ترحلي
لا ترحلي
لا تتركي الفردوس للأرض الخراب .

القاهـرة — **محمد عز الدين المناصرة**



— ١ —

على الحدود الغربية كان البحر هادرا مرعبا يقذف باملاحه التي يجف عنها زبده فيسمم الشط . وعلى الحدود الشرقية كان النهر العذب يجري من اقصى الشمال حتى الجنوب، فيفيض بالخيروالحياة. كان البحر الميت مخلفات اثرية لعصور خلت من دهور . وكان النهر باستمرار ولازمان طويلة يفسله وهو يصب به . ظل لدهور طويلة يغمره عسى تدب فيه الحياة ، يحلو وتزول منه الفصة ، تذوب الاملاح . من يدري فعسى يتم ذلك .. كان النهر يجري ، والتاريخ ايضا يسري.

ينبع هذا النهر الخالد من ماض عريق ، ويجري الان في خضم المستقبل .. هناك من بعد الشط يزمجر البحر الغاضب ، ينف ملحه: ليظل يتلاطم فليس له في الارض رعب . وليحجر على البحر الميت ، فقد لفظه التاريخ من مجراه الدائم ... يقولون ان هناك بعيدا بعيدا في اقصى الشرق عالما يخرج الماء الحلو من الارض .. لكن ارضنا مملوءة بالينابيع الطبيعية . والسماء في كل عام تمطرنا رحمة،وتسقي الارض الطيبة .

النهر يدفق بحنان وبهدوء . البحر مقهور ينطح رأسه علىصخور الشط ، عند الحدود الغربية ، والبحر الميت خانع ، واولئك الذين يحيون بعيدا ، كما نسمع ، في اقصى الشرق ، يصارعون باستمرار عالمهم الفقير فينبشون اعماقه عن حاجاتهم . عالمهم قاس وباستمرار هم في حرب .. ايه يا ارضي ، اي فردوس انت ..

— ٢ —

البحر يطوف .. ويلي من هذا البحر الوحشي . يرغي ، يزبد ، يعلو ويتعالى ، ثم يهدر نحو الارض .. تفرق ارضي .. عبر الشاطىء الممتد بمحاذاة البحر دفق الطوفان . الملح المميت ، السم ، يفشى التربة ، يتخللها ، تنقلع المزروعات .. والفرق يستفحل ، يفترس آماد الارض الوادعة .. يا ايها البحر الغربي : ما افظع شرك ، يا هذا الاهوج . ليست هذي الارض قاعا حتى تملأها . ليست فراغا ... ويظل البحر يكتسح التربة ، يتقدم .. يتقدم .. يتقدم باثا رعبه ، مدمرا ، مهلكا . ثم . ثم يفقد قوة الاستمرار . عبثا يكد ليظل عنيفا . عبثا يقوى ليظل في عنفوان تبجحه . وها هو يستسلم . ها هو ينكمش ، يتراجع . ينسحب بذل . يعود الى هوته العميقة الواسعة التي تجشأته في لحظات سكر فقد فيها الرشد . هناك قدرك التاريخي ايها البحر العدمي ، فلم تفيظك حلاوة ينابيعه .. جزر الشر . وشيئا فشيئا بدت الارض الدامعة يعود لها الاشراق والبسمة . ذرى الجبال كانت اول ما برز . ثم الهضاب . ثم المرتفعات . كل سام كان سابقا سنين طويلة ، اسنت فيها مخلفات الطوفان الذي كان سيصلب الحرية على ما اقل منه سموا ، في ألتحرر .. وظلت هناك بعض الوديان ، .. ظلت اشعة الشمس تبخر هذا الغريب ، والمطر يفسله من جديد ، وهكذا مع تتالي الاعوام انتهى .. وبرزت الينابيع اصفى حلاوة ، والنهر المقدس اكثر طهرا ، لكن البحر الميت وحده ازداد قليلا حجمه وزدادت ترسباته ..

— ٣ —

يوما زعم البحر الميت أن هذي الارض هي قاعه ، وانه الان مقلوب . انه في عصر غامر غضبت السماء على هذا البحر ، وكان حينذاك حيا ، فسحقته . دفنته في اعماق الارض وحبست مياهه.. واستنكرت الارض هذه الدعوة الشريرة .. ومضى النهر الخالد يفسل خبث البحر السام فعساه يبرأ .

وفجأة وسط السلام الوادع والسكون يهيمن على افاق الارض الساطعة بالنور ، أنفجر البحر الميت . انقذفت حممه البركانية فاشتعلت النيران بالارض . واندلق الماء الحار ، الشديد الملوحة ، من الهوة الى الاعالي . وفاض البحر من الغرب ، فازداد الفرق . كان يوما لن ينساه التاريخ حيث احتجبت انوار الشمس وعم الظلام الارض والسماء من نيران البركان .. وحينما همد الغضب الشرير كانت معظم الارض قد احترقت .. لقد امطرت السماء طويلا.امطرت. امطرت . وامطرت . لكن ... لقد نضبت الينابيع في الارضالمحترقة، ودمر البحر العاصف ايضا السواحل ، وباقي الارض التي انقذت بقيت باستمرار مهددة بالقحط بالاضافة الى خشيتها من ذاك البحر الغربي الاسطوري القوة ، وهذا البحر الميت الذي دبت فيه الحياة من جديد ، ويود ان يقتات بحياتها .

— ٤ —

في تلك البقعة السالمة من الارض التي هلكت ، كانت الحياة تكابد باستمرار صعوبة البقاء .. وعلى تلك المشارف الشاسعة من الافاق

حيث كانت تمتد هي قبل أن يفقأ دمل البحر الميت افرازاته التاريخية العفنة فيلوث ما اكتسحه ، كان الموات يتلاطم في القيعان التي ابتلعت ربوة الحاضر ، واغتالت نمو الزمن المتعالي .

يئست باقي الارض من الينابيع التي غاضت ان تتفجر ثانية ، وكفرت بالسماء ان تمطر .. واستشرى القحط .. وتمر الاعوام والارض تجف اكثر واكثر ، فاستغاثت تطلب الماء .. وهرول البحر ليقدم لها ماءه المصفى . انشأ لها ضمن مناطق نفوذه ، المصافي التي تنبع من مائه المالح ، لكنه يقطرها عند الارض حلوة نقطة نقطة .. لكن الماء المالح كان يهدر يود ان يدفق فيغرق باقي هذي الارض عبر تلك الجسور التي تصله بسلام اليها . كانت المصافي ترد تلك الحرب الكامنة ، وتمتص منها تلك القطرات العذبة ، خمرة تسكر شاربها ريثما يحين الاوان المناسب لنية الحرب لتتحقق بالفعل .. ولقد لبى ايضا ذاك العالم البعيد ، الذي في اقصى الشرق ، ذاك العالم الذي يصنع سماءه بنفسه ويجعلها تمطر ، ويحضر ينابيعه بنفسه ويجعلها تدفق ، لبى النداء ، فتعالت اباره الارتوازية تملأ الامكنة هنا وهناك وهناك ، وعبت الارض العطشى تنهل وقد كادت تقضي ..

— ٥ —

كان حر حزيران اللاهب ، كانفاس الشيطان ، يصعد بخار البحر الميت الى اعلى . وكان البحر يزفر غيظا .. وبضع قطرات ماء حلوة ادخرت من مصافي بحر الغرب ، وبضع كميات من مياه الابار الشرقية ، هو ما تقتنيه هذي الارض المجروحة .. ماذا ينفع ذلك وبوار ملح البحر الميت العقيم ، يفرق الامل ببعث الحياة من جديد ، وهو يفور.والبحر الغربي يدفق عبر انابيب مصافيه البخيلة الى مكب الارض ، لكن بكرم حيث تهدر امواجه الان بالشر .. وتبدد امواه الابار منجرفة ، ثم تتلاشى .. ورويدا رويداً يبتلع البحر الغربي ، البحر الميت.وتغوص الارض ، ويذوب البحر الميت ، وتمتد شواطىء البحر الغربي حتى حفاف الارض الشرقية العالية حيث كان النهر المقدس سابقا يحدها من هذا الجانب ..

— ٦ —

لم تعد الشمس تشرق على تلك الارض التي يغمرها ظلام البحر العميق .. ولقد كانت الملوحة الزائدة تقل مع مرور الايام ، حتى جاء وقت نبتت فيه بعض الاعشاب .. ومع الزمن كان سطح هذه الارض يتشقق ويتفتت ترابه . كان يذوب ، يود البحر ان يميعه ، ان يعدمه حتى قاع القاع .. ولكن الارض الصلبة تصمد .. انها لقمة غير مستساغة بسهولة في جوف البحر الغربي العملاق . وهو لا يود ان يلفظها فيستريح . يقتله الطمع .. وهي باستمرار صلبة ، صلبة ، صلبة ، مهما ذابت فالاعماق كبيرة ، حتى القشرة السطحية التيتذوب، حتى ترابها هذا ، كان يظل يسري بين طيات الموج حتى الشط حيث حدود ذاك العالم النائي الذي غدت ارضه تتلاقى بهذا البحر عند حدودها الغربية . هناك كان التراب المتفتت يلتصق بالارض الشرقية .. ستظل بعد الان تلك الارض المغمورة تمتص ماء البحر ، تمتصه حتى يفقر . وستظل تلك الارض الكبيرة تحاصره باستمرار حتى لا يطفى اكثر ، وستبقى تجفف شواطئه حتى يتراجع .. انها المعركة الخالدة الابدية بين الارض والبحر .

عمان — الاردن

فايز محمود

من مفكرة فدائي

تـلاقينـا ....
وجزنا .. أبحر الظلمات
كتبنا قصة الشهداء ... فوق ،
مداخل الحجرات
تهجينا معا تاريخك الدامي ،
علـى العتبات
نسينا أننا غرباء من زمن ،
تولى .. موهن الخطوات
وانا لم نعد نحيا على التذكار
وأن طريقنا عبر الصحارى بعد ،
موثقة مع الاسفار
وعودتنا اليها آهة تلقى .. وتعويذه
تضن بهـا الرياح الخضر ،
خلف مجاهل الاسرار

***

سبية رحلتي الاولى ..
اتيت أعانق الاهداب .. اكتحل
أشد على يديك .. يسوقني أمل
واشرب صوت من غابوا ،
ومـن رحلـوا
وغيبهم ظلام القبر من عشرين ،
فـي ارضك
وما عرفوا بأن الريح .. آتية ،
لتكتنف الذرى .. ومواسم الاعياد
وانك سوف تلقين الرداء الاسود البالي ،
وتحتفلين بالميلاد

***

جملت اليك كل غدي ...
والقيت انتظاري في رذاذ الصبح ،
أعواما من المحن
عبرت « النهر » مرتقبا نداك الفض ،
عل مياهه .. تسخو وتغسلني
وقلت أراك يا ارضي .. ويا وطني
كنبع الماء تدفق في ممرآتي ،
وتمطرني .. بألف سؤال
عن الاغراب في المنفى .. عن الزمن
عن الوعد القديم .. بعودة الشمس
وعن ماضيَّ .. عن احزاني الاولى ،
عـن الامـس

ليزهر فوق وحدتنا الحديث كعشبة ،
في الرمل .. مخضره
وتلمع في سماء الليل انجمنا على ،
ارض .. لنا حره

***

لانا كالعطاش على دروب القيظ كنا ،
نسأل الظلمات
نمد اكفنا لموانىء النعمى .. فيبخل ،
ومضها .. بالوهج بالشارات
لانا قبل لم نبصر طريق الرفض والغضب
تناهت دوننا الاسماع !.. لم تشفع ،
لنـا الكلمـات
حلمنا باصطخاب الموج .. بالخبز الذي يأتي ،
مـع السفب
ودون البحر حضنا الرمل .. وهو يسف ،
ملء حلوقنا .. ويجف كالعار
قعدنا العمر نستجدي بكاء الليل ،
والبخور .. والصبح
ترقبناه .. عبر مدامع الاطفال ،
فـي الـدار
وقلنا ربما العليق يزهر .. في صحارانا
وتطلع .. غابة الملح
وقلنا قد يبوح الصمت .. بالحكمه
وتنطق أرضنا .. الكلمه
تمد لنا بساط العودة الكبرى ،
وتطوينـا
ولكنا نسينا تحت ساقية النشيج ،
المر .. ما قالت اغانينا

***

تبدل حظك العاثـر ...
تكسرت المسافات الخرافيه
تبدل موسم الاحزان .. أورق في دروبك ،
صيف هذا العام
وحان قطاف رحلتنا .. مع الايام
برغم النأي .. غادر سيفنا غمده
وخط على ثراك .. وصية التحرير ،
والعـوده

اربد ـ الاردن

عمر ابو سالم

الموقف الأيديولوجي في شعر معين بسيسو

بقلم محمود عبد العظيم

اذا انكسر الواقع الخارجي وانكسر معه الفنـان ، واذا انتعش الواقع الخارجي وازدهر ، وانتعش وازدهر معه الفنان ، فأين يكمن دور الفنان اذن اذا كان سيكون مجرد مرآة تعكس ما يحدث في الواقع ؟ ألن تختفي بذلك العلاقة الجدلية بينه وبين محيطه وتحل محلها علاقة آلية ؟ أن الواقع الخارجي يشكل رؤية الفنان حقا ، لكن الفنان بدوره يعيد صياغة الواقع برؤية جديدة باعتباره شخصا من نوع خاص تتسع حدقات عينيه لترى اكثر مما يرى الآخرون ، وتستشرف ابعادا لا يراها العاديون .. فالمفكر او الفنان او المثقف المبدع هـو معلم الجماهير وملهمها من خلال ثقافته الثورية وهو في هذا يبحث عن الحقيقة من خلال الوقائع المتناثرة ، والحقيقة تعني البحث عن العلاقات الباطنية .. ان الادب لا يكون مجرد انعكاس للواقع ، بل يتعدى ذلـك الى تغيير الواقع واعادة صياغته ، وبذلك يتدخل في الواقع ويخلقه خلقا جديدا، ومن هنا فانه يلعب دوراً تحويليا في هذا المجال .

فاذا كان الامر هكذا فالى أي مدى فهم الشاعر معين بسيسو هذه المهمة للادب والمساهمة في اعادة الوجه العربي لفلسطين ؟ هل كـان مجرد ترمومتر يسجل حرارة الاحداث ؟ أم كـان صاحب أفق رحب يساهم في تغيير الاحداث ؟

مما لا شك فيه أن النضال في سبيل التحرير يتوزع على جبهات مختلفة من بينها القلم والمدفع ، ولا بد لنا لكي نقهر العدو ونتغلب عليه أن نعتمد بالدرجة الاولى على المدفع . وفي الوقت نفسه لا بد ان نعتمد على الجماهير الملتهبة حماسا والراسخة الايمان بقضيتها ، قضية التحرير ، لانها هي التي أولا وأخيراً نمد المعركة من معينها الـذي لا ينضب بكل الامكانيات اللازمة لكسبها .. من هذه الجماهير تخرج طلائع المقاتلين بالسلاح وبالقلم . وتتوقف معركة الكلمة في المجال الادبي على الكيفية التي تقال بها .

بعد هزيمة ١٩٤٨ خيم الصمت أولا على الشعراء الفلسطينيين في المنافي ثم لم يلبث هؤلاء الشعراء أن استفاقوا من الصدمة المريرة وشرعوا يناضلون بالكلمة لاعادة صياغة الوجدان العربي باستنبات الامل فيه وحفزه على النضال مؤكدين ان المعركة لم تنته .

وكانت قصائد الشعراء في هذا المجال عبارة عن منشورات ثورية تدعو الى تحرير الارض السليبة .. كانت هذه القصائد الفاجعة التي لم تصدق أن فلسطين قد اغتصبت .. قصائد احتوت على رد فعل آلي عنيف يطالب بالعودة الفورية لفلسطين وطرد العدو في الحال .

وفي هذا الاطار ظهر الشاب معين بسيسو .. لقد ولـد في ارض المأساة وشب مع هولها ، ومن ثم نجد أن قضية فلسطين قـد اصبحت قضيته الخاصة .. وكان الكفاح ضرورة حتمية تفرض نفسها على الشاعر .. وهذا يعني انه كان من غير الممكن ان يعزف الحانا غير الالحان التي وقعها في روايته (في المعركة) و (الاردن على الصليب) و (مارد من السنابل) و (فلسطين في القلب) (١٩٦٥) و (الاشجار تموت واقفة) (١٩٦٦) ثم ديوانه القادم الذي نشرت بعض قصائده تحت عنوان (قصائد على زجاج النوافذ) أن الكفاح هـو المحور الرئيسي في كل هذه الدواوين .. ولكنا نتساءل مـا ابعاد هذا الكفاح وهـل انعكس بشكل فني ؟ ان من يدرس دواوين الشاعر يجد ان ابعاد هـذا الكفاح تتلخص في التصميم على النضال لتحرير الارض والدعـوة للاستشهاد في سبيل ذلك والاعتماد على الشعب الفلسطيني بالدرجة الاولى لتحرير أرضه ومهاجمة الانتهازية الفلسطينية التي تعوق نضال الشعب وكذلك تجار السياسة المحترفين من بعض قادة الدول العربية الذين يتزايدون بالقضية الفلسطينية دون ان يكـون لديهم استعداد لاسترجاع الحق المغتصب والشعراء الذين ينفصلون عن القضايا المصيرية كما يعبر عن الحنين للعودة الى الوطن .

وليس معنى ذلك ان هذه الابعاد كانت تسير في خط متواز دائما على مدى الدواوين التي اصدرها .. فقد كان يصيب بعضها مد كفاحي ويصيب بعضها الآخر جزر .. وكانت موجة شعره تسير وفق الميـاه المتلاطمة للقضية العامة نفسها ، فابعاد الشاعر مرتبطة ارتباطا آليـا بواقع القضية الفلسطينية التي يطرأ على خط سيرها كثير من التقلبات والتعرجات والمنعطفات .

ويمكن ان نرسم صورة اجمالية لرحلة الشاعر في ابداعه مضمونا وشكلا نوجزها في ثلاث مراحل يمكننا ان نسميها على التوالي : المد الانفعالي والجزر والمد الواقعي .

مرحلة المد الانفعالي : يمثل هـذه المرحلة خير تمثيل ديوان (فلسطين في القلب) وهو يضم قصائد للشاعر في الخمسينات واوائل الستينات أي الشعر الذي قيل عقب نكبة ١٩٤٨ وهـي الفترة التـي وصفها الاستاذ غسان كنفاني في كتابه (أدب المقاومة فـي فلسطين المحتلة) بأنها (الفترة التي أفاق فيها الضمير الشعبي مـن الذهول ولجأ الى عدم التصديق) .. وقد اتسم شعر هـذه المرحلة بالحماس والانفعال والخطابية .

يقول الشاعر في قصيدة (استمعوا لي) :

استمعوا لـي
اسمعني يا وطني
فالآن خريف الاغلال يولي

فالشاعر لا يصدق ان اسرائيل قد أصبحت حقيقة قائمة بالفعل ويقرر في خطابية ان وطنه (الآن) يمر بمرحلة (خريف اغلاله) .

ثـم يقول :

يـا قلبي
طربي ، طربي
فهنالك نافذة لم تصبغ
بالبرق الاسود في وطني
نافذة تذكرني
دالية تحلم بي
أن أقطفها
ان تقطفني

وهو هنا يحن للعودة الى الوطن ليقطف دالية اي ليعيش فـي احضان الطبيعة في دعة بعد ان تكون الامور قد عادت الـى اوضاعها الحقيقية .

لكنه سرعان ما يتبين أن العودة الى الوطن ليست عملية سهلـة انما تقتضي نضالا مريرا .. يقول في قصيدة (كأس الخل) في تعبير مباشر :

يـا شعبي
أن اصرخ لا تدخلني
في تجربة ، لا يا شعبي ،

أدخلني في تجربة الصلب
جرعني كأس الصلب
لن أهرب من دربي
لن أهرب من كأس الخل
واكليل الشوك
وسأنحت من عظمي
مسمار صليبي وسأمضي
أبذر قطرات دمائي في الارض
ان لم اتمزق كيف ستولد من قلبي
كيف سأولد من قلبك
يـا شعبي

ولكن هذا الكفاح لكي يؤتي ثمرته المرجوة ويحقق النصـر المنشود لا بد وان تقوده تيارات مخلصة وان تدعمه الدول العربية التي تعمـل باخلاص من أجل الخلاص .. ومـن هنـا يجب ان تنمـي القيادات الانتهازية التي تبيع القضية للذين حولوها الى سلعة للمزايدة والمتاجرة بها .. ففي قصيدة (الخيط الذي ينمو في الريح) يقول :

كل الرايات المنفية قد عادت
يـا وطني
الا رايتك المنفية من أفق
ترتحل الى أفق
في سوق (لصوص الرايات)
تباع بـلا ثمن
صاح النخاس تقدم ، بالحنجرة الملعونة ،
والمحشوة بالخطب ،
خذها لا تخجل
خذ راية وطني
ما ارخصها وبسيف من (ورق)
أو سيف من خشب
ضفر منها اكليلا من ريش
لتزين رأس (الديك الهرم)

وهو يوقن ان وطنه متنبه لهذه الخيانات وهذه المساومات ذلك انه:

ما زال من الراية خيط
ينمو في ريحك يا وطني

والشاعر يحذر من أولئك الذين يتسلقون الثورات وينفذون اليهـا من نوافذها الخلفية .. ويحذر الجماهير مـن ان تمكن هؤلاء اللصوص من التربع على اشلاء الضحايا .. يقول في قصيدة (لصوص الصلبان):

احبابي
أن نحمل هودج سلطان
أن نصلب كي يتسلق
الواح الصلبان
لصوص الصلبان
أن تصبح أعلامي
أقنعة نوافذ سجاني
لا ، أحبابي

وهو يؤكد ان الخلاص فـي ايدي الشعب الفلسطيني نفسه .. فيقول :

ان ضل الجدول عن منبعه
ترضفه اشداق الكثبان
فحذار حـذار
أن نخطف موجا من بحر
أن نزرعه في صحراء
أن نحلم ان يصبح حقل بحار

ذلك انه يدرك ان حل القضية يأتي من الداخل اولا وقبل كـل شيء ، ويؤكد هذا المعنى قوله ;

لنضمد جرح البركان
بنـار البركان

وقد عبر الشاعر عن كل هذه القضايا بشكل خطابي . ولم يعبـر عنها من خلال صورة او حدث بل من خلال افكار عامة لا تفاصيل فيها . وادى ذلك في احيان كثيرة الى ان الصور الجزئية لا تنمو بـل تكرر نفسها دون اضافة .. ففي قصيدة (لصوص الصلبان) التـي اوردنا نماذج منها تجد ان الصورة تتكرر هي هي بعينها دون ان تضيف بعـدا جديدا يقول :

لا يبني الطائر عشا
في حجر الثعبان

ثـم يقول :

الطائر لا يدفأ
تحت جناح الحدأة

فالمعنى في الصورة الاولى هو نفسه الكامن في الصورة الثانية .

ورغم ان كثيرا من قصائد هذه المرحلة كتبت بالشعر الحديث الا ان بها كل خصائص الشعر التقليدي .. من تقريرية وتفكك ... الخ .

ويرجع ذلك الى ان الشاعر يعبر عن قضايا عامة ، وانـه يصعب عليه التخلص من تراث الشعر الكلاسيكي .. اعني طريقة ذلك الشعـر في التعبير .

المرحلة الثانية : مرحلة الجزر .. وعلى قدر ما رأينا فـي ديوان (فلسطين في القلب) من زخم ثوري انفعالي نرى ان هذه المرحلة قـد سادتها رؤية سوداء حزينة .. ليل طويل يكاد لا ينبلج عنـه نهار .. انتظار ممض في صحراء موحشة لا يؤمل السراب فيهـا العطشان .. صحراء ضاع فيها الاثر والدليل قتلته الريح .. حلقة مفرغة دار فيهـا ألف مرة ولم يزل يدور .. ففي قصيدة (جواز سفر فلسطين) فـي ديوانه (الاشجار تموت واقفة) يقول :

حتى السراب لا يؤمل العطشان
لا يلـوح
... أتممت ألف دورة ولم أزل أدور
متى أراك ، انني أموت
أموت في مفارة الضباع
في خيوط عنكبوت
أموت لا يمر نعشي الصغير
تحت قوسك الكبير

ان الشاعر هنا في حالة تامة من الضياع .. عاكسا في هذا أيضا اليأس من امكان حب القضية .. ولقد اختار ببراعة للتعبير عن هـذه المرحلة عنوانا موحيا لديوانه « الاشجار تموت واقفة » ولعل الشاعر قد اختار هذا العنوان تعبيرا عن تجربته المريرة في هذه الفترة.. فالاشجار تراها من بعيد ممشوقة باسقة ولكنك تفاجأ عن كثب بأنها فقدت كـل عناصر الحياة فيها ولم يبق منها الا هياكلها .. انه يرى أن الخلاص في ان ينصر الشعب الفلسطيني في المعركة ، وهذه الرؤية قد عبر عنها في المرحلة الاولى ثم رأى ان ذلك لم يحدث .. انه ثائر عـلى ان الاشجار لم تمتحن في العاصفة .. يقول في قصيدة (القمر ذو الوجوه السبعة):

كتبت عن اشجارنا التي تموت
وهـي واقفـة
هذا الشتاء دقت الاجراس
لـم تمـر عاصفة
هذا الشتاء ضاجع المخصي بغلة السلطان
لم تضاجع الاشجار صاعقة

فما الذي جعل شاعرنا (حداء المسيرات الشعبية) ينكسر ؟ انهـا تطورات قضيته العامة والتي هي في الوقت نفسه قضيتـه الخاصة .. قضية فلسطين .

ففي هذه الآونة انعدم الصراع او كاد على جبهة الصراع حيث ان العرب تمزقهم الخلافات .. وهم غير جادين في سبيل تحرير فلسطين

.. والشعب الفلسطيني ما زال مبعثرا ليست لديه أية امكانية للنضال، في حين ان اسرائيل تزداد رسوخا وتوسعا ، فيقول الشاعر في قصيدة (يافا في بطن الحوت) :

النسر من تابوته الحجري
بالمصباح طار
بجناحه شق الجدار
سم ولؤلؤة بكأسك
أيها الاعمى حذار
ودم ومعجزة بلا قمر
تسير بلا حجاب
قمصان عثمان التي بليت على الايدي
ومصحفه المخضب بالدماء
في كل سارية قميص خافق
وفم على بوق معار

فالشاعر هنا قد يئس تماما من الشعارات التي ارتفعت عن تحرير فلسطين في كل دولة عربية دون اي عمل حقيقي في سبيل التحرير :

يافا ببطن الحوت ما زالت
يجوب بها البحار
الحوت تاه
من ذا الذي يدل الحوت يا طفلي
ويطويه العباب
من ذا الذي يعلق في رقاب
هذي الذئاب السود
أجراسا ويطمع في الاياب

ان يافا وهي رمز لفلسطين كلها قد تاهت وضاعت وسط هذه الشعارات الجوفاء والشعب الفلسطيني يتطلع الى البطل المنقذ المخلص فلا يجده .. لا يجد الا ان معظم الزعماء والقادة يتلاعبون بالقضية ويتخذون من شعار تحرير فلسطين موضوعا للمزايدة والمتاجرة به للبقاء في كراسيهم ، وهؤلاء ان كانوا يملكون الاسلحة فهي لتدعيم قبضتهم على رقاب شعوبهم والبطش بالثوار الاحرار .. يقول معين بسيسو في قصيدة (ثلاثة رابعهم كلبهم) :

وجاء عاويا من الذئاب
أعور الذئاب
الثعلب المقطوع ذيله
وآكل الديدان والذباب
وتاجر الاجراس والضباب
دعو تهم الى كتاب الله والكفاح
فمشطوا اللحى واقبلوا
اعلامهم على اسنة الرماح
أيديهم على مقابض السيوف
أيديهم التي عرفتها
برأس كل ثائر تطوف
الماء في فمي ، لكنما الكلام
ان لم تقله مثل عضة الثعبان ،
يقتل الكلام
قد شمرت عن ساقها ،
يا فارس الايام
ثلاثة وكلبهم مضوا
والآخرون سرجوا الخيول
ماذا أقول للذين يسألون
الماء في فمي لكنما في الجرح
لا تخبأ السكين

لقد استنام الجميع وما من كفاح ف (المخلب كالزهرة ، والناب كعود ريحان) كما يقول في قصيدة (ثلاث كئوس لأهل الكهف) ثم يصور الموقف تصويرا حزينا :

واحمل مجدافك واتبعني
ما قدر كان
يافا ترحل ، قد هرب ،
بمفتاح البحر الربان
آه من قلب البحر
ومن قلبي آه

وعلى ذلك ظلت القضية على ما هي عليه لا تتحرك خطوة واحدة الى الامام :

والكأس الثالثة المشؤومة
آه
قد أقبل أذار
واستيقظ أهل الكهف
وأرخى أذنيه الطبل
وفتح عينيه المزمار
الشارع في قدميه الاغلال
يمشي يا ولدي ألف شعار
يرجمه التاجر واللص
وعمر المختار
مشنوقا يتدلى

وهكذا وجد الشاعر ان راية الخلاص تتمزق امام ناظريه .. ويرى ان العودة قد أصبحت مسألة شبه مستحيلة ، وهو لا يقوى على ان يعمل أي شيء . ومن هنا استسلم للحزن والضياع اللذين لا حدود لهما في منفاه .. يقول في قصيدة (العندليب في البئر) :

للثعابين جحور ، للعصافير فنن
آه للميت كفن
ولكل الناس في الارض وطن
ذلك الوشم على صدرك
يا حبلى لمن ؟
أرضعي للوائد الانثى
وللسبي الذكر

ثم يقول :

لقد طال السفر
سقط الظل على الظل
وضيعت الاثر
ودليلي قتلته الريح
ألقته على البئر حجر
سألوني كيف في السبي
أغني ولمن
آه علقها على ذاك الوتر
سمكات الساحر الاسود
في ضوء القمر
لم يزل يوسف في البئر ومن
آه قد ألقى له الحبل هلك
مد ألوانك يا قوس قزح
مد ألوانك فالحبل أنقطع

انه هنا يتطلع للخلاص ولكنه خلاص باهت شاحب .. ولعل هذه القصيدة تكاد تكون القصيدة الوحيدة التي يتطلع فيها الى الخلاص .. من بين قصائد الديوان التي سادها اليأس فالابواب موصدة والحارس شرير في (قصيدة جواز سفر فلسطيني) :

طرقت باب من أحب
ردني ناطور بيته الشرير
وقد أتيت حاملا متراسي الصغير
أكلت ما في جعبتي
شربت ما في قربتي
ولم أزل أسير
جوادي الوحيد قد نحرته
أكلته مع الوحوش والصقور

وهكذا في هذه المرحلة غابت الايديولوجية الثورية .. الشاعر لا يجد امامه الا سلبيات فقط فركز عليها وجسمها بصورة يائسة ليس

فيها أي خيط من أمل .. ضاعت منه النظرة الشاملة .

في تلك الفترة .. اعني الفترة التي كتبت فيها هذه القصائد ثم نشرت بعد ذلك في الديوان عام ١٩٦٦ .. كانت هناك محاولات جادة لابراز الكيان الفلسطيني .. وقد اسفرت هذه المحاولات بالفعل عن ابرازه رسميا في عام ١٩٦٤ وفي الوقت نفسه توحدت ارادات الدول العربية على التنسيق فيما بينها بشأن قضية فلسطين .. ثم بدأت العمليات الفدائية ضد اسرائيل في عام ١٩٦٥ وان كان بعض هذه العوامل بدا محدودا في اول الامر بل وتعرض لبعض الهزات فان الاديب الثوري لا يرى فيها الا انها مقدمات طبيعية للكفاح الحقيقي .. لا يرى فيها الا انها ارهاصات لتفجر النضال . ان الاديب الثوري يرى ان اية قضية من قضايا التحرر رغم كل ما يصيبها من المنعطفات الخطيرة في خط سيرها ، فان الخط العام لسيرها لا بد وان يتطور لمصلحة القوى الثورية عندما يوضع النضال بطريقة علمية ومن هنا فان عليه ان يبحث فيما يمكن ان يقدمه لهذا الغرض .

والفنان الذي يستسلم ويكون مجرد صدى لهذا الواقع المظلم ظاهريا والذي لا يتعمق ما خلفه من وقائع وجزئيات بحثا عن الخلاص فنان ليس بصاحب رؤية كبيرة ، ومعين بسيسو فاقد للامل .. هو في حلكة قاتمة واذا كان لا يزال هناك امل فهو بصيص شاحب مهتز ، يكاد ينطفىء وسط طبقات الظلام المتراكبة .

ولئن كان هناك في هذه المرحلة انكسار في الرؤية الا انه قد حدث انفتاح في وسائله التعبيرية وخاصة عندما يرجع الى التراث ، فقد بدأ يحكي ويقص ويبني بالصور الى حد ما ، ذلك انه لم يتخلص تماما من الصور الصاخبة والخطابة وقد عكست هذه المرحلة صورا عصبية متراصة بجوار بعضها كما عكست فقدانه للرؤية الشاملة وان كان لا يزال على ارض الكفاح حيث انه ظل مرتبطا بالقضية .

المرحلة الثالثة : مرحلة المد الواقعي : ولانه ما زال مرتبطا بالقضية باحثا عن الخلاص فان الشعب الفلسطيني قد بدأ يعمل من أجل الخلاص .. خلاصه على يده هو بالكفاح المسلح .. ومن هنا خلف الشاعر وراء ضياعه وتمزقه وحزنه الرمادي الكثيف وانتزع قدميه من الترابة الصخرية السوداء التي قيدتهما ليخلق في أجواء جديدة شكلا ومضمونا وهنا امتزج تماما الخاص والعام .

ان الواقع ـ في رؤيته ـ قد بدأ يتحرك .. انه ليس ساكنا جامدا كما رأينا في المرحلة السابقة .. انه ان كان يبدو انه ساكن جامد فلكي ينطلق في مسيرته .. أنه ان توقف فلكي يتحرك اذ أنه لا بد ان يتحرك وينطلق الى الامام حينما تسمح له الظروف الموضوعية التي تحكمه بذلك .

ان واقع القضية الفلسطينية قد تحرك فتحرك معه الشاعر ان الكيان الفلسطيني بعد هزيمة ١٩٦٧ يمارس دوره الحقيقي دور الكفاح المسلح .. ان الواقع يتحرك بسرعة السيارات في الشوارع لم تعد اشارات المرور كلها حمراء توقف السير بل هناك أيضا اشارات خضراء. يقول في قصيدة (اشارة مرور) التي نشرت في مجلة (الهلال) المصرية في عدد يناير ١٩٦٩ :

النور الاحمر
قف
النور الاخضر
سر
النور الاحمر
النور الاخضر

ثم يقول :

امرأة حبلى في عربة
ولدت في العربة
كبر الطفل ، أحب ، تزوج في العربة
انجب اطفالا ، قرأ مجلات وصحف العالم
في العربة
اعتقلوه ... سجنوه في صندوق العربة
جند واستشهد خلف شبابيك العربة
دفن وتحت دواليب العربة
والعربة ما زالت في الشارع
تنتظر النور الاخضر
تنتظر النور الاخضر
النور الاحمر
قف
النور الاخضر
سر

وهنا عانقت الصور الجزئية القضية الكلية ، لم يعد الامل ضبابيا بلا تفاصيل فقد عرف جزئيات الخلاص وبدأ يعكس هذا بصور مستمدة من الواقع مدخلا اياها في احداث جزئية .. حتى المعاني المجردة قد بدأ يجسدها ، فالانسان الذي تزيف حياته وبدأ يثور يعبر عنه من خلال ملقن في مسرح يلقن الآخرين ادوارهم التمثيلية المزيفة وهو لا يعيش حياته بصدق ومن ثم يثور وعندما يثور يكون مصيره الطرد ونجد القصيدة الحدث ينمو بتفاصيله وجزئياته في قصيدة (يوميات ملقن مسرح) التي نشرت أيضا في نفس العدد من المجلة التي اشرنا اليها : يقول :

الاربعاء :

ماريانا بنيدا
أيامي ذهبت وانا أحلم
أن يعطيني البركان نشيدا
والزلزال ورودا
والاعصار شهيدا
ذهبت أيامي لم يعط البركان نشيدا
لم يعط الزلزال ورودا
لم يعط الاعصار شهيدا
قتلوني يا ماريانا بنيدا
لكني أرفض أن أدفن
أن أصبح في مقبرة الكذابين ضريحا

. . . .

ولانه رفض ان يكون في زمرة الكذابين رفض ان يواصل الكذب كل ليلة .

الأحد :

تلعثم البطل
توسل البطل
رفضت ان القن البطل
لا لم أعد أقوى على الكذب
عشرون عاما كنت الذي يلقن الكذب

الاثنين :

طردت

والرمز في القصيدة واضح .. فعشرون عاما في الكذب دلالتها واضحة .. عشرون عاما من الضياع بحثا عن خلاص بالنسبة للمشكلة الفلسطينية .

ان الواقع الفلسطيني لا يغيب عن باله ابدا يمزجه بالرمز ويستخرجه من الواقع فيعانق الرمز بالواقع .. ولهذا اقتضى الامر منه ان يتخلص من الايقاعات الكلاسيكية تماما وانفتح بكامله على الشعر الحر حتى يسعفه بانفتاحه على حركة الواقع من جديد .

كان من الممكن ان يجرف الشاعر المد ، وكان من الممكن ان يخنقه الجزر ، لكنه استطاع أن يعلو فوق الحركتين عندما واكب الواقع الجديد .. لقد كان صوتا عاليا في البدء وان كان هذا العلو غير مطلوب دائما الا انه مطلوب احيانا ، وكان حالك الرؤية في الوسط وان كانت هذه الحلكة غير مطلوبة بشكل دائم ، ثم تفجرت فيه الطاقات الحقة للشاعر الذي سيعود حتما لفلسطين لا على موجة الخطابة والحماسة ولكن على موجة الناس والكفاح المسلح ما دام قد اتخذ له طريقا في الفترة الاخيرة وهو ان يكتب كلمات على زجاج النوافذ حتى يكون للكلمات ضياؤها العميق وحتى يخرج الحلم من رحم الخلاص .

القاهرة — **محمود عبد العظيم**

من تجوالات الحجاج في الليل

لما صاحت في الليل الابواب
من تحت مخالب دامية ، وسباب
من تحت حذاء مشقوق ، ومؤخرة لسلاح لامع
أصفت احجار البيت
حتى « رأس الشارع »
حتى قمر قد كان يطل ليملأ ليل الشاعر
ويناغمه لكن في هذي الليله
لم يلمح خوفا من أن يسجن بين سحاب
عاما ، او بضعة أعوام .. من غير استجواب !

***

في هذي الليلــه
قد كانت سبعة أعوام في طفل أخضر
تمشي فرحا . تتبختر
وتغني ما حفظته الاطفال السعداء
في صوت ريان بالضوء ، وبالماء
« يا عا سكاري يا بو بونديقيه »
.. لحظات ثم تدق عصا الحجاج على تلك الاغنيه
بحثا عن رأس أينع في تلك الامسيه
فيجف الطفل ، ويستخذي من خلف الاهداب
وتموت عصافير ! ويضيع كتاب
ويغطي وجه العصر عذاب .. أي عذاب ؟
أما العامان بسوسنة في عمر الطفله
فلقد لعبا ، عبثا في رأس الارنب
لمـا دار اللولب
لكن لما ان دق المخلب بعد المخلب
وقفت اذنا الارنب
لـم يلعب
فلقد كانت لعب أخرى تجري في البيت
تتواثب . تلهث . تحمل وجه الموت
في ليل ممطوط مثل السرداب
ليل كذاب !

***

لكن لما عدنا لهدوء قاتل
وتنفس نور في قلب المصباح الذاهل
والطفل تماسك في عينيه الضوء الاشهب
والطفلة همَّت في خوف ان تلعب
احسسنا ان العالم من خزف أجوف
وبأنا متنا في داخلنا
وحزمنا في رعب « حزم السلمه » (١)
.. وبأنا لا نلمس شيئا في هذا الليل
الا ويصير سراب !
.. وبأنا لا نخطو في هذا الليل
الا ويصيح غراب !

١ ـ من كلمات الحجاج المشهورة .

القاهرة — عبده بدوي

حوار فلسفي مع الدكتور زكي نجيب محمود

بقلم احمد ماضي

ليس بخاف على أحد من أساتذة الفلسفة وطلابها وقراء الكتب والمقالات الفلسفية في بلادنا العربية على وجه العموم وفي الجمهورية العربية المتحدة على وجه الخصوص ، أن الاستاذ زكي يعتبر نفسه بصراحة مطلقة نصيرا أمينا للوضعية المنطقية ، وداعية مخلصا لهذا الاتجاه الفلسفي الذي ظهر الى الوجود في مستهل العقد الثالث من قرننا العشرين . ولا تشكل سرا مساعيه الجدية لجعل قرائه ومستمعيه أتباعا لفلسفة المنطق الوضعي . وهو يقول في مقدمة كتابه(1) : « يعد ديفد هيوم أبا لحركة فلسفية تعاصرنا اليوم ونعاصرها وهي الحركة التي يطلق عليها أنصارها « الوضعية المنطقية » حينا واسم « التجريبية العلمية » حينا آخر ، والى هذه الحركة الفلسفية انتمي .. » . وهنا لا بد من طرح هذا السؤال : لماذا صار المفكر المصري منطقيا وضعيا ولم يصبح نصيرا لاتجاه فلسفي آخر من بين المدارس والاتجاهات الفلسفية السائدة في عالمنا المعاصر ؟ ان جواب الدكتور زكي على مثل هذا السؤال نجده في أماكن عديدة من مؤلفاته . فعلى سبيل المثال يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « المنطق الوضعي » : « ان دارس هذا الكتاب اذا ما رضي عما ورد فيه لا بد أن تنتهي به الدراسة الى نظرة علمية تجريبية هي في رأينا شرط لا مفر منه اذا أردنا لانفسنا نهضة فكرية صحيحة » . ان الاستاذ زكي يربط تقدمنا الروحي ، كما يفهم من هذا الاقتباس ، بتبني فلسفة الوضعية المنطقية . وظني ان هذه المدرسة الفلسفية لو سادت في بلادنا وقدر لها الغلبة لرجعنا القهقرى . ذلك أنها تبعد اهتمام الناس عن طرح القضايا والمشكلات التي تواجههم . وأعتقد ان تأخرنا الفكري ، ومن ثم تخلفنا في ميادين الحياة الاخرى من صناعية وزراعية وعلمية الخ .. لا محيد عنه لو تبنى الناس هذا الطراز من التفكير الفلسفي البعيد عن الفلسفة والحياة الانسانية والواقع الموضوعي .

وفي مقدمة الطبعة الاولى لكتاب « المنطق الوضعي » يجيب المفكر المصري على التساؤل المطروح سابقا بحجج شبيهة بما ورد في الاستشهاد الوارد الذكر . فهو يقول : « ولما كان المذهب الوضعي بصفة عامة — والوضعي المنطقي الجديد بصفة خاصة — هو أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمي كما يفهمه العلماء الذين يخلقون لنا أسباب الحضارة في معاملهم ، فقد أخذت به أخذ الواثق بصدق دعواه ، وطفقت أنظر بمنظاره الى شتى الدراسات فامحو منها — لنفسي — ما تقتضيني مبادىء المذهب أن أمحوه » . وهنا لا مناص من أن نسأل هذا السؤال : لم المنطق الوضعي بالذات يعد أقرب الفلسفات مسايرة للروح العلمي ؟ ان الجواب سيكون واضحا عندما ندرك سبب «علمية» الفلسفة الوضعية المنطقية . والجدير بالذكر ان المناطقة الوضعيين لا يكتفون باضفاء الطابع العلمي على فلسفتهم فحسب بل يعتبرون ظهور فلسفتهم « ثورة علمية » دكت الميتافيزيقيات السابقة دكا جذريا وادت الى « انقلاب » لا نظير له في تاريخ الفكر الفلسفي الانساني . وفحوى هذه « الثورة العلمية » ان الفلسفة لم تعد تهتم لا بالانسان ولا بالعالم وانما بالتحليل المنطقي لاقوال العلماء وعبارات الناس في حياتهم اليومية وغدا الفلاسفة يستعملون رموزا دقيقة مماثلة لرموز العلماء .

وبعد أن تركت المنطقية الوضعية شؤون الانسان ومشكلاته التي لا عد لها ولا حصر في عالمنا هذا وأغفلت العالم الذي نعيش فيه ونتفاعل معه ونقوم بتغييره من أجل رفاه الانسان بالسيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها لسعادة الانسانية ، يطلع علينا الدكتور زكي بقول نجد فيه الغرابة والاستهجان : « .. لعل أقرب الاتجاهات الفلسفية الى جانب العلم وجانب العقل من الحضارة الراهنة هو اتجاه الوضعية المنطقية — كما أطلق عليه عند أول ظهوره في « فينا » في العشرينات من هذا القرن — وهو نفسه اتجاه التجريبية العلمية — كما يطلق عليه عادة الان .. » (فلسفة وفن ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨) .

ومع أن هذه الفلسفة تعتمد العقل وتستند الى العلم ، كما يزعم مؤسسوها وأنصارها ، فانها لا تجد أتباعا لها لا في صفوة المثقفين ولا في أوساط المثقفين العاديين ناهيك عن جماهير الناس البسطاء في وطننا العربي . وقد اعترف المفكر المصري ، بحزن وكآبة ، عندما كتب : « ... واذا كانت هذه الدعوة العقلية الصارمة لم تجد في الغرب آذانا مصغية الا عند صفوة المتخصصين فهي عندنا لا أمل لها حتى عند هؤلاء الصفوة ، فكاتب هذه الاسطر من أشياعها ودعاتها ، لكنه يكاد يكون في الميدان وحيدا ، يتكلم لغير سامع ويكتب لغير قارىء ، لان الدعوة الى العقل الصرف لا تجد في أنفسنا صدى .. » . (فلسفة وفن ، ص ٢٤٨)

وهكذا نرى ان فلسفة الوضعية المنطقية لا تجد ، بتصريح الاستاذ الفاضل ، أشياعا وأتباعا لها ما عدا الدكتور زكي نفسه وبعض الافراد مع انها فلسفة العقل والعلم وعلى الرغم من جهوده الجبارة في قراءة المحاضرات وتاليف الكتب وكتابة المقالات للدعاية لمبادىء هذه الفلسفة على مدى نحو عقدين من السنين . فهو ، بدأب وحماس شديدين ، يدافع وينشر فلسفته . وكل ذلك عبث في عبث مع أنه يملك التأثير القوي بصفته أستاذا في جامعة القاهرة وعضوا في بعض هيئات تحرير المجلات المصرية بالاضافة الى أنه رئيس تحرير سابق لمجلة « الفكر المعاصر » . ان جهوده ومحاولاته لم تكلل بالنجاح المطلوب لان عدد انصار فلسفة الوضعية المنطقية لم يتعد بضعة افراد . لقد بقيت هذه الفلسفة ذات تأثير ضيق الحدود .

وبالرغم من أن الدكتور زكي يعتبر نفسه فيلسوفا علميا يستند الى العقل في تفكيره فانه لا يقدم للقراء تفسيرا علميا يتفق مع العقل لظاهرة عدم انتشار الوضعية المنطقية لا في أوساط المثقفين ولا في دوائر الجماهير . ومرد ذلك في نظري الى عدة أسباب أهمها عدم موافقتها لمجرى التطور الموضوعي ولانها لا تطرح ولا تحل القضايا والمشكلات التي يواجهها الشعب على طريق تطوره نحو مستقبل مزدهر وغد مشرق .

واذا كانت « المأساة » تتجسد في كون الوضعية المنطقية فلسفة علمية وعقلية فان السؤال التالي لا بد ان يتبادر الى الاذهان : — لماذا تجد مبادىء الاشتراكية العلمية وأفكارها صدى ودعما ليس لدى الدوائر الحاكمة في ج.ع.م بل وفي صفوف المثقفين الثوريين وأوساط العمال والفلاحين ؟ لا ريب في أن سبب الانتشار والتأييد يعود الى أن فلسفة الاشتراكية العلمية ليست فلسفة تأملية معلقة في الهواء وانما فلسفة متصلة اتصالا وثيقا بالواقع واهتمامات البشر . ولهذا السبب بالذات ليس من قبيل الصدفة انتقال اعداد غفيرة الى مواقع

(1) ديفد هيوم ، ١٩٥٨ ص ٩٠

الاشتراكية التي لا تستند الى الخرافات والاساطير وانما الى العقل والعلم .

ولعل القارىء سيسأل : اذا كانت الوضعية المنطقية غير منتشرة ذاك الانتشار الواسع الخطير فما العبرة من تصويب الرماح ضدها ؟ وهل هناك خوف من انتشارها بهذا القدر المحدود جدا ؟ ان السبب بسيط للغاية ونجده في كلمات الاستاذ محمود أمين العالم : « اذا كنا نثير اليوم قضية الفلسفة بنقد الوضعية المنطقية فذلك لما نجده في هذه المدرسة الفلسفية خاصة من معاداة صريحة للفلسفة والوعي النظري ولما نلمسه من سيادة هذه المدرسة الفلسفية في بعض أروقتنا الجامعية فضلا عن ادراكنا بأنها تعبر عن الجوانب المتخلفة في حياتنا الاجتماعية وعن القوى الرجعية في العالم » . (معارك فكرية ، ص ٢٣)

ولما كانت الوضعية المنطقية فلسفة متعددة الجوانب والاهتمامات لذا قررت أن أكرس المقال الاول لموضوع الفلسفة ومهامها عند الدكتور زكي على أمل أن أعالج الجوانب الاخرى في مناسبات لاحقة .

موضوع الفلسفة ومهامها

قبل كل شيء لا بد من الاشارة الى اهتمام الاستاذ زكي بموضوع الفلسفة ومهامها اهتماما شديدا ، مع أنه ينظر الى هذه المسائل بمنظار الوضعي المنطقي ويحلها حلا مثاليا ـ ذاتيا ومغايرا للروح العلمي الذي يدعو الى مراعاته والاخذ به. فموضوع الفلسفة الوحيد، في رأيه، هو التحليل المنطقي لعبارات العلماء وما يقوله الناس في الحياة اليومية المألوفة . ومن أقواله : « ودعوانا في هذا الكتاب هي أن الفلسفة تحسن صنعا لو عرفت على وجه التحديد والدقة أن مجالها هو التحليل والتحليل وحده .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٦) . وفي مؤلف آخر يؤكد هذا الرأي بقوله : « .. لقد صح القول بأن الفلسفة لم تعد شيئا سوى المنطق التحليلي » . (برتراند راسل ، ص ٤٠)

وبناء على هذا النظر يتبادر الى الذهن أن الفلسفة ليس بمستطاعها أن تقدم لنا معلومات جديدة عن العالم بالاضافة الى انها لا تملك الحق في ذلك لانها تتعدى الحدود المعترف بها من قبل المناطقة الوضعيين وتخرج على وظيفتها المقررة . وبهذا الصدد ينقد الاستاذ الدكتور بوغومولوف الفهم الوضعي المنطقي لموضوع الفلسفة قائلا : « ان الفلسفة ليس بامكانها أن تحمل معلومات جديدة . فهي تملك فقط شأن توضيح ما يقوله العلم أو التجربة العادية . هذا هو الاستنتاج من فهم الوضعية الحديثة (أي الوضعية المنطقية) لموضوع الفلسفة ». (الفلسفة الانجلو ـ أميركية ، ١٩٦٤ ص ٢٧٩) .

ان الشغل الشاغل للفلسفة يجب ان يكون التحليل فقط نظرا لان الفيلسوف لا يملك الوسائل والادوات من أجل البحث والاستقصاء فضلا عن انه ليس ملزما باجراء التجارب والقيام بالمشاهدات والملاحظات لغرض الوصول الى أحكام أخبارية ازاء العالم . فهذا من شأن العلماء لا الفلاسفة . « ليس هناك من عالم الا عالم الواقع ـ يقول الدكتور زكي ـ وليس لاحد أن يتحدث عن العالم حديثا موضوعيا الا رجال العلوم المختلفة وللفلسفة أن تجيء بعد ذلك فتحلل وتوضح ، للعلم أن يقرر وللفلسفة أن توضح له ما يقرره .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ٨١) .

وهكذا نرى ان اهتمام « الفلسفة العلمية » يجب أن ينصب على تحليل عبارات العلوم والعلماء !.

ان الاستاذ زكي يسعى جاهدا لتحديد ميادين العلوم المادية التجريبية والفلسفة . وهذا أمر لازم وضروري اذ لا غنى عن التفريق بين مواضيع ومهام كل من هذه العلوم والفلسفة والا غدا من الصعب التمييز بين ميدان هذا العلم ومجال ذاك العلم . بيد أن المفكر العربي يقوم باجراء تحديد يفضي الى ذوبان الفلسفة باسم التحليل . فاعتبار التحليل المنطقي مسألة المسائل للفلسفة يعني تحويل الفلسفة الى منطق . والجدير بالملاحظة انه لا يخفي هذه النية ، فهو يقول بصراحة : « فليس موضوع البحث الان « أشياء » ولكنه « جمل » ، ليس موضوع البحث الان هو « الكون » بل هو هذه العبارة المعينة أو تلك وما تحليلها وما مضمونها وما مكنونها ؟ بهذا يربط الفلاسفة أنفسهم بدنيا العلم ودنيا الحياة اليومية بدل أن يتعالوا على الدنيا على أساس انها باطلة بحثا عن عالم « حقيقي » وراء هذا العالم المحسوس ! وبهذا تصبح الفلسفة منطقا صرفا كما يقول برتراند رسل في محاضرته التي نشرها عام ١٩١٤ بعنوان « المنطق هو صميم الفلسفة » فصلا من كتابه « علمنا بالعالم الخارجي » » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٨) . وفي مؤلفه « فلسفة وفن » ص ٢٧ يقول : « وبهذا تصبح الفلسفة هي التحليل المنطقي بدل أن يكون التحليل المنطقي جزءا من الفلسفة » .

ليس من شك في أن التحليل المنطقي ذو أهمية بالغة ودلالة كبرى . وكل فيلسوف ينكر هذا الامر يعد متخلفا جدا عن العصر الذي نعيش فيه سيما ان تطور العلوم القديمة وظهور علوم جديدة أديا الى توطيد مكانه وتثبيت مواقعه وأصبح أحد الادوات المعرفية اللازمة في بحثنا ومعرفتنا للعالم . وقد ازدادت دلالته على وجه الخصوص بفضل تطور المنطق الرياضي (الرمزي) والسيبرنطيقا والرياضة اللغوية وعلم الرموز وصنع الالات المنطقية . بيد أن اعتبار التحليل المنطقي الموضوع الوحيد للفلسفة وشغلها الشاغل يعني انتهاك حقوق الفلسفة الاخرى وتجريدها من النظر الشامل العام . وستصبح الفلسفة علما منطقيا رمزيا يستند الى المنطق الرياضي وحده نظرا لان علمية الفلسفة ، في نظر الدكتور زكي ، تتجسد في استخدام الفلسفة لرموز دقيقة تشبه دقة العلماء في استخدام الرموز . وبذلك يتحول منهج المنطق الصوري في مرحلته الرياضية (الرمزية) الى منهج رئيسي ، لدى المناطقة الوضعيين ، في حل القضايا الفلسفية وأقوال العلماء . ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير الى ان رد العلاقات المعقدة بين الموضوعات المختلفة الى علاقات ذات طابع كمي يفضي الى نظرة ضيقة وحيدة الجانب ويؤدي الى عدم اعتبار تشابك العلاقات التي لا يمكن ان تتسم بالكمية فقط . وفي هذا الصدد كتب أستاذ المنطق الدكتور غورسكي ما يلي : « ان استخدام مناهج المنطق الرياضي كميثودولوجيا وحيدة في تحليل العلوم كلها يعني رد العلاقات المعقدة كلها بين الموضوعات المعينة المختلفة نوعيا الى علاقات ذات طابع كمي غالبا أو ذات طابع أكثر بساطة » . (المثالية الذاتية المعاصرة ، ص ٢٣٣) .

ان اتفاقنا مع نقد الدكتور غورسكي للمنهج الرياضي المنطقي لا نود منه التقليل من شأن التحليل المنطقي في الفلسفة . فلا محيص لنا من استخدام المنطق الرمزي أثناء معالجة مسائل الفلسفة اذا رأينا ان البحث يستوجب هذا الاستخدام . غير أن اعتباره المنهج الرئيسي للفلسفة يشكل نقيصة الوضعيين المحدثين كلهم بما فيهم الدكتور زكي . فالتحليل المنطقي الذي يقف عند استعمال هذا المنهج ليس قادرا على تكوين تصور شامل ازاء بناء المعرفة العلمية على وجه العموم والمعرفة الفلسفية على وجه الخصوص نظرا لان نشاط التفكير البشري لا يمكن حصره في نطاق التحليل المنطقي فضلا عن ان المنهج المنطقي الرياضي لا يستطيع أن يتناول بالتحليل الا جزءا بسيطا جدا من العمليات الفكرية المنعكسة في دماغ الانسان .

ان مفكرنا العربي اذ يستخدم التحليل المنطقي انما يسعى للبرهنة على أن ما يسمى « بالمشكلات الفلسفية » تظهر بسبب وجود غموض وابهام في استعمال رموز العبارات . وقد كتب ما يلي : « اننا نحن التجريبيين العلميين لعلى يقين بأن ما قد جرى العرف على تسميته « بمشكلات فلسفية » ان هو الا غموض في استخدام الرموز اللفظية ، ولو استقام لهذه الرموز طريق استخدامها لتبخرت تلك المشكلات في الهواء وزالت .. » (نحو فلسفة علمية ، المقدمة ، ص ط) .

وهكذا فالمشكلات الفلسفية ما هي الا تطبيق غير صحيح للرموز . ويستنتج من ذلك أن تأملات الفلاسفة وجهودهم الفكرية في الماضي والحاضر (وفي المستقبل) عابثة ولا فائدة من الاطلاع عليها والقيام بتطويرها على الرغم من مساعيهم الحثيثة لطرح وحل المشكلات الفلسفية

على مدى اكثر من الفي سنة . فلو خمن الفلاسفة والمفكرون ان الامر لا يتجاوز الاستعمال الخاطىء للرموز واستخدموها بصورة صحيحة لزالت المشكلات الفلسفية واختفت بدورها الفلسفة من الوجود . والذي لا ريب فيه أن هذا الفهم للمشكلات الفلسفية خاطىء في أساسه . فالمسألة لا تتخطى عدم الوضوح في لغة الفلاسفة والمشكلات الفلسفية ما هي الا أمر يتعلق باللغة الرمزية ان صح هذا التعبير . « ان رجال التحليل في الفلسفة الحديثة لم يكادوا يتناولون بالتحليل مشكلات الفلسفة التقليدية حتى تبين لهم في وضوح ألا أشكال ، وان الامر كله غموض في لغة الفلاسفة ، هو الذي خيل لهم انهم ازاء مشكلات تريد الحل ولا حل هناك ، فهل النفس خالدة أم فانية ؟ هل يكون هذا العالم المحسوس قائما وحده أم ان وراءه عالما عقليا آخر ؟ هل الموجود الحقيقي هو الافراد الجزئية أم الحقائق الكلية التي تعبر عن نفسها في تلك الافراد ؟ وهكذا من أمثال هذه الاسئلة التي لم يزل الفلاسفة التأمليون يلقونها ويحاولون الجواب ولا جواب ، فيتناول فيلسوف التحليل هذه العبارات نفسها ليفض مغاليقها اللفظية واذا هي فارغة لا تنطوي على شيء واذا هذه المشكلات المزعومة الموهومة تذوب ثم تتبخر في الهواء وتختفي » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١١) .

ليس من الصعب على القارىء الذي ينعم النظر في هذا الاقتباس الطويل أن يستنتج منه أن الدكتور زكي لا يريد اعطاء جواب محدد يضعه في صف واحد مع المثاليين أو الماديين . وعلى كل حال فهو يقف في معسكر المثاليين مع انه لا يقول ذلك بصراحة . فاعتبار المشكلات الفلسفية مشكلات وهمية مزعومة يشهد على أن الوضعيين المناطقة بما فيهم الدكتور زكي يحيدون عن المسألة الاساسية في الفلسفة . تلك المسألة التي تكشف عن العلاقة بين الوجود والتفكير بتبيان أسبقية الوعي أو الوجود . انه لمن الخطأ الفاحش أن نزعم ان المشكلات الفلسفية برمتها « مشكلات لغوية خالصة » . فالممارسة الاجتماعية للانسانية تقود الى الفهم الواقعي العلمي للعلاقة بين الفلسفة واللغة والواقع . يقول الاستاذ نارسكي أحد كبار نقاد الوضعية القديمة والحديثة : « لو كان وجود العالم المادي خارجنا وخارج الوعي البشري « مشكلة لغوية » فقط لما كان من الممكن أن يحصل على تفسير مقنع لا لواقعة وحدة تجربتنا ووحدة المراحل المنسقة لتطور الظواهر ولا للتعاقب في العلم ولا لاختلاف رؤية الاحلام المبدئي عن الادراكات العادية للاشياء في خارجنا وكذلك تمييز الذات بصورة عامة من الوسط المحيط .

لقد برزت المشكلات الفلسفية من جراء متطلبات العلوم الطبيعية المتطورة والطبقات الاجتماعية المتصارعة . وهذا الحل أو ذاك لهذه المشكلات يؤثر في نهاية المطاف في النشاط العملي والعلمي والسياسي للناس » . (الوضعية المعاصرة ص ٨٢) .

ان الدكتور زكي اذ يطور آراءه يعتبر ان العلم يهتم بالمعرفة من حيث المضمون أو المادة بينما الفلسفة تعير أهمية الى الشكل أو الاطار الذي يتألف من ألفاظ لغوية تتشكل على هذا النحو أو ذاك لتكون هذه الفكرة أو تلك . ان العلم يتناول مضمون العبارة اللغوية أما الفلسفية فتعني بطريقة بناء العبارات على أساس القواعد المنطقية العامة التي تسري على كل اللغات . « لو تناولت قضية علمية معينة وحللت عباراتها تحليلا يبرز خصائصها المنطقية فانت عندئذ لا تبحث في مادة ذلك العلم بل تبحث في منطقه ، والفلسفة عند جماعة فينا ومن يدور مدارهم هي منطق العلوم بهذا المعنى » . (نحو فلسفة علمية ص ٦٦) .

ان هدف الدكتور زكي منصب على البرهنة على أن الفلسفة علم غير مضموني وانها مجرد نشاط شكلي لا يهمه الا الاطار أو الصورة . فلو كان التحليل المنطقي لعبارة ما موجها أيضا نحو المضمون ومدى صحة انعكاس الواقع الموضوعي فيه لكان ذلك مقبولا ، بيد انه يرى في التحليل المنطقي ما لا يجب أن يكون عليه . وبذلك يصبح التحليل المنطقي تحليلا شكليا لا مضمونيا . « التحليل المنطقي لعبارة ما هو في حقيقة أمره شيء مستقل عن مضمون العبارة وفحواها ، اذ يتناول صورة التركيب وما فيها من علاقات ويفرغ من العبارة فحواها .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٢) .

وعندما يتابع تحديد موضوع الفلسفة ومهامها ، يجعل اللغة وفي المقام الاول علاقة الرمز باشياء ووقائع العالم الخارجي موضوع ما يسمى بالفلسفة التحليلية المعاصرة . وبهذا التحديد ينتقل مفكرنا العربي الى جانب الفلسفة التحليلية معتبرا اللغة موضوع الفلسفة لانها تعد « أداة علمية » . فان كانت الفلسفة تهتم ، في السابق ، باللغة من ناحية البناء والتركيب ، فالدكتور زكي اذ يطور فلسفته يرى ان « محور البحث الفلسفي عند جماعة فينا ومن جرى مجراهم ، هو اللغة دلالة وتركيبا ، فان كانت الدلالة هي هدف البحث ، حصروا انتباههم في علاقة التطابق بين الصورة اللغوية من جهة والمصور العيني من جهة أخرى » . (نحو فلسفة علمية ، ص ٦٦ - ٦٧) . ويسمى تعريف هذه العلاقة بين اللغة وعالم الاشياء السيميية » أي « علم السمات » . انه يظن ان معنى كلمة من الكلمات يتحدد بالاشارة ، قبل كل شيء ، الى الشيء الذي تعنيه الكلمة . ومن الملاحظ ان الاستاذ زكي لا يعترف بأن الكلمة عبارة عن تجريد وتعميم . فهو ينظر الى الكلمات والجمل واللغة على أساس انها رموز ذات معنى . ومن رأيه ان الرمز ليس شيئا فحسب بل المعنى كذلك . وبالتالي يمكن الحكم على انه لا يقر بأن المعنى ليس شيئا ، متجاهلا انه عبارة عن ما ينعكس في الرمز .

ان المفكر العربي يؤكد على ان « اللغة باعتبارها رموزا تشير الى عالم الاشياء هي وحدها المجال الذي تجول فيه الفلسفة بالمعنى الذي نريده لها ، ومن ثم نفهم ما يقال الان عن الفلسفة - على الاقل بالمعنى الذي نريده لها - انها علم « المعنى » » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١١٧) . ولا يقف عند هذا الحد بل يظن ان مسألة المسائل بالنسبة لمعظم الفلاسفة في عصرنا هي استقصاء ودراسة « المعنى » . وهذا يعني انه يعتبر « علم السمات » ضربا جديدا من ضروب الوضعية الحديثة . ومن الحق ان نقول ان مفكرنا ينتقل من الاشادة بالتحليل المنطقي لصورة العبارات الخالصة صوب تحليلها من ناحية المعنى . ويتم هذا التحليل بالاشارة الى موضوع تجربتنا . أما ان كان الرمز لا يشير الى أي موضوع من موضوعات العالم الخارجي فلا بد أن يكون بلا معنى وذلك لان معنى الرمز مرتبط بالموضوع المرموز اليه . ونستخلص من ذلك ان معنى العبارة يتحدد بتلك التجارب الحسية التي تشير اليها العبارات . ان كل شيء يحصل على معنى من خلال وجود الانسان وادراكاته الحسية فقط . « أما نحن أصحاب المذهب التجريبي العلمي في الفلسفة فموقفنا صريح ، يقول القائل عبارته فنسأله : هل هي منصرفة الى شيء خارجي ؟ فان أجاب بالايجاب سألناه من فورنا : أين الخبرة الحسية التي تؤيد ذلك ؟ فاذا عجز عن أن يشير لنا الى كائنات حسية هي التي تنصرف اليها عبارته التي نطق بها حكمنا على عبارته هذه لا بالبطلان فحسب بل بخلوها من المعنى اذ « المعنى » هو بعينه الخبرات الحسية التي يرمز اليها الكلام الذي نزعم له ذلك المعنى » . (فلسفة وفن ، ص ٥٨) .

انه لمن غير الصعب أن ندرك ، من خلال هذا الاستشهاد ، الفهم الضيق لكل من المعنى والرمز . ففهمه يحمل طابعا مثاليا - ذاتيا نظرا لانه يربط وجود موجودات العالم الخارجي المشار اليها بالرموز بالتجارب الحسية للانسان . ان ما يود الدكتور زكي أن يقوله هو : لا وجود للموضوع بدون الذات . وهذا هو صميم الفلسفة المثالية - الذاتية .

وبعد هذا العرض لموضوع ومهام الفلسفة في مؤلفات الدكتور زكي أرى أنه لا مناص من القاء بعض الضوء على الجوانب الرئيسية في فهمنا المغاير لوجهة النظر الوضعية المنطقية فضلا عن النقد الذي وجهناه أثناء عرضنا لموقفه الفلسفي .

بادىء ذي بدء لا غنى عن القول ان لكل علم من العلوم ميدان نشاط يجول فيه . وما دامت الفلسفة علما قائما بذاته ومستقلا ، نسبيا ، عن غيره من العلوم المادية والانسانية ، فهي تتناول بالبحث ما يجري ويدور في مجال اختصاصها على أساس انها احدى صور الوعي الاجتماعي الانساني . وما من شك في أن كل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي -

السياسة ، القانون ، الاخلاق ، الفن ، العلم ، الدين ، الفلسفة ـ يتسم بخصائص مميزة ويضع امامه مهام واهدافا مختلفة . وانطلاقا من ذلك : ما هي الفلسفة ؟ وما موضوعها ؟ وما هي المهام الملقاة على عاتقها ؟

ولكن قبل ان تجيب على هذه الاسئلة المطروحة ، نرى من الضروري تقديم لمحة تاريخية عن منشأ الفلسفة وزمن ظهورها تساعد في الاجابة على مثل هذه الاسئلة . ان الفلسفة لم تظهر مع بدء انبثاق المجتمع البشري نظرا لانها تمثل صورة عالية ورفيعة من صور وعي الانسان . ولما كان الوعي البشري بدائيا في مرحلته الاولى ، فانه لم يكن بمقدوره ان يبدع فلسفات على شكل نظم ومذاهب متكاملة ومتناسقة من ناحية منطقية مع ان التفكير الفلسفي الساذج كان من سمات الانسان البدائي الذي فكر في وجوده واصله وحياته ومماته الخ .. ولم يزل سائدا لدى الناس الذين لم يصلوا الى مستوى ثقافي يساعدهم على ابداء فلسفاتهم بصورة منطقية متسلسلة . كما ان الجهد الذهني لم يكن منفصلا عن العمل اليدوي لحاجة الناس الماسة لبذل قصارى جهودهم ومساعيهم من اجل الحصول على القوت اللازم للاستمرار في البقاء سيما وان الظروف آنذاك كانت قاسية جدا بحيث انها لم تسمح للانسان ان يكرس حتى ولو جزءا صغيرا من وقته ليتامل فلسفيا ولكي يفكر مليا في الوجود ومكان الانسان فيه ، الى غير ذلك من المسائل الفلسفية . مضافا الى ذلك عدم سماح الاحوال الاقتصادية بقيام طبقات تستغل بعضها البعض ليبقى ، للطبقة المستغلة ، متسع من الوقت تخصصه لا لغرض الحصول على القوت وانما لهدف التفكير فلسفيا والتامل في كل ما يثير التامل في الطبيعة والمجتمع وحياة الانسان . لقد كانت وسائل الانتاج في المجتمع البشري البدائي ملكا يخص الجميع دون استثناء وبذلك انتفى الاستغلال نهائيا . كما ان المستوى المنخفض جدا للانتاج لم يجعل ممكنا عيش طبقة من الناس على حساب الاخرى ناهيك ان جهود الجميع قاطبة لم تكن كافية لحياة الناس كلهم . وبانتقال المجتمع الى مرحلة عليا في تطوره ظهرت الفلسفة كصورة للوعي تناسب الطور الجديد . وغني عن القول ان المجتمع العبودي الذي تكون من طبقتي الارقاء ومالكي العبيد كان اول المجتمعات الصالحة لنشوء الفلسفة . والتاريخ يثبت ان ميلادها حدث في المجتمعات العبودية التي كانت سائدة آنذاك في الصين والهند ومصر وبابليون قبل نحو ٣٠ قرنا ومن ثم في اليونان والامبراطورية الرومانية. ان ارتفاع مستوى الانتاج وانقسام المجتمع الى طبقتين مستغلة ومستغلة أفضيا الى انبثاق مقدمات للفلسفة خاصة وان العمل الفكري انفصل عن اسار العمل اليدوي وغدا في مقدور الفئة المستغلة ان تفكر وتتامل فلسفيا . وهكذا برزت الحاجة الى الصياغة النظرية الفلسفية لمصالح الطبقات والفئات الاجتماعية المتصارعة . ويدل هذا على ان الفلسفة ليست صورة لمعرفة الواقع فقط بل عبارة عن ايديولوجية للدفاع عن مصالح طبقة من الطبقات . لذلك تعتبر كل فلسفة تعبر عن اهداف الطبقة الصاعدة فلسفة متفقة مع التطور الموضوعي للتاريخ البشري ومساعدة على تقدم الانسانية ، اما تلك التي تحمي وتدافع عن غايات الطبقة المحافظة التي انتهى دورها فهي تؤدي دورا ينافي السير التقدمي للبشرية . بيد ان هذا التفسير لا يعني ابدا ان الفلسفة متصلة بصورة مباشرة بالمصالح الاقتصادية لهذه الطبقة او تلك ولا يدل على ان الدوافع الاقتصادية وحيدة في ظهور الفلسفة وخدمتها للتاخر أم للتقدم. فالاقتصاد يؤثر في نهاية المطاف فقط وعن طريق غير مرئية ببساطة ويسر . والتسلسل في التطور الفلسفي للبشرية جمعاء بغض النظر عن خدمة هذا النظام الفلسفي او ذاك للطبقة الصاعدة او الطبقة المحافظة خير شاهد على قولنا . فاستعراض تاريخ الفكر والتعاليم الفلسفية يثبت لنا ان هنالك فلسفة لاحقة واخرى سابقة بالاضافة الى الصلة الوثيقة القائمة بينهما . وكم من الفلاسفة من اعتبر فلسفته مبتكرة وفريدة في نوعها ولكن سرعان ما كشف التمحيص عن الصلة الموجودة مع من سبقها من الانظمة والمدارس الفلسفية . ذلك لان المصالح الاقتصادية لا تفعل فعلها الا في معالجة هذه المواد الفكرية والفلسفية وتطويرها وتحويرها لخدمة اغراض الطبقة المقصودة .

وبعد هذه النبذة نعود لنسال : ما موضوع الفلسفة وما مهامها ؟

ان مسالة العلاقة بين الوعي والمادة او التفكير والوجود اهم ما في موضوع الفلسفة . فهذه المسالة عبارة عن نقطة انطلاق تحدد المواقف الفكرية الاخرى وتعتبر قاعدة للبناء الفلسفي كله . والاجابة على هذا السؤال يفضي الى وقوف المفكر في صف المثاليين أو في معسكر الواقعيين العلميين . فقولنا : المادة أو الوجود يسبق الوعي أو التفكير معناه تبني الواقعية في الفلسفة . اما قولنا : الوعي يسبق الوجود فمؤداه رفض الاتجاه الواقي واقرار المثالية على صورة من صورها المعروفة . واعتبار الدكتور زكي مشكلات الفلسفة : هل النفس خالدة أم فانية ؟ وهل هذا العالم المحسوس وحده أم ان وراءه عالما آخر ؟ وغيرها من المشكلات مشكلات مزعومة موهومة لا تتجاوز مسالة العلاقة بين الوعي والوجود . ولا شك ان رفض الاجابة دليل على اللاأدرية التي يتبناها الدكتور زكي وهي قريبة من المثالية قربا شديدا .

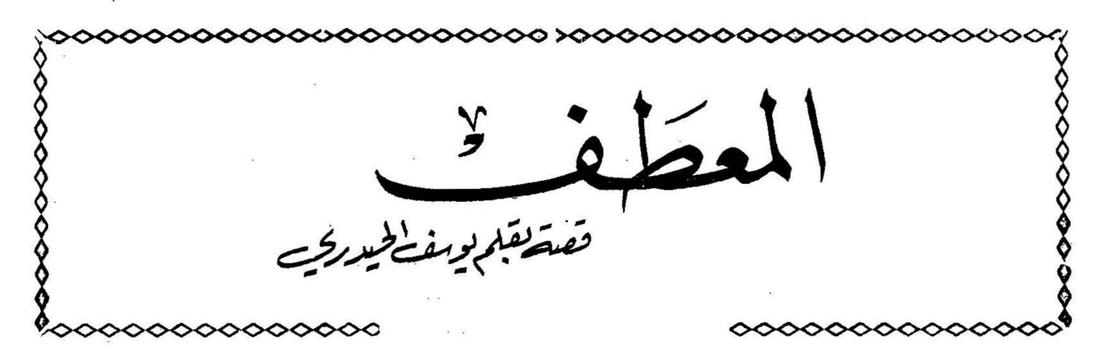
أما العلاقة بين الفلسفة والعلوم فلا تتجسد في التحليل المنطقي لاقوال العلماء على غرار ما يفكر المناطقة الوضعيون . فالفلسفة تتميز عن العلوم بالنظر الى الوجود من جهة قوانينه الاكثر عمومية وشمولا ومن جانب وحدته المادية التي تظهر في تنوع الظواهر والموجودات والعمليات المحيطة بنا . وفي احقاب زمنية طويلة كانت الفلسفة تضم في أحضانها العلوم الاخرى نتيجة لعدم تطورها بصورة تسمح بانفصالها. وبناء على ذلك بحثت الفلسفة في مسائل غدت بعدئذ من آختصاص العلوم المنفصلة .

ان كل علم من العلوم يبحث في العالم الموضوعي والانسان من زاوية محددة ومن ناحية علاقاته وصلاته الخاصة التي لا تتخطى النطاق المعين . لذا كان موضوع كل علم يختلف عن الاخر مع ان بعض المواضيع غدت مشتركة بين عددمن العلوم وصار كل علم يعالجه بطريقته الخاصة. وان كان هذا العلم يتناول بالدرس والبحث هذه الخواص والعلاقات التي تتصف بها الوقائع والظواهر في عالمنا الخارجي أو الداخلي وذاك العلم يبحث في صلات وقوانين جانب معين من جوانب الوجود المادي أو البشري ، فالفلسفة لا تتدخل في شؤون الفيزياء ، مثلا ليغدو موضوعها موضوعا لها ولا تدس انفها في قوانين الكيمياء لتستحيل هدفا من أهداف الفلسفة . فموضوع الفلسفة يتمثل في القوانين والمقولات العامة التي تخضع لها ظاهرات وعمليات الوجود الطبيعي والبشري والفكر الانساني . وهي لا تبحث في قوانين هذه الظاهرة أو تلك العملية فحسب بل تهتم بالقوانين التي تسري على جميع الظاهرات والموضوعات. ان اهتمامات الفلسفة والعلوم تكمل بعضها البعض وليس هناك تناقض بين ما تهتم به الفلسفة وما تبحث فيه العلوم . ان التناقض ينبثق عندما تريد الفلسفة أن تتحول الى « علم العلوم » أو في الوقت الذي تسعى فيه العلوم الى تذويب الفلسفة في التحليل المنطقي . ولا شك في أن القوانين والمقولات العامة الشاملة عبارة عن انعكاس في أدمغة الناس للحركات الدائرة في الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني . وهي تحمل طابعا موضوعيا مستقلا عن وجودنا وادراكنا لها .

ان هذه الاحكام لا تشير الى أن الصلة معدومة بين الفلسفة والعلوم ولا تدل على أن الفلسفة تقف فوق العلوم أو تحتها . فالعلاقة ترتدي طابعا جدليا . فالفلسفة تغتني بمعطيات العلوم الطبيعية والانسانية وتقوم بتعميمها . هذا هو الشق الاول من المعادلة ، أما الشق الاخر فيظهر في استفادة العلوم من الفلسفة من الناحية الميثودولوجية نظرا لان الفلسفة تزود الناس ، وبخاصة العلماء ، بنظرة عامة شاملة الى الكون والمجتمع والانسان لا غنى عنها في اي ميدان من الميادين .

ان الفلسفة تمثل منهجا علميا يهتدى به في دراسة ظواهر الطبيعة والمجتمع وعمليات الفكر البشري ، وهي لا يمكن ان تؤدي « دورا توضيحيا » فقط لما « يقرره العلم والعلماء » .

موسكو — أحمد ماضي



البرد قارس ، يلسع اذنيه المحمرتين اللتين لم يستطع اخفاءهما تحت قبعته الصوفية ، وانفه الاحمر المتجمد يطل من وجهه المرتعش المتعب . انه اشبه ما يكون الان بتمثال ثلجي يتحرك ، لقد منح اخيرا اجازة لمدة ثلاثة ايام ، تقديرا لتضحيته في تلك الحادثة التي لن ينساها ابدا ، وعلى مقربة منه ، فوق الاريكة المتداعية ترك غدارته السوداء المحشوة التي بدت كحشرة غريبة ساكنة ، تقبع بصمت الى جانبه وكأنها جزء لا ينفصم عنه .

نفث بدخان سيجارته في سقف المقهى الخشبي المسود ، واحس بخدر لذيذ يسري في اوصاله ، ثم راح يفرك راحتيه الواحدة بالاخرى ليحس بمزيد من الدفء ، وكانت مدفأة عتيقة ضخمة تتوسط ارضية المقهى ، ومن خلال فتحة كبيرة في نهايتها كان يحدق في السنة اللهيب المتصاعدة وهي تأكل قطع الخشب المتكسرة ، وبعد ان عب انفاسا اخرى طويلة من سيجارته ، رفع رأسه المثقل ولامست عيناه وجه جندي اخر كان قد هده التعب وظهرت عليه علامات الخمول وراح يتثاءب وكأن النوم لم يقرب جفنيه منذ يومين ، كان رأسه يتدلى كثمرة جافة سوداء ويستكين فوق صدره للحظات ثم يرفعه ثانية .

عاد يحدق في الجمرات المحمرة التي تتحول بسرعة غريبة الى السنة مترافصة تلعق فضاء المدفأة وجدرانها الملتهبة .. ولاحت له صورة الرجل الشجاع الذي كان يضمه بين ذراعيه قبل أيام .. تذكر العريف « جابر » الذي سقط بالقرب منه داخل الخندق الذي كانوا يحتمون به من نيران الاعداء . ولقد حذره كثيرا من رفع جسده اكثر مما يجب عن الخندق ، غير ان شجاعته طغت على حذره .. وكانت زخة من رصاص بارد تخرق صدره العريض فتطرزه بفوهات حمراء صغيرة وكأنها اوسمة قرمزية ملتصقة بجلده الابيض الناصع .

كانوا ثلاثة هو والعريف جابر والجندي المكلف رشيد صالح.كانت الدماء تتدفق بغزارة من صدره العريض ، بينما عيناه الجاحظتان تقدحان شررا وحاول ان يستمر في القتال ، غير ان النزيف كان قد اشتد عليه ، فاشار بيد مرتعشة اليه ان يدعه وشأنه ويستمر هو والجندي رشيد صالح في القتال ..

كانت السماء مغطاة بسحب ثقيلة سوداء والريح شديدة ، باردة . كان عليه الان ان يجرجر جسد العريف جابر الضخم الى خلف التلة الصخرية الصغيرة ، ومن هناك وعلى مسافة عشرات الامتار الى حيث تتناثر خنادق متروكة فارغة رحل عنها الاعداء مذعورين تحت نيران القوات المتقدمة ، من هناك الى اقرب مركز طبي للاسعاف العاجل . عليه اذن ان يقطع مسافة نصف كيلومتر او اكثر قليلا ، معرضا نفسه لوابل القنابل والرصاص الذي لا ينقطع من مواقع العدو ، لا يزال يتذكر جيدا عيني العريف جابر نصف المغلقتين اللتين اخذ الشعاع اللامع الذي كان يشع منهما يخمد تدريجيا .. ووجهه المليء بالحماس والنشاط والحيوية اضحى اصفر فاقعا ، وراح فكه الصلب يتدلى وكأنه على وشك ان ينفصل عن بقية وجهه الذابل ، وحاول ان يتكلم غير ان حشرجات انفاسه الثقيلة كانت تضغط صدره الممزق فلا يطيق الافصاح عما يدور في ذهنه المكدود المشوش. عليه ان يصنع المستحيل ليحمي جسد رفيقه من رصاصات اخرى قد تخمد انفاسه الى الابد .

كان قد اسند العريف جابر الى جنبه الايسر وقد طوق بذراعه اليسرى جسده الثقيل وراح يجره بكل ما فيه من حيوية وقوة حتى استطاع اخيرا ان يقترب من حافة الصخور المحيطة بالتلة الصغيرة وبدأ يجرجره حتى انتهى به خلف التلة حيث ارقده على ارض رخوة تمتد طولا حتى الخنادق المتناثرة المتروكة .

عليه الان ان يستغل الدقائق الباقية في جرجرة رفيقه حتى بداية اول خندق ، ومن هناك وبعد مسيرة قليلة تطل جدران المركز الطبي ، حيث يكون في استطاعته اجراء الاسعافات الاولية العاجلة ، وبعد ذلك يمكن نقله بسهولة وسرعة الى المستشفى الكبير القائم في مدخل مدينة « ك » الصغيرة ، شبه العسكرية .

حدق في وجه العريف « جابر » الساكن بذهول .. كان فمه قد التوى ، اما فكه فقد تدلى اكثر ، واستطاع ان يسمع حشرجاته الثقيلة. كانت الدماء قد غطت معظم جسده المشلول ، وتناثرت بقعا كبيرة حمراء متجمدة على معطفه الصوفي الثقيل وسرواله وراحت بقع اخرى تتجمد فوق جوربيه ، وحتى حذاؤه العسكري الاسود الثقيل لم يسلم من نقاط صغيرة متناثرة .

صاح فيه بغتة بعد ان غمره خوف مفاجيء :

– عريف جابر .. عريف جابر .. هيا .. هيا .. لقد اجتزنا التلة الصخرية الآن .. ولم يبق سوى ان نصل الى جذع الشجرة الوحيدة هنالك .. عند الخنادق التي تبدو الآن بوضوح من هنا .. هيا انظر يا عريفي .. سوف تصل .. ما عليك الا ان تتحمل قليلا .. هيا يا عريفي الشجاع .. انت لن تموت ابدا .. لا يا عريفي انت لن تموت ... لن تموت ..

كان العريف جابر الآن يغرق في صمت عميق .. وبعد قليل استطاع وبجهد كبير جدا ان يفتح عينيه قليلا واخذ يحدق من خلال ضباب كثيف في ملامح رفيقه ، الذي غمرته فرحة جنونية وهو ينتظر بلهفة قاتلة سماع صوته ، كلمة واحدة فقط تشفي غلته ، بدل هذه الحشرجات المرعبة .. واخذ يمسح براحته الباردة وجه العريف جابر المعروق ، وهاله ان تلسع يده حرارة راحت ترتفع بمرور الوقت .. وأيقن ان رفيقه لا محالة هالك اذا لم يسرع به الى المركز الطبي ، وان ضياع لحظة واحدة دون السير سوف يلحق الضرر به ويقربه من حافة الموت .

وقبل ان يستعد لحمل جسد رفيقه، طافت في ذهنه فكرة. وسرعان ما راح ينزع المعطف الصوفي الثقيل عنه ورماه بعيدا هناك في اعماق السهل المترامي وراح يزحف مسندا رفيقه الجريح الى جنبه الايسر ، وتوقف قليلا بعد ان سار مسافة قصيرة حين أحس بشيء ساخن لزج يملأ كفه . وحين حدق فيها ، كانت قطعة حمراء ملتهبة راحت تتساقط منها قطرات من دم رفيقه الذي لم يكف لحظة عن النزف ، ولم يعبأ لاشارة من يد العريف المتدلية وهي تشير اليه بالكف عن المحاولة اليائسة . كان الآن قد خمد آخر صوت في جسده الممزق حيث تحول

قصيدة للانسان

(الى الفدائيين العرب)

ان تبعث أمجاد الانسان وتحرق استار الاحقاب
ان ينتفض الاحرار يجفف دمعا يسكبه الاحباب
وتحطم مبخرة الازمان لكي يروى ظمأ الصحراء
فلأن الصمت كسا المأساة بنغمته الصماء
ولان ظلال الاقدار
ذابت لما انهارت حجب الاسرار
فالارض الثكلى ترتقب الامطار
ونداءات الانسان تفجر غيمات الاحرار
فانساب دم الانسان ليحكي ملحمة ..
لم تكتبها الاشعار

***

والليل يحيل ضراعات الانسان
نغما يسري في أعماق الاحرار فتنتفض الاكفان
كي تبعث نيران الغضب الظمآن
فدم الانسان المسكوب على الخيمة كالانداء
يمحو استار الصمت وسفر مئات من خطب جوفاء
لا يبقي الا خطوة انسان
يذكي التاريخ ويبذر ملحمة الافكار
يرتاد الافق لعل دياجير الاجيال تذوب
منه فتسكت قهقهة الاسوار

***

ما اروع بشرى الانسان يموت بلا ابطاء
ليفجر للابناء
اكليل الظل ونبع الماء
ما أروع قبلة أم وهي تشير الى افق الابطال
فتكوّن في نبض الاطفال
حس الانسان وثورات الاجيال

فاس ــ المغرب

محمد الشيخي

الى مجرد قطعة ضخمة من جسد مسترخ ثقيل ، وقبل ان يصل الى منتصف المسافة بين التلة الصخرية والخندق المتروك ، شقت صمت الفضاء الذي دام لدقائق قليلة أصوات المدافع الثقيلة ، وراحت السماء تمطر زخات من الرصاص والدم ، وعلى مقربة منه كانت تتفجر الشظايا وتتناثر قطعا صغيرة مميتة ، كان عليه ان يسرع اكثر فاكثر .. وتوقف للحظة ونزع حذاء العريف جابر الثقيل ورمى كل فردة الى مكان ، وصفعت وجهه ريح باردة راحت تجمد حبات العرق الكبيرة التي تغطي وجهه وتدخل عينيه حاجبة الرؤية عنهما ..

عب انفاسا رطبة من الهواء وملأ رئتيه ، واحس بانه اقوى عندما لاحت عن قرب اكياس الرمل المرصوصة على حافة الخنادق . ودون ان يعبأ بالشظايا المتطايرة حوله وامامه ، كان الآن يجرجر جسد رفيقه بكل ما فيه من حيوية ونشاط .

ساد صمت قصير بغتة ، توقف قليلا قبل ان تلامس يده اكياس الرمال المرصوصة على حافة الخندق ، وبحركة سريعة جدا هز جسد العريف الساكن هزة عنيفة وراح بعدها يجره الى داخل الخندق بحذر شديد وهو يدمدم دون وعي :

ــ ها قد وصلنا اخيرا الخندق .. يا عريفي .. ألم أقل لك اننا سوف نصل الخندق ؟. لم يبق سوى القليل جدا ويصل الرفاق .. اذ لا بد انهم قد رأونا الآن .. بعد ان اصبحنا قريبا جدا منهم .. هيا .. يا عريفي .. ها .. كيف أنت الآن ؟.. عريف جابر .. عريف جابر .. عريفي .. هيا انظر اليهم جيدا من حافة الخندق .. انظر كيف يفرون كالفئران المذعورة تحت قصف مدافعنا الثقيلة .. تأمل يا عريف جابر .. كيف تتهاوى معسكراتهم وكأنها بيوت من القش .. لقد انتصرنا يا عريفي .. نعم ها هم جنودنا الابطال يزحفون .. عريف جابر .. عريف جابر .. هيا متع نظرك من مشهد النصر .. أواه ما أروع اناشيد النصر .. عريف جابر .. عريفي عريفي ..

اخذ يهز جسد العريف الذي كان قد تحول الآن الى لوح بارد ، وكان النزيف الحاد قد توقف تماما . ولمس الجسد بيد مرتعشة . كانت برودة شديدة تسري فيه .. وكانت عيناه الجاحظتان نصف مغلقتين تحدقان فيه بمرارة وعتاب . كانت النظرات غريبة احتار في تفسيرها.. نظرات لن ينساها ابدا .. لم يعد يطيق احتمال تلك النظرات بعد ، وامتدت يده المرتعشة لتغلق بحنان كبير جفنيه الباردتين ، ومسح العرق الغزير الذي يسيل على طول وجهه ويدخل عينيه ليمتزج مع حبات دموعه الساخنة .

تلفت خلفه ومن حافة الخندق العميقاستطاع ان يلمح في البعيد، وسط القفر الترامي معطف العريف جابر الملطخ بالدم ملقى في العراء وعلى مسافات متباعدة منه فردتا حذاء عسكري أسود .

الحلة ــ العراق

يوسف الحيدري

صفحتان من مذكرات فدائي

الصفحة الاولى :

« حنين »

●

أحن وقد يصير الحزن كالموّال
اذا مرّت على بالي ..
مزارع شعرك المنذور للأطفال
أحن لقبلة خضراء ما ابتلت بها شفتان
ولا فرحت بها يوما ..
على الكفيّن قبرّتان
أحن لموعد يندى به جرحان
ويرعى العمر فيه آثنانِ ..
انسانان

أحن لقهوة المغرب
وطفلٍ صادقٍ كالموتِ ..
يزرع في دمي كوكب
أحن .. وقد يصير الحزن كالموّال
اذا مرّت على جرحي ..
خطى الزيتون والابطال
وان عانقت في حزني صديقا غاب
وحين أتوه لم يلقوه
سوى زيتونة في الدارِ ..
تحكي عنه للأحباب

أحن اليك
والنعناع حين آمتد في عينيك
وواحة جدي الخضراء والرملِ
ومهرته التي ترعى على مهل
وقد يحكون أني كنت في يوم ..
على كفيك

ولما جاءني السمّار لم يلقوا سوى اهلي
وقد يحكون ما يحكون
– اني طيب كالحزن .. كالقرميد
وأني ساذج كالعشب .. كالفرحه
ولكني أحن اليك
وأحلم خلف عمر الصمت والاوجاع :
اذا مرت على جرحي
عيونك .. والرذاذ الحلو ، قيثاره
يزهر قلبي المتاع
شراعا ربما .. أو غابة خضراء ..
أو حاره)

أحن .. وقد يصير الحزن شبابه
اذا ذكر المسافر في عروق النار
أغانيه .. وأحبابه !!

. . . . . .

الصفحة الاخيرة :

« حلـم »

●

وزهر في دمي نيسان
ومن عينيك ذقت الشمس والطيبه
كطعم الجرح .. والميناء .. والانسان
ونقّر من يدي «الحسون» ما جمّعت عن خديك ،
حصاد الرحلة الاخرى وراء الليل
الى نخلات واحتنا .. وقلب الرمل
اذا ما صار نافوره
وسور الدار حين يظل أسطوره
حملت التين للأحباب والاهلِ
وكان الباب مفتوحا لكل الناس
وحدّث والدي القروي عن أصلي
وطفلي دافيء كالوعد .. كالاعراس
تحاوره على عينيك قبّرة .. على مهل
وذبنا .. كان صمت الليل يطوينا
فيحلم ربما فينا
على الدنيا غريبانِ
وأغنية على شفتيك تزرعني على كوكب
فأصبح طفلك الثاني
« احبك » : افرعت زندا بليل الجرح
« احبك » : جدّلت عشا لوعد الصبح
وما قد كان :
« صار الحزن ميعادا على بوابة المغرب
ومرت نجمة عذراء بالموكب
وكنا ندفن الشهداء في الاهداب
ونهتف بأسم بعض القمح والاحباب »
فزهّر من دمي نيسان
وعصفور كبير القلب كالانسان
يبيض على بقايا الترسِ ..
في الميدان !!

عمّان

وليد ابراهيم سيف

رحلة الحروف الصفر

للشاعر بلند الحيدري

منشورات دار الآداب ـ بيروت

عبر « رحلة » (١) بلند الحيدري الشعرية الجديدة نجد انفسنا أمام رؤيا جديدة متميزة للشاعر ، ويطل علينا وجه آخر كان يبدو باهتا ، مذعورا ، مترددا في رحلته الشعرية الطويلة قبل « رحلة الحروف الصفر » . هذا الوجه الذي يطل علينا شامخا ، عنيفا ، مقاتلا ، وأبيا هو وجه الشاعر الثوري ، الشاعر الواعي الملتزم لقضايا الانسان ، لمصيره ، لهمومه ، لانتصاراته وهزائمه وأشواقه . ان بلند الحيدري هنا يتخطى أوجهه القديمة : وجه الشاعر البودليري الذي عرفناه في مطلع حياته الشعرية في « خفقة الطين » ، ووجه الشاعر الرومانسي الذي كان يجوب في أعماقه ، ويفرض رؤياه في « أغاني المدينة الميتة » ، كما شحبت هنا صورة الشاعر العبثي السيزيفي بهمومه الذاتية والوجودية ، وراح احساس الشاعر بالغربة والانسحاق المهزوم الذي جسدته تجاربه الشعرية في « خطوات في الغربة » يكتسب نكهة جيدة تماما . فبدلا من التشاؤمية المرعوبة ، والاحساس بالهزيمة والعجز أمام جدار المستحيل ، اكتسب احساس الشاعر بالغربة نبرة التطلع والتفاؤل الثوري المفعم بمزيج من الغضب والتحدي والانفتاح على الانسان الثوري .

ان صوت الشاعر الثوري الذي يعلو هنا يكشف عن نضج فني وفكري متميز ، نستشفه عبر رؤيا الشاعر المتطلعة الواعية ، وعبر نبرة صفاء شفافة كانت تغرق في ضبابية القلق والتمزق والغربة ، وأخيرا عبر تطور أدوات الشاعر التعبيرية والتكنيكية في بناء التجربة الشعرية .

ان ميلاد هذا الصوت الشعري الجديد ليس حدثا طارئا بل جاء عبر عملية تطور فنية وايديولوجية وحياتية مر بها الشاعر ، وجاء ديوانه الاخير ليعلن حقيقة تخطي الشاعر لاوجهه القديمة ، ووقوفه على مشارف مرحلة جديدة من تطوره الشعري . وتكتسب هذه الحقيقة أهمية متميزة لان بلند الحيدري اذ ينتقل نهائيا الى مواقع الثورة والمقاومة ، فانما يكون انتقاله بعد نضج فني وحياتي أصيل ، لذا جاء صوته صافيا وجاءت معالجاته بعيدة عن السقوط في الهتافية والشعارات والانفعال العاطفي السريع الذي يترك بصماته الواضحة على كتابات الكثير من الشعراء الثوريين الآخرين وذلك لانهم كانوا ثوريين قبل أن يمارسوا عملية الابداع الشعري ، لذا فعندما بداوا حياتهم الشعرية كانوا يحملون معهم الكثير من الهموم والشعارات والانفعالات السياسية اليومية ، الصغيرة ، والكبيرة ، التي كانوا يطمحون الى أن يجعلوها جزءا من رؤياهم للتجربة الانسانية والشعرية. بينما كان بلند الحيدري شاعرا أولا ، بدأ من مواقع الذاتية والرومانسية واكتملت ملامح شخصيته الشعرية بعيدا عن هموم العمل الثوري والسياسي ، ولذا جاء انتقاله التالي الى مواقع الالتزام والانتماء الايديولوجي والانساني أصيلا وناضجا . ومما يكسب انعطاف شاعرنا هنا اهمية بالغة هو جو الكفاح الثوري الذي يخوضه شعبنا العربي ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية ، والذي يتطلب وعيا سياسيا وحضاريا عاليا من قبل الشاعر العربي المعاصر ومعايشة لمشكلاتنا الثورية والقومية والانسانية ، كما انه يعلو في وقت تسود فيه لدرجة محزنة ظاهرة الارتداد نحو الميتافيزيقيا ، والذاتية والسوداوية والانغلاق ، وتعلو أحكام تعلن عن نهاية وظيفة الشاعر الثوري الملتزم .

ان تجربة بلند الحيدري هنا تكشف ضرورة الشاعر السياسي المنتمي وعدم انتفاء دوره ، كما انها تكشف عن ان مظاهر الارتداد عن الواقعية ، عن الثورة ، عن المقاومة ، والانحدار نحو كهوف التفوق الذاتي ، أو التمرد العدمي التي جاءت كنتاج لاحساس حاد بالهزيمة ، هذه المظاهر يمكن تخطيها ومنح شعرنا العربي صوت الثورة الذي لا يخبو بمعانقة أصيلة لتجربتنا الحياتية ، القومية والانسانية بكافة أبعادها .

فلذا يجب أن نتأنى كثيرا قبل أن ندرج اسم بلند الحيدري تحت أي قائمة أو جدول تقليدي اعتاد بعض النقاد على وضعه ، فهو الآن يرتاد أفقا جديدا ، وبصفاء نادر ، يجعل منه واحدا من شعراء المقاومة والثورة والتطلع في شعرنا الحديث .

فلم يعد بلند ، شاعر الجنس ، والكلمة الارستقراطية الانيقة ، الذي يلهث وراء الايقاع الموسيقي في « خفقة الطين » ، والذي قال عنه مارون عبود « انه أقرب الى أبو ريشة تعبيرا ولكنه أخو أبو شبكة في الطاحونة الحمراء . فالرحى سورية ، وأما الحنطة فراقية » . والذي وقفت قصيدته الشامخة « سميراميس » الى جوار « سدوم » أبو شبكة ، ولكن بمعالجة جديدة للعقدة الاوديبية وبفنية ودرامية تذكرنا بقصيدة « ثامار وأمنون » لفارسيا لوركا .

وهو لم يعد « ذلك الشاعر الذي يكتسحه طوفان تشاؤمي » كما كان يرى وزموند ستيوارت . وأخيرا فهو لم يعد ذلك « الشاعر الرومانسي » الشاب الحساس « الذي ارتجفت مشاعره الصغيرة وأحلامه الطفولية الخضراء على جليد الواقع المتعفن القاسي ، يغار مع اليأس في رحلة قاسية ويعذبه صمت الليالي وضيق المكان ورتابة الزمن ، وتنتهي قصائده بندب جنائزي للحياة والوجود والمصير والقيم ، ويبشر بالنهاية : الفجيعة » (٢) .

وقد يقال ان صوت بلند في ديوانه هذا ليس جديدا ، باعتباره كان يتحرك ضمن رؤيا ملتزمة منذ « جئتم مع الفجر » الذي تبلور اثره ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . والواقع أن بلند لم يستطع خلال تجاربه الشعرية تلك تقديم نتاجات شعرية تتسم بالمعايشة الاصيلة الواعية للتجربة الثورية ، بل كان يبدو مبهورا مندهشا باندلاع الثورة المفاجيء له ، لذا فهو كمن استيقظ من حلم وراح يحدق بفرح في الانطلاق الثوري العارم ، فجاءت معالجاته « هامشية » منفعلة ، وتصل أحيانا لدرجة السذاجة ، وعدم ادراك طبيعة العوامل العميقة التي كان يحبل بها مجتمع ما قبل الثورة . ففي قصيدة « جئتم مع الفجر » يقول الشاعر :

« لكنكم جئتم
وكنا هنا
نسأل من أين ستأتي المنى
من أين ؟..
لن تأتي
لن تشرق الشمس » .

ثم يقول :

« فسجننا أعمى بلا كوة
ودربنا يوغل في الهوه
ونحن لا حول ولا قوه
لكنكم جئتم وكنا هنا » .

وبمثل هذا التفاوت الساذج كان يقدم لنا بلند الحيدري تجربته كشاعر سياسي ، وذلك لان وعيه بالثورة كفاعلية انسانية ، وبالالتزام

---

(١) « رحلة الحروف الصفر » ـ شعر ـ بلند الحيدري ـ دار الآداب ـ بيروت .

(٢) « دراسات في الشعر العربي الحديث » ـ أطانيوس ميخائيل ـ ص ١١٤ ، ص ١١٦ .

الايديولوجي كرؤيا داخلية شخصية ، لم يكن قد « اختمر » في أعماقه ولا وعيه بتلقائية وعمق . وقد انتبه لهذه الحقيقة الناقد العراقي عبد الجبار عباس في دراسته عن « بلند الحيدري » في عدد « الآداب » الخاص عن الشعر ، اذ أشار الى أن التزام الشاعر آنذاك « لم يكن أكثر من موقف تعاطف وتأييد ومشاركة وجدانية دون ان تنحل هذه القضايا في نفسه وتذوب في كيانه متحولة بذلك الى تجربة شخصية لا بد من تفجرها في شعره » (1) .

الا ان المرحلة الجديدة التي يطل عليها بلند الحيدري تجعلنا نتطلع باطمئنان وثقة الى شاعرنا الذي استطاع أخيرا أن يعيش بعمق، بتلقائية ، التزامه الايديولوجي والثوري بعد أن « انحلت في نفسه وذابت في كيانه قضايا التزامه الفكري متحولة بذلك الى تجربة شخصية تفجرت فعلا في شعره » .

ومما ينبغي الانتباه له هو ان هذه المرحلة قد تكاملت بعد أن مر الشاعر بأزمة انسحاق واغتراب أحس فيها بالهزيمة والخيبة ، اثر تجربة ذاتية وسياسية معينة كادت أن تسلمه نهائيا الى متاهات التصوف والارتداد نحو الميتافيزيقيا والذاتية والسوداوية . وقد عبر عن ذلك عبد الجبار عباس في دراسته المذكورة اذ قال : « لقد كانت الرجات السياسية العنيفة التي مرت بها بلادي كفيلة بأن تعيد شاعرنا الى الانكفاء والاستسلام مرة أخرى الى ـ أغاني المدينة الميتة ـ وقد أوشك أن يفعل ذلك كما تشهد قصيدة ـ الرحلة الثامنة ـ » الا ان مخاوف الانكفاء هذه لا مبرر لها حاليا ، فلقد استطاع شاعرنا تخطي هذه الازمة نحو آفاق جديدة ورائعة ـ نحو شواطىء الانفتاح على الثورة والمقاومة والدفاع عن قضايا الحرية والانسان .

وان ديوان « رحلة الحروف الصفر » ياتي ليكون شهادة ميلاد هذا الصوت العميق في شعرنا الحديث ، وهو يبشر بمرحلة شعرية جديدة وخصبة في رحلة بلند الحيدري الشعرية ، تستلزم الرصد والدراسة المتانية .

وختاما فآمل أن استطيع معالجة هذه الظاهرة مرة اخرى وبشيء من التفصيل في عدد قادم .

بغداد **فاضل ثامر**



الكابوس
رواية لامين شنار
منشورات دار النهار ، بيروت

الكابوس .. اسم رواية الشاعر أمين شنار التي فازت مناصفة بجائزة الملحق الادبي لجريدة « النهار » عام ١٩٦٧ مع رواية تيسير سبول ـ أنت منذ اليوم ـ

و « الكابوس » رواية قصيرة تعتمد الرمز أساسا فنيا للتعبير.. لذلك فهي من الاعمال الرمزية التي عادة ما يختلف حولها التفسير والتأويل ، والتي لا يكاد ينكشف الرمز فيها عن معناه بعد القراءة الاولى للنص ، ومثل هذه الاعمال غالبا ما تجعل القارىء في حيرة وهو يحاول فهم الرواية ، وتلمس معانيها الحقيقية وراء كل شخصية ، وكل موقف ، وكل كلمة في العمل الادبي .. وأسارع فأقول ان رمزية « الكابوس » على الرغم مما قد يكتنف بعض جوانبها من غموض تحمل دلالات فكرية ووجدانية معينة تمتد على مساحة زمنية محددة الابعاد ، واضحة المعالم ، مما يساعد القارىء العادي ـ الى حد ما ـ على اكتشاف الجوانب الاساسية في هذا العمل الروائي القصير ..

نحن لسنا ضد أساليب الرمز والايحاء على اعتبار انها مصدر غنى وثراء لاي عمل أدبي سواء كان شعرا أو قصة ، أو مسرحا ، بشرط أن تكون هناك ضرورة فنية مقنعة تلجىء الكاتب الى استخدامها. وبشرط ألا يتحول الرمز الى الاغراق في الغموض الذي يمكن القول بانه اصبح ظاهرة شائعة عند بعض الادباء .. ولعل أمين شنار وجد المبرر في ظاهرة الخطابة والتقرير التي تعيب أدب الجيل السابق من أدبائنا ، فاتجه الى استغلال الرمز الذي ربما كان أقدر على استيعاب تجربته الروائية وأكثر اتساقا مع طبيعة الشخصيات والمواقف والافكار التي أراد أن يجسدها في روايته هذه . والسؤال الآن : ماذا يريد الكاتب أن يقول لنا في « الكابوس » ؟ ثم الى أي حد استطاع أن يضع ما يريد قوله عبر الاطار الفني للرواية ؟

الكاتب أراد أن يقدم تقييما موضوعيا معينا من وجهة نظر معينة لعوامل نكسة الخامس من حزيران ، وهو لذلك يضع تجربة الهزيمة الكبرى على المشرحة ليحلل الاسباب والنتائج باسلوب مواجهة فكرية لانفسنا وللعالم .. أقول مواجهة فكرية .. لان أمين شنار أراد أن ينطلق في روايته من مقولة أساسية وواضحة يمكن أن تتلخص في عبارة : من هو المسؤول عن النكسة ؟ وهي تمثل قضية لا تزال تشغل الذهن وتؤرق الوجدان .. والرواية تشير بطريقة أو باخرى الى اننا جميعا مسؤولون عن الهزيمة ونقف في قفص الاتهام الى جانب المدانين الآخرين ، فلا تقل مسؤولية الجندي عن المثقف عن الرجل العادي ، والكاتب يفصل أفكاره عن قضية النكسة على شخصيات روايته بعد أن يلبس كل شخصية رداء الرمز الذي أعده لها .

يتوفى (نجم) شيخ القرية ليأتي شيخ آخر يحتل مكانه في ادارة شؤون القرية ، وهذا الشيخ الجديد لا احد يعرف له أصلا أو فصلا ويزعم انه يمثل (نجم) صاحب الضريح الجليل تحت التينة الشرقية ، وتثور التساؤلات على شفاه الاطفال : من هو ساكن جبل البخور ، لماذا لا يخرج الينا ؟.. لماذا نحن فقراء وهو غني ويملك من الارض أكثر مما نملك .. وهو شخص واحد ونحن مئات ؟ وفي كل مرة يسد الكبار الافواه الصغيرة مخافة أن يسمع خفراء الشيخ الكبير الخمسة وينقلوا الكلام اليه ..!!

ان الكاتب يضعنا منذ البداية أمام صورة الاستغلال والسيطرة الاجتماعية التي تمسك بيدها مقاليد الامور في بعض مواضع الحياة العربية ، وهو يضع هذه الصورة أمام جبن أهل البلدة وعجزهم وافتقارهم الى العنف والايجابية في سبيل التغيير ، فعلى الرغم من ذلك هم يقدسون الشيخ الكبير الذي لا يظهر الا في أيام المواسم ممتطيا جواده المطهم فتكاد القرية تجن من شدة الهتاف والتصفيق . ويتسلل الى القرية الخواجا موسى بائع الاقمشة الذي يتعامل معه الشيخ الكبير ، ويتضايق أبو ناجي صاحب الدكان الوحيد ويرى فيه منافسا له في تجارته فيحرض الاطفال على الاعتداء عليه والسخرية منه ، والخواجا يصرخ مفصحا في صراخه عن نوايا الغدر المبيت : « ملعون أنت وأبوك .. ساذبحك واذبح اباك » . ويقنع أبو ناجي أهالي القرية بأن الخواجا موسى يفسد اخلاق النساء .. ويشتم الجميع الخواجا في العلن ، وفي السر يعجبون به ، فهم منافقون جبناء على حد تعبير أبو درويش الرجل الكهل الوحيد الذي يعرف حقيقة الخواجا موسى وهدفه من دخول القرية ، فقد سمع الخواجا يقول للشيخ الكبير : « اذا انهدم الجبل بين قريتكم والعالم .. ودخل أولادي وأحفادي بيوتكم فسيكون لك المجد والسلطان جزاء عونك وتأييدك » . ولكن الناس لا يصدقون أبا درويش ويتهمونه بالجنون والخرف ، ويموت الرجل بعد أن يترك النبوءة لحفيده فرحات في مذكرات ، ولكن ماذا يفعل فرحات ؟ هل يحتج على الارهاب بمفرده ويدفع راسه ثمنا لذلك ؟ أم يتملقه ويعلن خضوعه له ولامبالاته به .. ان نفس فرحات تمتلىء بآمال التغيير وهو يرغب في أن يكمل رسالة الجد وأن يتحقق من نبوءته .. « الخواجات ازدادوا

---

(١) « بلند الحيدري » ـ بقلم : عبد الجبار عباس ـ مجلة « الآداب » ـ عدد الشعر الخاص ، ١٩٦٦ .

عددا كما ترى ، ولم يكتفوا ببيع القماش بل تسللوا الى شؤون القرية كلها » . بهذه الكلمات تضع الام ولدها فرحات أمام مسؤولياته ومصيره وتكون آخر كلماتها له : « لا تكن مثل أبيك ، واحترم ذكرى جدك » ... أبوه كان يحب الخواجات ويتعاون معهم ولكنهم تخلصوا منه في النهاية ... وهكذا يزيد الكاتب شخصية فرحات عمقا ويعطيها ابعادا معينة من خلال التفاصيل الجزئية في الرواية ، والوصول بها الى قمة الازمة عندما يكتشف فرحات العلاقات الانسانية الممزقة تحت وطأة العجز والسلبية والخوف ، فهو لا يكاد يجهر بافكاره وآماله في التغيير أمام صديقيه أحمد وهشام حتى يسلماه الى الخواجات الخفراء ليواجه الحبس في البئر الرهيبة التي مات فيها أبوه .. وسرعان ما يقع فرحات فريسة الارهاب والخوف ، فيرضى بان يعمل خفيرا ، بهدف أن يكتشف ما يدور في بيت الشيخ الكبير .. ويلوك الناس سمعته « جاسوس .. ابن جاسوس » . الناس يكتفون بالتفرج على الآخرين ونقد تصرفاتهم وعيوبهم ، والاجدر أن ينظروا بعيونمقلوبة لكي يتعرفوا على التشويه المفجع والندوب العميقة بداخلهم . لذلك فهو يصف أهل البلدة بالجبن والنفاق ويضربهم ويشتمهم في المقهى ويحثهم على الشعور بالمشاركة والمسؤولية جهدا وعملا من أجل تحرير القرية . السؤال لم يعد متى (نبدأ) وانما (كيف) . فرحات يعرف كيف .. لا بتغيير أو اسقاط الشيخ الكبير وطرد الخواجات الغرباء بل بتغيير الجوهر أولا .. بتغيير الانسان بالثورة لاجله او ضده اذا اقتضى الامر ..

ان شيخ الخفر يخبر فرحات بان الشيخ الكبير قد مات ويطلب اليه أن ينشر النبأ بين الناس وأن يوجه سخطهم ضد الخواجات ، ويغري الشاب بالمال والنساء والخمر ، ولكن فرحات يرفض كل هذا ويرفض أيضا أن يصدق خبر وفاة الشيخ الكبير ، وينخرط في بكاء مرير . وتاتي الحقيقة المدوخة على لسان شيخ الخفر : « هذا الذي كان هنا على جبل البخور شيخ آخر لا تعرفونه ولا يعرفكم . أنتم ترونه بوهمكم وهو لا يراكم أبدا .. متى تواجهون الحقيقة ؟ متى تستيقظون ؟ » . ويدرك فرحات المؤامرة المبيتة وراء كلام شيخالخفر وهي بمثابة اعلان ساعة الصفر لابادة أهالي القرية . ان الكاتب يعمق شخصية الشيخ الكبير من خلال أحداث الرواية ويفصح عن معنى الرمز الذي البسه لهذه الشخصية خلال الحوار المتأزم الذي يدور بين عصام وعلي وعوده ، زملاء فرحات . وأمين شنار يريد من هذا الحوار أن يطرح التناقضات الفكرية التي كانت قائمة بعد النكسة وهي تبرز في اتجاهين : الاول الدعوة الى الاخذ بالعلم والمعاصرة .. والاتجاه الثاني : العودة الى التراث والدين .

مما قاله أمين شنار لمجلة « حوار » عن دور المثقف العربي بعد الخامس من حزيران على أثر فوزه بالجائزة : « أزمة المثقف العربي أزمتان : ذاتية وخارجية ، أما الذاتية فأهم أغراضها الغربة والسلبية، وأما الخارجية فأهم عناصرها الوصاية والاهمال » . انه ـ ولا شك ـ الانفصام الحاد بين العقل والوجدان ، ولعل هذا ما ينعكس على شخصيات الرواية .. فالشخصيات متناقضة مع نفسها سواء في تصرفاتها أو في آرائها .. وهي تشعر بالتمزق في مواجهة تحديات اكبر من امكانياتها وقدراتها .. علي يرفض الوصاية الجبرية التي يمارسها الشيخ الكبير على أهل البلدة ولا يجد ضرورة لاخذ رأيه في الثورة ضد الخواجات » . الحقيقة ان الشيخ الكبير في حكم الميت .. حتى لو لم يمت » .. عوده يؤمن بأن الخلاص لا يكون الا عن طريق الشيخ الكبير وهو لذلك يستنكر رأي علي : « لست منا .. لا نريدك اذا انكرت الشيخ الكبير » .. هذا في حين يتخذ عصام موقفا وسطا بين علي وعوده : « لا يا علي ، نجم لم يمت ولا الشيخ الكبير لكني شخصيا أشك بأن لهما دورا في معركتنا المقبلة » . أما فرحات فهو يذهب الى أبعد من عوده في التعصب للشيخ الكبير : « هم ؟ أم نحن يا عوده .. هم أعداءه والمنتفعين بموته تريدهم أن يبثوا فيه القوة ؟ أم نحن أبناءه الذين لا حياة لهم الا بوجوده علينا ان نكون معه والى جانبه » .

ان عليا يمثل في الرواية صوت العقل الذي يخترق الحواجز والخرافات والاصنام ، ويحاول ان يقنعنا بانه يجب الانطلاق من نقطة الوعي العميق بالذات وبالواقع ، وهو لذلك لا يكف عن التهكم على الشيخ الكبير بقسوة ويقول لفرحات معاتبا : « يا فرحات .. يؤسفني أن تكون منشغل الذهن بهذه الترهات ، ماذا ؟ انسيت انك كنت معلما ؟ أتكون الخرافة زاد المعلم ؟ دع نجما والشيخ الكبير والتفت لمصلحتك » .

اما عن المعركة ضد الخواجات فان لعلي رأيا : « اية معركة ؟ نحن واهمون اذا تصورنا ان باستطاعتنا ان نطرد الغرباء ، فهم اقوى منا وأكثر علما وتجربة » . وعلي يرى ترك المسألة للزمن ، أما عصام فيؤمن بضرورة تنظيم أهالي القرية وتدريبهم في انتظار اللحظة الحاسمة . ان الخلاص هو التحدي الكبير الذي يواجههم جميعا ولكن الخلاص لا يبدأ من الخارج ، من الهواء بلا منطق ولا بداية ، وانما من الداخل بحل تناقضاتنا الذاتية ازاء عوامل الغربة والسلبية والوصاية والاهمال ـ على حد رأي الكاتب ـ وبذلك فقط يتحقق انتماء الانسان العربي الى تراثه والى عصره في آن واحد ومستوى واحد .. وينتفي ذلك الانفصام القائم بين عقله ووجدانه ، بين الكيان الروحي وكيان الامة ..

ان الاصدقاء في روايتنا هذه يحاول كل منهم أن يكتشف نفسه ويأخذ دوره ويحدد طريقه ، ولكن من مواقع فكرية ونفسية وروحية مختلفة .. وهو ما كان قائما في حركة حياتنا العربية قبل النكسة .. فلم تكن قد تحددت بعد ملامح الصورة التي تضم في اطارها المحافظة على الاصالة الى جانب الحرص على المعاصرة .. لم تكن الامة العربية بقادرة على خوض معركة البناء الداخلي ، بناء عقل الانسان مع معركة الصمود والبقاء في نفس الميدان . كان لا بد أن يشمل التغيير كل ما هو اساسي وعميق الجذور كشرط للتحرر والحياة .. أن يمس المضمون ، لا أن يقف عند حدود الشكل ، كان لا بد أن نكسر الغلاف القشري الذي يحيط أفكارنا ومواقفنا وحياتنا كلها .. ان الكاتب يزيد شعورنا بثقل التبعة والمسؤولية التي تقع على عواتقنا جميعا تجاه هزيمتنا الكبرى ، ويدين الذات العربية المحتجبة وراء ستار الوهم والخداع والادعاء . فمقدمات الهزيمة كانت تكمن في حياتنا العربية قبل الخامس من حزيران بسنوات .. هذه الحقيقة تصفعنا بعنف في حوار شيخ الخفر مع فرحات : « أترهم ضدنا بكل قوالك البلاغية ، حرضهم . خاطبهم بهذه العبارات الرنانة التي تزخر بها لغتكم ، فان تنادوا لحمل السلاح انتقاما لشيخهم الميت ولطردنا من حيث أتينا فان ذلك هو غاية المراد . مفهوم » . ويرد فرحات : « ـ لكننا يا سيدي فقراء أغبياء جبناء ، منافقون » . « ـ أعرف ، أعرف » . « ـ وأكثر من ذلك لم نعد نتقن الحرب الا اذا كانت بين حامولتين من حمائلنا الكثيرة » . « ـ وماذا بعد ؟ » . « ـ اخاف لو دعوتهم الى القتال أن يسخروا مني ثم يسلموني اليك ! » . « ـ بل سيرفعونك على الاكتاف ... الخ » .

من ذلك نرى ان رواية « الكابوس » تتسم بالرفض والنقد ولكن بعيدا عن الصراخ الحاد والعويل الذي اصطبغت به مئات القصائد والقصص والمسرحيات التي اندفعت الى التعبير والى ترجمة شحنة الالم بعد المحنة مباشرة .. ان مسؤولية ما حدث تقع علينا جميعا وبلا استثناء لاننا كنا نشيح بأوجهنا بعيدا عن رؤية ما هو قائم وعن اكتشاف أبعاد الواقع الذي أدى الى النكسة .. ويبدع الكاتب في الفصل العاشر والحادي عشر من الرواية في تجسيم الواقع المختلط والمشوه عنطريق استخدام الحلم والهذيان لكي يصور الشعور الساحق بعجز فرحات عن مواجهة الواقع .. ففرحات يلتقي ـ في الحلم ـ بالشيخ الكبير : « أنا ابنك .. أتيت ومعي الاهل والولد ، معي كل بيت وكل زقاق .. معي كل همسة وكل جرح . أتيت اليك أنقذك أعود بك الى أحفادك .. الينا فماذا أفعل ؟ » . ويعده الشيخ بان

يأتي الى مكان الاجتماع « ملتفا بعباءة القرون وبالذنب وبالتفكير ، اياك أن تبوح بالسر . اياك » . ونكتشف أن فرحات كان يحلم ويهذي في بيت دلدول فران القرية .. انه الذي يأتي ولا يأتي .. انتظار اللاشيء ، يعرب عن وعي الانسان بالغموض والعجز أمام قوى ما وراء الطبيعة ذات الاسماء المختلفة كالصدفة والقدر والمجهول.. هكذا يختلط الحلم بالواقع ، يصبح الحلم امتدادا للواقع خلال الصفحات الاخيرة من الرواية .. وهو ليس أسلوبا جديداً ولكنه ما زال طريقة للتعبير في الرواية الحديثة .. والكاتب يستغل هذا الاسلوب في تسجيل ذرات الافكار المتساقطة على عقل بطل روايته ويتبع عالمه الداخلي المليء بالهواجس والاحلام المكبوتة . ان نكبة الـ ٤٨ تمتزج بنكسة الـ ٦٧ مع فارق ان في الاولى وجدنا من نعلق في عنقه أجراس الهزيمة . أما في الثانية فالاجراس الصدئة تقرع داخل أدمغتنا ووجداناتنا فيما يشبه الدوار ، لذلك ينجح الكاتب في احياء جو الكوابيس والاحلام في الرواية . ان فرحات لم يعد يميز بين الواقع والحلم ، كل شيء مختلط متداخل ، انها صدمة الهزيمة التي لا تصدق يصورها الكاتب في لحظات السقوط الدامية في نهاية الرواية عندما يتحرك جبل البخود وينهار على القرية وكأن نبوءة الجد قد تحققت .

وينتشر الخواجات ، ويملأ الرعب أهالي القرية وكأنه يوم القيامة قد حل .. وتتحول القرية الى ركام من الحجارة والآدميين .. ان النصر الاسرائيلي المدوخ قد أصاب الفكر العربي بالذهول والحيرة .. ومع ذلك لم نخسر كل شيء . قال فرحات لعوده : « هل بقي لنا شيء بعد ؟» ويرد عوده : « كل شيء . بقينا نحن ، اذن فقد بقي كل شيء » . يقول عوده وهو يتأمل مع صديقه فرحات القرية المحترقة : انها اللحظات التي لم نعشها تجمعت فكانت غزوا » . ثم يستطرد قائلا : « يا فرحات ، الا تحس انك منذ الآن بدأت تحيا ، ترى بكل عينيك ، تسمع بكل أذنيك ، تتنفس بكل خلاياك ؟ يا فرحات هذا الذي حدث كان شيئا لا بد منه ، كان صرخة استغاثة من شيخنا الكبير الذي هجرناه .. الخ » .

وأنا أختلف مع الكاتب في أن ما حدث كان بسبب هجران الشيخ الكبير - هذا اذا لم يكن يعني نجما بالذات .. فليس في سياق الرواية ما يقنعنا بهذه النتيجة والا صح أن يكون ما حدث بسبب هجران (نجم) الذي يمثل صخرة المعتقدات الراسخة بالنسبة الى أهل القرية .. والا بماذا نفسر لجوء فرحات وعوده الى مقام « نجم » في نهاية الرواية على اعتبار انه الملاذ الروحي الاخير أو منطلق الاصالة بعد ان تحطمت القرية وانتهى كل شيء ؟! ثم عندما يقول عوده : « شيخنا الكبير هنا .. هنا في أعماقنا ولم يغب » . هذا القول يؤدي الى الغموض والتشويش في ذهن القارىء ، فكل مقدمات الرواية عن هذه الشخصية تشير الى انه يمثل الاستغلال أو بمعنى أصح الاحتلال القابع في خلايانا النفسية والاجتماعية والسياسية ، أو بكلمة أخرى يمثل الوجه الغريب المستعار الذي احتل مكان نجم .. ان شيخ أمين شنار لا يكاد يعطي المعنى الحقيقي الذي يرمز اليه في نهاية أحداث الرواية ، ولا أجد سببا واضحا لهذا التناقض بين الرمز ومعناه . هذا مع ان الكاتب قد نجح الى ابعد حد في أن يجعل الاحداث والشخصيات تتضافر جميعا على تعميق شخصية الشيخ الكبير وتجسيم ابعاده الرمزية في ذهن القارىء دون ان يبرز على مسرح الرواية .

ان الشيخ الكبير في رواية « الكابوس » يذكرني بنجمة كاتب ياسين من حيث انه يمثل المحور الرئيسي الذي تدور حوله الاحداث والمواقف والشخصيات ، وليس معنى هذا ان كاتبنا قد تأثر برواية كاتب ياسين ، ولكنها مجرد ملاحظة من الناحية الشكلية .. وملاحظة أخرى نذكرها حول الفصلين الثامن والتاسع فيما يتعلق بالمناقشة التي تدور بين الزملاء الاربعة ، فقد كنت أريد للكاتب ان ينتشل الحوار من الصبغة الفكرية التي تصل في اكثر الاحيان الى درجة التجريد ، مما جعل هذين الفصلين - وهما يمثلان منعطف التحول في احداث الرواية - يعانيان من برود ملحوظ ، فنحن لا نهتز مع وقع الاحداث بقدر ما نقرأ متابعة الكاتب لافكار شخصياته .. ثم عندما يبدأ بعض هذه الشخصيات في التحدد واكتساب ملامح المأساة الحقيقية يختفي دون مبرر فني أو موضوعي كما حدث بالنسبة الى شخصيتي علي وعصام ، على ان هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة رواية « الكابوس » كعمل أدبي يتصبب بعرق الكاتب ، وينبض بمعاناته واخلاصه .. ان الشاعر قد اتجه الى الرواية بعد أن وجد ان التجربة الشعرية قد لا تستوعب كل هموم المرء ، ولكي يرسم لنا لوحات شعرية حافلة باللمسات والصور بأسلوب القصة ..

انني أشد على يد امين شنار ، وأتمنى ان نقرأ له أعمالا روائية أخرى لا تقل روعة عن « الكابوس » .

محمد حسيب القاضي



ثلاثة كتب للمقاومة

تأليف : عرفات حجازي

***

التوسع الاسرائيلي وحرب المواجهة العربية ، المقاومة الفلسطينية ومراحل حرب التحرير الشعبية ، حرب العصابات البلغارية وحرب التحرير الفلسطينية . هذه الكتب الثلاثة صدرت حديثا للاستاذ عرفات حجازي ، رئيس تحرير جريدة « عمان المساء » الاردنية .

وللمؤلف ، بالاضافة الى هذه الكتب ، سلسلة التوعية الفلسطينية وتضم سبعة كتب .. وله خمسة كتب أخرى .

وسلسلة « كتب المقاومة » ستتناول بالدرس والبحث حركات المقاومة الفلسطينية والعربية والعالمية ، لنقف على حقيقة السلاح السري الذي يمكن ان تمتلكه الشعوب في نضالها للتحرر من الاحتلال الاجنبي والغزو الاستعماري .

في الكتاب الاول (التوسع الاسرائيلي وحرب المواجهة العربية) يتحدث المؤلف عن الحركة الصهيونية التي ظهرت في عام ١٨٩٧م كنتيجة حتمية للمشكلة اليهودية التي سادت اوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . أن الصهيونية حركة سرية لا تكشف عن اسرارها الا في وقت محدد .. فمثلا بروتوكولات حكماء صهيون التي وضعت عام ١٨٩٧، لم تنشر الا عام ١٩٠٥ . واذا كشفت اسرار الصهاينة فان زعماءها ينكرون هذه الاسرار . وجل اطماع الصهاينة هو تكوين (دولة اسرائيل الكبرى) .

وحكومة اسرائيل تنفذ الاوامر والخطط التي رسمت منذ اكثر من سبعين عاما ، والجنود الاسرائيليون مرغمون على دخول المعركة (انهم مقيدون بتنفيذ الخطة ، تماما بمثل القيد الذي كان يربط الجندي الاسرائيلي في دبابته المحروقة المدمرة في معركة الكرامة) .

والصهيونية بمراحلها الاربع ، قد حققت ثلاث مراحل للان ، وبقيت المرحلة الاخيرة ، وعلى ضوء نتائج المرحلة الاخيرة من مراحل الصهيونية يتقرر مصير الامة العربية ، اما ان تبقى ، واما ان تزول ، ومعنى بقاء الامة العربية هو القضاء على الحركة الصهيونية واطماعها .

والاعداء يحاولون كسب المعركة ، فتبنى رجال صهيون هذه الحركة ، ومن اشهر هؤلاء الرجال (هرتسل) صاحب كتاب (الدولة الاسرائيلية) ، وكان لهرتسل نشاط كبير في سبيل تحقيق اهداف الصهيونية . وبرتوكولات حكماء صهيون هي دستور الحركة الصهيونية العالمية . ومما جاء فيها : (لا بد من الملاحظة بان عدد الاشرار في العالم يفوق كثيرا عدد الابرار فيها .. ولهذا السبب نرى الحكم الارهابي يأتي بنتائج أفضل وأفيد مما يأتي به الحكم المبني على النقاش والجدل).

واطماع الصهيونية لا تقتصر على تكوين (دولة اسرائيل) في فلسطين وحسب ، بل يتعدى ذلك الى العراق وسوريا ولبنان حتى

المدينة المنورة .

ويبين الكاتب في خمس نقاط أسباب هزيمـــة العرب وانتصار (اسرائيل) . وملخص هذه النقاط : ان الامـــة العربية وقعت تحت ضغط الاستعمار لعدة قرون ، جهـــل الحقيقة للمخطط الصهيونـــي البعيد ، تجزئة الوطن العربي ، خداع الرأي العـــام العالمي بالاهداف التوسعية الصهيونية ، عدم تمكن الانسان العربي من وطنيته ، كما قـــال أحد المفكرين (ان الانسان العربي لا يحس بانه مواطن من الدرجة الاولى في وطنه) .

ويقرر المؤلف في نهاية كتابه ، بان لا انتصار للامـــة العربية الا بالوحدة . وعلى ذلك انبثقت الثورة التحررية فـــي صفوف الشعب الفلسطيني .

***

اذا كان كتاب (التوسع الاسرائيلي ..) ، يتحدث عـــن قبـــل حزيران ، ونتائج حرب حزيران ، فـــان الكتاب الثانـــي (المقاومـــة الفلسطينية ومراحل حرب التحرير الشعبية) ، يتحدث عن المرحلة التي جاءت بعد حرب حزيران . المرحلة التي فيها (انقلبت خرافة « الجيش الذي لا يقهر » الى حقيقة لا مجال لمناقشتها) . وانتقل الحديث عـــن الجرائم الفاشية الى الحديث عن المقاومة المسلحة للشعب الفلسطيني .

وهذا الكتاب حصيلة زيارة للمؤلف الـــى قواعد الفدائيين برفقة بعض الصحفيين الاجانب .

والاستاذ عرفات يجيب على سؤال كبير ينطبع في مخيلة الاجانب ، وهو : هل يستطيع الفدائيون الانتصار علـــى (جيش الدفاع الاسرائيلي الذي لا يقهر) ؟ ، لان الاجانب يقولون بان لعمل المقاومة اسبابا للنجاح، كأن يتوفر للمقاومة الارض التي منها تشتعل الثورة ، وان تكون هـــذه الارض جبلية وعرة ، او ان تكون الارض ذات غابات وادغال .

وقبل ان يجيب الكاتب على هذا السؤال يتصدى للوجه الاخـــر للصورة الى قوات الاحتلال . والمطلع على اخبار الارض المحتلة ، ومـــا يجري هناك يوقن بان الفدائيين اثبتوا وجودهم امام (الجيش الـــذي لا يقهـــر) .

ان انتصار اسرائيل على جيوش العرب أخمد شعلة الايمان فـــي قلوب العرب ، وأضحى الامل سرابا . الى (ان سمعت أول بلاغ يصدره الثوار الفلسطينيون من قلب الارض المحتلة ، واستمرت البلاغات تصدر وهي تعلن عن انتصارات تحققها على ــ الجيش الذي لا يقهر ــ الى ان جاءت معركة الكرامة في الحادي والعشرين من اذار عام ١٩٦٨ لتعلـــن عن اسوأ هزيمة تقع في الجيش الاسرائيلي) . وهـــذه المعركة قلبت الموازين ، وشع الامل من وراء أفق محشو بالغيوم . والتحمت القـــوى العسكرية على الارض العربية وخاصة بين الجيش الاردني والفدائيين .

والعمل الفدائي أخذ يحطم الثقة المتمكنة بين القاعدة والحكم فـــي اسرائيل قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، واخذ الشك يعتري هذه الثقة في اسرائيل .

ونعود للاجابة على السؤال الذي طرح قبل قليل وهـــو (هـــل يستطيع الفدائيون الانتصار على الجيش الاسرائيلي ؟) . يقول المؤلف ان (الشعب الفلسطيني اعطانا الدليل من تاريخ ثوراته الطويل بانـــه لا يقل بطولة عن الفيتكونغ والجزائريين) . ان الفدائيين اعطوا الدليل بوجود عنصر التضحية و (الاقبال على الموت) ، كمـــا وان للفدائيين الخبرة العسكرية والتدريب والعلم ، والدليل على ذلـــك الانتصارات الباهرة التي حققها الفدائيون في صراعهم مع الاعداء (اختطاف الطائرة البوينغ ٧٠٧ الى الجزائر ، قتل الكولونيل ريكيف الذي وصفه موشى دايان بانه في مرتبة القديسين لانه من الذين حققوا النصر في حـــرب حزيران ، وحادثة قتل قائد المظليين الذي كان ــ اول من رفع العلـــم الاسرائيلي على حائط المبكى ــ ونسف مستودعات الذخيرة فـــي جنوب تل أبيب ، ونسف مطار اللد ، وقصة قتل روبرت كنيدي الذي صرعـــه أحد الفلسطينيين وهو سرحان بشارة سرحان) .

ويتعرض الاستاذ حجازي للعقبات التي تواجه العمـــل الفدائي ، ويرد ذلك للظروف التي مر بها الشعب الفلسطيني ، كمعاناتـــه للتشرد والضياع ، وتعدد وتوزع العمل الفدائي حتى بلغ عدد المنظمات الفدائية ستا وثلاثين منظمة . ولكن هذا العدد انحسر الـــى خمس منظمات بعـــد عام واحد . (وما دامت حركة الفدائيين بـــدأت تسجل الانتصارات الصغيرة ، فلا شك ، وكما قال الجنرال جياب قائـــد جيش التحرير الفيتنامي ، بأن آلاف الانتصارات الصغيرة ستتحول الـــى الانتصار الكبير) .

***

والكتاب الثالث هو (حرب العصابات البلغارية وحرب التحريـــر الفلسطينية) .

لقد قام الاستاذ عرفات بزيارة رسمية لبلغاريا .. وهناك اطلع عن قرب على الصورة النضالية للشعب البلغاري حيث قرأ سطور ملحمـــة صمود وتضحية الشعب البلغاري على الطبيعة .

(في تاريخ الشعب البلغاري ثلاث ثورات شعبية توفرت فيها كانت في القرن الحادي عشر ضد بيزنطا ، والثانية في القرن الثامن عشر ضد الاتراك ، اما الثالثة فقد كانت في اوائل القرن العشرين ضد الفاشية).

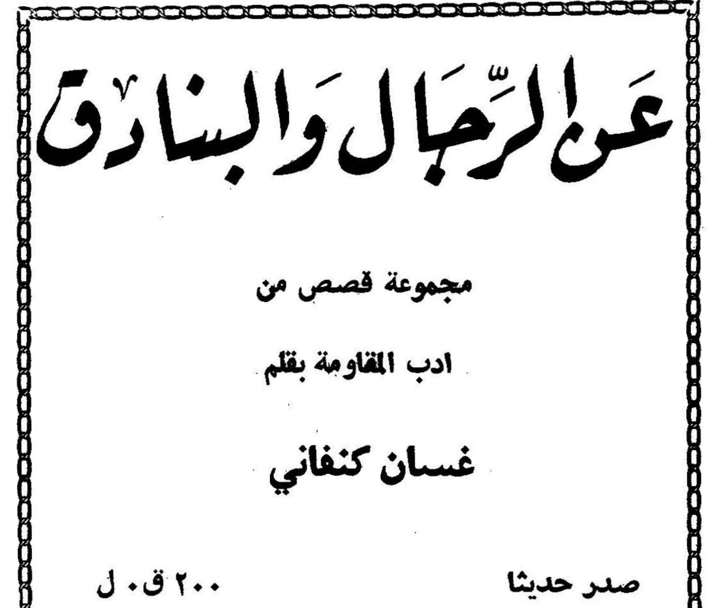
وقد قاسى الشعب البلغاري الامرين في نضاله ضد الاحتلال ، ففي عهد الحكم البيزنطي فقئت عيون الشعب ، لانهم طالبوا بحريتهم . وفي عهد الحكم التركي خسر ما يقارب ربع الشعب اراضيهم سداد الديـــون والضرائب للطبقة الاقطاعية ، وفي ظل الفاشيين تأخر الشعب البلغاري عن السير في طريق الحضارة وسقط الكثيرون لتروي دماؤهم شجـــرة الحرية .

وفي نهاية الكتاب يعقد الاستاذ حجازي مقارنة بين حرب التحرير البلغارية وحرب التحرير الفلسطينية .

اذا كان الشعب البلغاري استطاع ان ينال الحرية ، فان الشعب الفلسطيني يتتبع الاثر وهو بانتفاضته الرائعة سيحقق النصر .

(واذا كان شعار الثورة البلغارية : من يسقط مـــن أجل الحرية لا يموت ، فان الثورة الفلسطينية هي الاخرى قد اتخذت هـــذا الشعار لحركة نضالها منذ ان اعلنت الكفاح المسلح ، وهي أشد ايمانا بـــان من يسقط في المعركة من الحرية .. لا يموت ..) .

عمـــان الياس خليل جريس



صليب من الأزهار

- ١ -

على نسيم نور شارع القمر
أبحرت يا حبيبتي
حملت زاد دربي الطويل
أغنية حروفها غصون
رسمتها ، فوق المياه
عرّيتها ، حتى المقاطع الاخيره
حمامة ووردة حمراء
تطل من بعيد
على شباك ضوء نجمه
وحيدة جوادها الادهم
ينام في غمائم الغدير
والساحر الذي يطير
على عصاه يقطع الجبال والبحار
قد شاء أن يهمَّ بالحريق
أن ينفث الدخان في حدائق المحار
لكنما أمير الليل حارس الطريق
قد جاء راكبا جواده الجسور
على جناح سيفه البتّار
أغنيّتي ، حتى المقاطع الاخيره
عريّتها ، رسمتها فوق المياه
حمامة ووردة حمراء

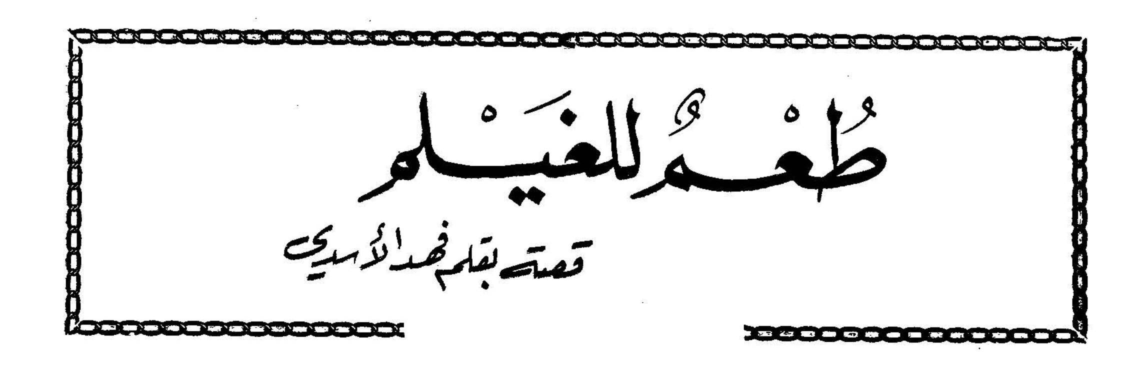
- ٢ -

أغنيّتي عريانه
في كأس البلور
في زهر الليمون
لو المسها
لو تلمسني ونطير
تحت مظلة نور
ولد العام العشرون
ولدتْ تحت سعال الريح
عينان من البحر الابيض
من عظم الصخر المسنون
من ملح الماء المنثور على الدم ريشة عصفور
سقطت فوق صليب الازهار
يبكي الماء الاسود تحت جروح
عينيْ مصباحٍ مكسور
ولدتْ أشواق العام العشرين
والكلب المسعور
يشرب شهد حليب الكرم المغصوب
والخنجر حتى المقبض مغروس
في صدر الناطور
أغنيّتي عريانه
في كأس البلور
في زهر الليمون
لو المسها
لو تلمسني ونطير
تحت مظلة نور

- ٣ -

صديقيَ الوحيد
« خطان من دموع »
وأسمع الغناء في هزيع
ليلاتنا الوحيده
في الغرفة التي كانت تضم همسنا
وحينما كان النسيم
من آخر البلاد فوق أفقنا المشئوم
يحنو على دمعاتنا
قد كنتَ لي
زنار ورد
علقته على جراح بحرنا البعيد
طرزّته على شعاع دمعةٍ خضيبه
حفرته على غدير غصن طائرٍ مسافر
على رياح قبلة الازهارِ ،
في جناح
أوراق توت دارنا المغصوبه
وفي كؤوس الشمس كنت أشرب الاعناب
ومن نهود داليه
على سطوح تلةٍ بلا ضباب
جمعت شهد أغنياتي البيض
عنقود ماس
وكنتَ لي
وكنت يا صديقيَ الوحيد طائر
عيناه في ثلوج غابتي قنديل
وكنت أجمع الازهار ، والغناء في هديل
فراشة حزينة تسيل
على سحائب المساء
وقطرة الضياء
تهم بالبكاء حينما يكف شارع الايام
يهمي على قيثارة الحنين للاقدام
ويهبط الظلام ، والاجراس
تضيىء في براعم التلال
ومن بعيد
تلوحان لي ،
وتلمعان في نسائم الزلزال
عيناك يا صديقي الوحيد
... ...

موسكو — **شوقي العمري**



في بلدة جنوبية تولد مئات القصص اخـوات للحكاية هذه .. ورغم ان تلك البلدة الصغيرة تكاد أن تخنقها الاهـوار الا ان الـدودة المتطورة المفكرة مضطرة للعيش ..

والناس هناك فريقان : أحدهما يزحف صعودا مجتازا السـلالم الاولى في وضع يسمح له بأن يبيع للناس ، ويشتري الناس ويسخر منهم ـ او قل يحتقرهم لانهم في الدرجات الواطئة .. وثانيهما وهـم الغالبية والعيش بالنسبة لهم صراع مـع هور يفتح فاه كالوحش لتنتزع منه اللقمة .. والوحش غني بقصب مشاع للجميع أحرار فـي أن يقطعوه ساعة شاءوا ..

ولكن لتلك الحرية حدودا تصطـدم عندما يأخذ الحرفيـون « البواري » (1) ألى حوانيت تجار ألبواري ليعودوا بالطحين والشاي وليسجل ما يتبقى عليهم دينا يتضاعف رأس الشهر ان لم يسدد ..!

والامور تسير نحو الاحسن مـع الحاج عبد الرزاق ، فالدوب الضخمة والسفن النهرية تحبل كل يوم في مشرعته لتجهض أحمالهـا في بغداد ، والعملية لا تستلزم الجهد ، فالهور ينبت كل عام ، وعمال البواري لا بد أن يطعموا الاطفال بالطحين ..

وفوق ذلك ـ والحق يقال ـ فالحاج بلحيته التي تغزوها الفضة رجل عاقل لا يحب اثارة المشاكل مع المتعاملين ، ففي المرات التي يرى فيها ابنه سعيدا يحتد في النقاش مع عمال البواري حول خطأ فـي الدفتر ، كان لا يثور بهم كما يفعل الآخرون ، بل كان يحاول اطفـاء السخونة ببرودة أعصابه ..

كان يكفيه القول :

ـ والله وحجتي نحن لا نخطىء معكم الحساب . هـل من المعقول أن نسرقكم ؟.. ما قيمة الواحد والاثنين ؟

أمام ذلك الهدوء ، ورغبة العامل في ألا يجوع الاطفال من جديد ، كانت عناقيد الغضب تنفرط ، وتستمـر الارقام تتحدث برطانة لا تصدق .. رطانة لا يملك الناس حيالها سوى أن يبتسمـوا ببله أو تسليم ويبصبصوا من أجل العظمة ..

وذات يوم سخن نقاش لا مجد بين اثنين . قال الاول بصـوت أشبه بالهمس :

ـ والله هذا الدفتر يمتلىء غشا . هؤلاء لا يخافون الله !

ويصرخ الآخر :

ـ عمي . لا تقل ذلك .. هذا حاج شاف بيت الله .. معقـولة يسرق منك ؟

وتضيع الهمهمات وسط هدير الطلاء .. الحاج لا ينسى سنـة أن يقيم مجلسا للعزاء عندما تـدق الايام العشرة . وهو يتبرع لمشروع الشتاء ، ورغم أن ذلك يجيء بعد أمر ملحاح من الحكومة فانه يدفـع على كل حال .. وصحيح ان ثمة بعض الهنات التي أثارتها مشكلته مع « جبير » الا انه استطاع أن يقنع المعاتبين بأن الدين قد مرت عليـه ثلاث سنوات كافية لان ينفذ منه الصبر ، فيضطر للشكاية ثم اجراءات الحجز . ومع ذلك فقد وجد منافسوه من الطبقة في هذه القضيـة متنفسا للتعريض في أخلاق الحاج عبد الرزاق .

كان جبير واحدا من الصنف الثاني أقلعت به الحاجة ، فوقفت سفينته بباب الحاج . هتف بذل :

ـ أيها الحاج أطفالي يجوعون ، والمروءة لا تقبل ..

ـ لماذا لا تشتغل ؟

ـ ولكن أيها الحاج كيف أشتغـل ، ولا زورق عندي أذهب بـه للهـور ؟

ويصمت الحاج طويلا .. ثم يرق منه القلب ، فيبيع زورقـا انتزعه من مدين لم يسدد له قبلا .. وتفتح صفحة في الدفتر الكبير باسم جبير .

وتمضي الايام وجبير في حيرة ، فما يجلبه من الهور لا يسـد سوى العيش . استطاع أن يسدد دينارين من الستة ، ولكن بعد مضي شهور وجد انه غير لاحـق بربا « الحاج » مهما جذف . الـزورق استهلك قوته ، ولكن الثمن لا يزال متطـاولا كغول يسد عليه دروب الطمأنينة وحفظ ماء الوجه .

وفي يوم فجأه الحجز :

ـ ولكن ما الذي تحجزون عليه ؟.. هاكم هذه الخربة .

واضطر جبير لان يختفي وعائلته ملتفعين بالظلام متجهين الـى البصرة .. وحسب منطق تجار البواري فلا تزال قيمه زورق جبيـر تربو كشيء له ديمومة لا تطولها يد البلى !!

***

وحكاية جبير تعاد في كل مجلس ويسمعها « طالب » أو بالاصدق « طويلب » اذ هكذا كانت تلذ للناس تسميته ، فهو ابن حمود نـوتي السراي القديم ، وتسميته ابنه « طالبا » أمر ليس بالمستساغ ويعده الناس شيئا كبيرا عليه يدل على التخطي والمطاولة !

وكان هذا « الطويلب » ميـالا للمشاكسة واللهو ، استنفـد سبعة عشر عاما وهو لا يفارق الاطفال .

كان يلذ له أن يصطاد السلاحف والغيالم ثم يرميها بالنهـر . وفي يوم وبعد سماعه حكاية جبير رمى صنارتيـه فاصطاد غيلمين ، وبطريقة غلمانية قاسية أدخل مسمارين كبيرين في رأسيهما وأخـرج طرفي المسمارين في وضع لا يسمح للغيلم بأن يدخل رأسه في ترسه.. ثم رماهما في النهر . وبقي الغيلمان يصطدمان في الجرف بطريقة تثير الضحك كثملين أفرطا في الشراب .

كان المنظر قد أثار بعض الحاضرين ، فأنبوا طالبا على فعلته .. لكنه مع كل تأنيب كان يجيب :

---

(1) البواري : حصران القصب .

- دعوني معهم ! انتم لا تدرون كم تضر الفيالم العباد .. يكفي أن يعضك أحدها ثم لا ينصرف الا ويقلع اللحم الذي عضه ..!

بعد ذلك وجد طالب في مشاكسة الحاج عبد الرزاق لذة فائقة تنسيه متاعب بطالته ، فكان يكيد للحاج مكائد ويوقعه في مطبات كافية لتسد رغبات التشفي في نفوس منافسيه من التجار .. ولكن للحاج طريقة في أن يسد خروق أذنيه عن الالتفات لهذه الامور الصبيانية حتى وانه لم يكلف نفسه مشقة التعرف على من يرتب عليه تلك « المقالب » ..

ومرة ، وحين كان الحاج في المعمل ، رن جرس الهاتف :

- هلو .. من ؟

- . . . . .

وتختلج شفتا الحاج . وترتجف يداه ، ثم تسعفه السماء بالفرج :

- أهلا بك .. أهلا بسعادتكم .

وبدون أن يتلقى جوابا يستمر بالترحيب والاعتذار عن غير ذنب .. ثم يسمعه الهاتف أمرا فيه ملامح الصرامة ، فيهتف بذل :

- نعم بك .. نحن بالخدمة . تشرفنا ..

ساعتها يطفح وجه الحاج بانفعالات متناقضة .. وتجيء الفرحة مثلومة ، اذ ان الغداء لموظف كبير ليس بالامر الهين ، وان كان شرفا لا يطمع به الا القليلون . وعندما يناقش موضوع هذه الزيارة مع سعيد يضع الحاج نير المهمة على عاتقه ، اذ ان سعيدا من الجيل المتحضر نوعا ما العارف بمتطلبات مائدة تحظى بمثل هذا الشرف . لقد كان الحاج خبيرا ، فهو يعي انه من أجل الاحتفاظ بأحسن المواقع تنبغي التضحية بكميات من العتاد .. صحيح ان خطواته لا تثير الغبار الا ان ثمة بعض الفجوات - فكر الحاج بذلك ساعتئذ - قد تتسرب منها رائحة ليست في صالحه ..

لذا فقد كان الحاج مضطرا للعودة مبكرا للبيت ذابحا عادته الحبيبة على شرف اللقاء !

وعندما وصل المدير كانت « الصورة » تامة في ذهن الحاج ، لذا فقد جرت مراسم الاستقبال مثلما يليق « بسعادته » رحب الحاج كثيرا بالصورة من غير تحديق بالشكل وردد العبارات التي استحضرها في مخيلته عدة مرات . فكر : آه لو رآني سعيد وأنا أصافح سعادته لفخر بأبيه وعرف : كيف يجب أن تؤكل الكتف !

في الدار كان « الفرخ » قد أجاد المهمة وتأكد للحاج من ان مخاوفه من هذه الزيارة المفاجئة ستذوب حتما ، ولكن مما يؤسيه حقا هو ان سعيدا قد اعتاد الافراط ، فالطعام يكفي العشرين ، وليس هناك غير واحد .

وعندما أعدت المائدة كان الحاج قد كلف ابنه في دعوة الضيف لغرفة الطعام مشاركة في الشرف . وحين دلف سعيد في الغرفة كانت هيأة الجالس بالقبعة والرباط تتناقض مع الوجه المألوف .

حدق سعيد في الوجه طويلا ، ثم صرخ :

- ولكن يا والدي . هذا طويلب ابن النوتي !

وقبل أن يفيق المدهوشان كان طالب قد انسحب راسما على شفتيه ابتسامة التشفي والنصر ..

كان صوت داخله يردد : لقد وفيت دين جبير .

بغداد — فهد الاسدي

السينما العربية في الطريق ؟

ملاحظات نقدية من أجل خطوة عملية

بقلم نبيل صايغ

هل تمكن معالجة علاقة السينما العربية بالثورة الفدائية والقضية الفلسطينية، دون فهم « الارضية » و « الاسس » التي تقوم عليها السينما العربية من ناحية والثورة الفدائية من ناحية اخرى ؟ لا اظن. والا وقعنا في براثن حديث عام واسع عاطفي ينتهي بقولنا بانه يجب على السينما العربية ان تتناول موضوع العمل الفدائي وتعرض قضية فلسطين امام الرأي العام العربي والعالمي .. و .. الخ .. الخ.

ان هذه « النهاية » التي تخيلتها تنتج عن بحث يخشى الوقوع فيه، انما نسمعها تتردد، ليس فقط كنهاية، وانما، كبرهان وكمقدمة وكنتيجة. سواء فيما يتعلق بالسينما العربية أو ببقية وسائل التبليغ العامة والخاصة الاخرى. وهذا ليس مسيئا في حد ذاته، فهو، بالنسبة لهذه الفترة وما قبلها يمنع امالنا، على الاقل، من السقوط في هاوية القنوط، وان كان – بتعللنا بهذه الامال – يعيقنا عن تطويرها الى عمل واقعي ملموس. فالسكين ذو حدين اذن. لكن وعينا بالقضية – بحديها – وبكل امتداداتها واطرها، كفيل بجعلنا نمسك السكين من مقبضها لنستعمل الحدين في الوقت نفسه.

وكما اشرت، فان ما يصلح أن نقوله عن السينما العربية (ليس فقط في علاقتها مع القضية الفلسطينية، بل في علاقتها بوضعنا الحضاري بشكل عام) يصلح أيضا بالنسبة لباقي الفنون والاداب، غير انه في السينما يأخذ طابعا اكثر شمولا واكثر تخصيصية في الوقت نفسه، وذلك نظرا للطابع الشمولي والتخصيصي للسينما بشكل عام.

ولنرجع الان الى طرفي سؤالنا الاول : فهم الارضية والاسس التي تقوم عليها السينما العربية والثورة الفدائية. وساحاول هنا عرض بعض الجوانب لقضايا السينما العربية (على شكل ملاحظات موزعة) ، تاركا عرض اسس الثورة الفدائية (بشكل مفصل وكامل) لما قد قيل وما سيقال في هذا العدد من « الاداب ». فانا منذ تفكيري بالموضوع، لم اطمح مطلقا للقيام ببحث شامل متكامل : نظرا لضخامة الموضوع في كلا طرفيه.

فما يهمني هنا اذن – بصورة اساسية – انما هو القاء الاضواء على جانب مهمل في حياتنا الفكرية، وهو السينما العربية، واعود لاخصص، ليس السينما العربية في كل جوانبها – فهذا ليس مجال حديثنا الان كما انه ليس بالحديث القصير – بل الجوانب التي تتعلق، بشكل او باخر، بقضية ملحة، الا وهي قضية العمل الفدائي.

***

١ – هناك ناحية مهمة ارى انها كانت من الاسباب التي « ابعدت » الفكر العربي عن القضية الفلسطينية في ما قبل حزيران (وهنا تجدر الاشارة الى ان القضية تكمن ايضا في تناوب العلاقة والمسؤولية بين « الابعاد » و « الابتعاد ») وهي ان العرب كانوا ينظرون لاسرائيل نظرة ميتافيزيكية، وذلك رغم التصاقها الجغرافي بنا (ورغم كون القضية الناشئة عن اغتصابها ارضنا، تشكل محورا لحياتنا السياسية وغيرها) ، وقد تولدت هذه النظرة كردة فعل وكصدمة على حدة الاقحام التي وجدت معها اسرائيل على ارضنا. وهذه النظرة وان كانت طبيعية وضرورية في الايام الاولى، قد اصبحت عاملا معيقا عن مجابهة الواقع بصورة عملية شاملة (وليس كردود فعل عاطفية وان كانت احيانا مسلحة). واقول هذا رغم كل « الفوائد » التي عادت بها هذه النظرة، والتي كان من اهمها تجميد حالة النقمة ضد هذا الجسم الغريب الذي اقتحم علينا الشرايين. « نفع » : اذا نظرنا ما كان يمكنه ان يكون، لكن « ضرر » اذا نظرنا لما كان يجب ان يكون.

وقبل ان يساء فهمي، اعود لاوضح معنى بعض ما اردته بالنظرة الميتافيزيكية : لقد كنا ننظر لاسرائيل على اساس انها كابوس ثقيل حل بنا وانه سيزول، سيزول ولا يهم كيف ومتى واين. وان تساؤلات واجابات جزئية من هذا النوع كانت تتردد ولكنها كانت جزئية. ونتيجة لهذا فان نظرة واضحة، او على الاقل، شبه واضحة للامور كانت مفقودة لدينا. وحتى ساعة الاشتباكات والمواجهات المباشرة – المسلحة، او غير المسلحة – كانت توحي بنوع من ذاك الفهم الميتافيزيكي للجانب المعادي : لقد كانت نوعا من « مجابهة الاشباح » – كما كان يحدث ايام زمان – : هناك اقتناع، هناك مجابهة، لكن ليس هناك نظرة واضحة عميقة تنطلق من معطيات مستوعبة كليا لنواجهها بصورة كلية حازمة.

ولم يكن لصدمة مثل صدمة حزيران، الا ان تهز اعماق الضمير العربي .. ان تخضه وتعريه امام نفسه، وهنا ارى ان من الصعب تحديد نوعية الموقف الذي بدأنا باتخاذه – في علاقته مع موقفنا السابق – ، الا انه – بصورة اكيدة – قد بدأ في التغير، وان كنا لم نصل بعد الى نظرة هندسية (وربما ليست هناك ضرورة في الوصول) ينطلق منها رد فعل واع عزوم.

٢ – ولعله من المفيد ان نضيف، الى ما قيل عن قضية ابتعاد الفكر العربي عن قضية فلسطين (1) ، بأن ذاك الابتعاد كان ابتعادا جوهريا اي ليس ابتعادا شكليا، فمن المعالجات والتناولات « السطحية » للقضية، لدينا الاف الامثلة.

أ – لكن الفكر العربي لم « يتمكن » – حتى الان – من الاحاطة – عمقا وشمولا – بابعاد القضية التاريخية، وذلك في الماضي والحاضر والمستقبل، بل اقتصر على معالجة « فكرية » ، او اقتصر على طرح « فكري » للمعطيات التي قدمتها وسائل الاعلام العربية (والتي ما هي الا تعبير عن الفهم الميتافيزيكي من ناحية والردة العاطفية من ناحية اخرى، اي تعبير عن مجابهة الاشباح، باختصار).

ب – لكن الاقتصار على ذاك الطرح كان اقتصاراً مكعبا، اي ان ذاك الطرح ايضا كان مقتصرا على ردة الفعل المضادة لما تطرحه – او لما تفعله – القوى المعادية، وهنا لا اريد الاشارة الى انه كان من الضروري اتخاذ موقف الهجوم بدل موقف الدفاع او الهجوم المضاد – في احسن الحالات – بل اردت الاشارة الى اهمية اتخاذ موقف متكامل تنبع عنه كافة مواقف الهجوم والدفاع (وهنا يحضرني مثال الثورة الجزائرية والفيتنامية). ومن البديهي ان يكون طابعا من طوابع هذا الاقتصار – وسببا من اسبابه، في الوقت نفسه – جزئية النظرة للامور، جزئية لم يكن بالامكان الخروج منها، وجزئية ما زلنا نعاني من بعض امورها حتى اليوم.

(1) وقد قرأت نقد الاستاذ عبد الجليل حسن في عدد « الاداب » الاول لهذا العام، لمقال الاستاذ عطية في العدد الاسبق، حول المواجهة الادبية لقضية فلسطين. وارى انهما – بشكل او باخر – متكاملان صحيحان، ولا يكمن بينهما اي تناقض.

ج - لكن هذا لا يعود الى « ذنب » الفكر العربي فقط ، بل (اضافة الى ما تكلمت عنه من علاقة التناوب بين الابعاد والابتعاد) يعود ايضا الى « طبيعة » الفكر العربي في علاقته مع ما يفرض عليه من قبلنا اليوم من وسائل معالجة للامور لا يمكنها ان تتفق مع تلك « الطبيعة » . وللتوضيح اقول : ان تأليف دراما في الغرب انما هو شيء « سهل » و « طبيعي » (ولندع جانبا الفترة المعاصرة) ، لكن تأليف دراما عندنا ، يتنافى - كيفيا - مع طبيعة نظرتنا للكون والفكر والادب ، فضلا عن كونه يتنافى - عمليا - مع كل ما صدر عنا من تعبيرات عن تلك النظرة (وأورد الفكرة الثانية لعلاقتها مع الاولى ، اي لكونها نتيجة وليس شرطا) . وبهذا اريد التنويه بـ « ضرورة » نزع عقد النقص او - على الاقل - قلة الثقة بطبيعتنا وتعبيراتها . ولنا في ظهور امثلة تناقض - من حيث كونها تعبيرا اصيلا عن قيم مختلفة - الطبيعة الغربية وتعبيراتها - رغم سيادة قيم حضاراتها - ، اكبر « مشجع » على « ضرورة » العودة للذات . لكن هذه المرة (١) مسلحين بكل ما اكتسبناه سواء في طريق ابتعادنا ام في طريق عودتنا.

د - وبعد تشعب القضية - رغم قلة التوضيحات - اعود للفكرة الاولى . فمشكلة ابتعاد الفكر العربي عن القضية الفلسطينية (مرة اخرى ، بعيدا عن مسؤولية الطابع الذي ظهرت لنا به تلك القضية ، اي الطابع الميتافيزيكي ، انما هي مسؤولية دائرية تشمل ذاك الطابع وذاك الفكر) ليست هي مشكلة محتوى وحسب ، بل مشكلة صيغة وشكل ايضا (ليس - طبعا - من حيث ان المحتوى والشكل شيئان مختلفان بل من حيث انهما شيئان متكاملان ، كل منهما يسبب الاخر وينتج عنه) . فنحن ما زلنا نعالج قضايانا « باساليب » الاخرين (والقضية هنا معقدة ، واختصارا اقول ، باننا لا نعالج قضايانا باساليب الاخرين في شكل تلك الاساليب فقط ، بل في مضامينها ايضا . فنحن لا نصور فيلما فقط - وهذا شكل اسلوب ، وليس فيه عيب - بل نصور فيلما بمحتوى الاسلوب الغربي ، ولذلك فان محتوانا ينتج مشوها ممسوخا داخل محتوى ذلك الاسلوب . ان هذا ليشبه قطف الورود بمنجل السنابل او البرتقال بعصا الزيتون . (وقد اخذت السينما على سبيل المثال فقط) ، ولذلك - من ضمن اسباب اخرى - فهي معالجة مشوهة من حيث انها تأتينا بنتائج غير متكاملة وغير فعالة . وامضي فاقول بأننا نفرض اساليب على محتويات لا تقبل ان تتقولب على تلك الاساليب بدلا من ان نبدع اساليب تتفق مع تلك المحتويات ، من حيث انها تنبع منها وتسببها (٢) . (ويمكن تطبيق هذا على النحت والتصوير والسينما والرواية والمسرحية والبحث والنقد .. الخ.. من جهة ، والشعر والموسيقى و « الفكر » والعمارة .. الخ.. من جهة اخرى ، وآمل توضيح هذا في المستقبل) .

انها مشكلة البحث عن الذات قبل كل شيء ، بحيث يتضح سواء في عملية الابتعاد ام في محاولات العودة . ولعل من الطريف الكشف في هذه العلاقة الجدلية عن مرحلة « تحليلية » (من حيث هي عكس تركيبية) كاملة من تاريخنا الفكري والسياسي .. الخ.. اي الحضاري - باختصار - (٣) .

هـ - ان بالامكان - بكل ارتياح - الوصول الى ان « الوضوح الفكري » حتى الان - سواء بشكل عام او فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية - انما هو « وضوح ادبي » - اذا صح التعبير - اكثر من كونه وضوحا فكريا . اي انه وضوح في « شكل » الفكر وليس في مضمونه : انه تكيس وكفى (٤) .

***

وبعد « توضيحات » رأيت انه من الواجب التكلم فيها ، لعلاقتها المباشرة او غير المباشرة بالموضوع ، اعود للسينما . والحديث هنا ليس اقل تقصيرا ، بل ، على العكس ، ونظرا لاشتباكه المتكامل بما سبق ، فهو اكثر تعقيدا ... فالى التعقيدات الاولى تضاف تعقيداته الخاصة. وعلى كل فهدفنا هنا هو القاء بعض الاضواء والبدء - بشكل او باخر - بمعالجة موضوع هام .

١ - لقد كانت علاقة السينما عندنا - حتى الان - علاقة « رسمية » مع الادب والفكر : علاقة سطحية . فقد اقتصرت - حتى عند التقائها بالادب - على الاخذ السطحي ، مع الابتلاع دون الهضم ودون التمثل . انها - في حالة علاقتها بالادب - تنتفخ فيه دون ان يكون هو لها عاملا حيويا مغذيا موحدا معها ، والمسؤولية - مرة اخرى - مشتركة طبعا ، وتلقى عليهما على التناوب .

واقول هذا كجسر يصل هذا الشق بالشق الذي تكلمت عنه وتناولت فيه الفكر العربي في علاقته مع القضية الفلسطينية والواقع العربي .

٢ - لقد قرأت عن اتهامات كثيرة - غير مسؤولة في غالبها - وجهت الى السينما العربية لانها لم تعالج ولم تتناول قضية فلسطين . وانا هنا ازيد بأنها - اي السينما العربية - لم تتناول - في نسبة ظاهرة - اية قضية قومية . فحتى ايام ثورة الجزائر او ايام معركة بورسعيد - ان لم نتكلم عن حرب الـ ٤٨ - لم نر سوى بضعة افلام لم يكن لكل الاحداث التي جرت آنئذ اي اثر فعال في جعلها تغير من طريقة معالجتها للامور وتتفق مع « جدية » الحدث لتقدم عملا متكاملا يمكنه اقناعنا . بل انها لم تحاول - اصلا - ان تقدم - بغض النظر عن النوعية وبغض النظر عن اسباب ذلك - افلاما عن الموضوع بنسبة معقولة .

وانا هنا لا اود الاتهام ولا الدفاع - فكلاهما موقفان لامسؤولان - لكن ، وكما اسلفت ، ابراز القضية في اساسها . فالصحفي او الناقد الذي يتهم او يدافع عن السينما العربية مسؤول مسؤولية السينمائي العربي في ما يتعلق بموضوع الهجوم او الدفاع . اي ان المسؤولية شاملة وتتناول كل فرد كما تتناول المجموع .

٣ - وقد يبدو - بعد - هذا - ان من العبث التحدث عن السينما العربية فيما يتعلق بهذا الموضوع ، لكونها مرتبطة كليا بالفكر العربي ولها معه علاقة دائرية في علاقته الدائرية ايضا مع الواقع العربي ذي العلاقة الدائرية - مرة ثالثة - مع القضية الفلسطينية (وارجو الا

---

(١) اقول هذا وانا على اتم الوعي بما عبر عنه بصدق الدكتور عبد الدايم في عدد يناير من « الاداب » : (.. وامام المحنة التي جرت اليها العقلية المتكلة على ما قد تجود به الاحداث من اعاجيب ، يكادون يشهرون من جديد كرة اخرى روح الامل الضبابي ، او اليأس الجاهل . مرة اخرى نكاد نداوي الداء بالداء : لقد قادنا الى ما عرفنا تعلقنا الواهم بقوى غير منظورة وجنود ...) .

(٢) ويبقى اوضح مثال على هذا كله مثال الشعر العربي ، ففيه نستطيع ان نميز بوضوح العلاقة المتشابكة بين الماضي والحاضر من جهة ، وبيننا - مجتمعين - مع التقاليد والابداعات الشعرية العالمية ، من جهة اخرى ، ثم بين هذا كله وبين الواقع الحضاري الذي نحياه . كلها علاقات توضح اهمية تكامل ووحدة الشكل والمضمون ، سواء في شكل ومضمون الشكل او في شكل ومضمون المضمون . وفي مقارنتنا الواعية بين شاعر معاصر - ويحضرني مثال الدكتور الحاوي - وشاعر كلاسيكي اصيل ، مقارنة نسبية ومتناوبة اي تفهم كل واحد منهما كثمرة للحظة حضارية مختلفة ولكن كثمرة - ايضا - لفطرة واحدة ، نستطيع ان نرى اي تشابه - واية عظمة في ذاك التشابه - يكمن بينهما . (ان كان هذا لا يعني ان الشعر العربي المعاصر قد بلغ اوج نضجه) .

(٣) ويبقى ما قلته في هاتين الفقرتين الاخيرتين ملاحظة على الماضي ، لكن امام المستقبل ايضا . ان كان لا يمكن اعتباره عقبة لا بد من تجاوزها : فهي روح تكتسب خلال الطريق . وتبقى علاقة الفقرتين بالبحث علاقة غير مباشرة وذات اهمية ثانوية وان كانت اساسية .

(٤) وربما خطر للبعض هنا العودة الى طبيعة الفكر العربي في ماضيه وفي ماهيته ، لكن هذا لا يبرر شيئا فالامور مختلفة . وعلى كل فهذا بحث اخر .

يفهم من كلامي هذا الاشارة الى انعدام مخرج للامر ، بل العكس بصورة تامة) ، اقول انه قد يبدو من العبث ذلك ان كنت لا ارى هذا ، من حيث ان القضية في السينما تتضاعف ، فيما يتعلق بالميتافيزيكية مثلا ، نرى بانه اذا ما كان من الصعب على الادب والنقد – بشكل عام، وفيما سبق – تناول القضية بوضوح ، فانه من المستحيل على السينما – وهي فن الصورة – ان تتناول«افكارا وتصورات ميتافيزيكية» لتحولها الى صور . انها بحاجة « لوقائع » (٥) تقدمها . اذا كنت قد شرحت سابقا بعض ما اردت قوله بالميتافيزيكية ، فارى انه علي شرح ما اريد قوله « بالوقائع » . ذلك انه من السهل القول بأن السينما تستطيع معالجة قضايا ميتافيزيكية او واقعية ، باسلوب تجريدي او واقعي على التوالي وعلى التناوب . لكن المسألة هنا مختلفة كما انها اعمق واوسع مجالا . وفي تعبيري عن املي في ان لا اكون قد وقعت في براثن استعمالي لكلمة الميتافيزيكية ، اعود « للوقائع » والتي اردت قرنها بتخيلي للحاجة الى حوادث واقعية او ذات امكانيات واقعية نستطيع ان نستخلص منها معنى عمليا ملموسا . وهذا ما افتقدته السينما العربية في علاقتها بالقضية الفلسطينية (بل بالواقع العربي بصورة عامة) اذ انها كانت تأخذ (وساتكلم فيما بعد عن نوعية هذا الاخذ) حوادث – واقعية ، نعم – من الواقع تنقلها الى السينما لكن بشكل لا يمكن معه ان نستخلص منها بصورة مباشرة او غير مباشرة (في الفترة نفسها) اي معنى محسوس . ويبدو هذا طبيعيا عندما نعلم بانه لم يكن في نيتها – ولا حتى في استطاعتها – حتى الوصول الى معنى مماثل ، فهدفها الاساسي هو التاثير المباشر على المشاهد : وفي موضوعنا هذا ، اي القضية القومية ، كان هدفنا اثارة الحماس وحسب .

اما دور « ميتافيزيكية » الامور فواضح : فلو كانت القضية « جلية » « محسوسة » (٦) لغرفت منها السينما او غيرها ، وهي على يقين من نتائج جلية محسوسة . لكن – ومن جديد – فالمسؤولية دائرية متكاملة . وساحاول هنا – فيما بعد – توضيح معان اخرى لما سميته بالميتافيزيكية .

ومن ناحية اخرى ، فاني اجد نفسي مضطرا للاشارة الى موضوع واسع وعلم اخر يدخل بصورة مباشرة في القضية ، وهو ان المعالجة « الواقعية » لواقع غير مفهوم بكل ابعاده انما هي معالجة جزئية ناقصة ، والمهم هو محاولة فهم الواقع بكل ابعاده وملامحه : اي اكتشافه ومن ثم التعبير عنه باية طريقة كانت ، ان كنت لا اظن انه بالامكان البدء بالتعبير الواقعي ، رغم انه – وعلى ما يبدو – التعبير « الافضل » والتفصيل في – هذا – فيما يتعلق بالسينما – امر طويل ، اتركه لمجال اخر .

٤ – ولا شك ان هناك اموراً عملية كثيرة قيدت وحددت من مسيرة السينما العربية في علاقتها مع قضايانا . فاذا ما تركنا جانبا قضايا الطاقة والاستطاعة ، لبرزت امامنا بشكل سافر فاضح الحاجات « الانتهازية » لعلاقة السينما مع الجمهور . فقضية « الذوق » او المتطلبات ذات اثر كبير في الامر (وان كان هذا لا يخرج عن معضلة المقدرة والطاقة ، اذ ان العطاء السينمائي ليس سلبيا انما هو ايجابي ايضا اي ذا فاعلية في توجيه – او على الاقل – تطوير الذوق والمتطلبات . وهنا يرتبط الامر – في احد اطرافه – بالقضايا الجمالية في الذوق وفي شكل العمل الفني) . ومن هنا كانت الغاية الاساسية في الافلام التي تتناول موضوعا قوميا : الحماسة ، اثارة الحماسة فقط (واترك الان مظاهر وغايات الافلام الاخرى لمجال اخر) . وللاسف فهذا لا يقتصر على السينما وحسب . وقد قلت « اثارة » تجاوزا ، لان الحماسة هي متطلب وحاجة تشبعهما السينما ولا تخلقهما (ومن جديد تنطرح قضية التاثير والتقيد) . لكن ما يهمني الاشارة اليه هنا هو ان الحماسة حاجة عند كافة الشعوب ، خاصة في فترة معينة من تاريخها . لكن قضية اشباع هذه الحاجة هي ما تهمني معالجته هنا . فالمهم ليس الاشباع المؤقت ، اي ليس التخدير – في شكل ما – بل الاشباع الحقيقي ، الاشباع الذي يساهم – عندما يطرح – في تطوير هذه الحاجة « الفطرية » تطويرا ايجابيا (٧) . لكن – ومن جديد – لا يمكن للسينما العربية ، ان تصل الى هذا الموقف ما لم تنبع عن وضوح فكري كامل تتجاوز فيه العاطفة الحماسة لتصل الى مرحلة « نضج » في الفكرة العاطفية ، اي – باختصار – الى مرحلة الوحي . وعندها ستكون « الحماسة » تعبيرا عن موقف يمكنه ان يخلق عواطف مماثلة وحماسة صلدة مثابرة ، وليس تعبيراً عن جموح وعن « عاطفة » يمكنها ان تتلاشى في اية لحظة .

ان ثورة مثل ثورة الجزائر لم تهم السينما العربية في شيء الا في « قطف » الطابع الحماسي للقضية (ولا بد ان اكرر مرة اخرى ، بان للامر طابعه التاريخي ، وانه لم يكن بالامكان غير ما كان ، بالنسبة للماضي طبعا) ، فقضية نشوء الثورة وانتشارها وتوسعها وفرض نفسها وانتصارها ، كلها مراحل غير مستوعبة ، لا جزئيا ولا كليا ، الا من حيث هي مظاهر : هناك ثورة . هناك ثورة قوية . هناك ثورة انتصرت – هناك مستعمر غادر ، هناك مستعمر يضعف ، يخور . هناك مستعمر منهزم (كل ذلك عبر تقديم روائي شكلي وليس فكري) . اما محاولة تقديم شيء ما عن كل مرحلة او عنها مجتمعة ، فهذا ما لا يهم في اية حال . المهم الحماسة ، اذا كان بالامكان تقديمها بشكل بسيط.. فلماذا التعقيد ؟

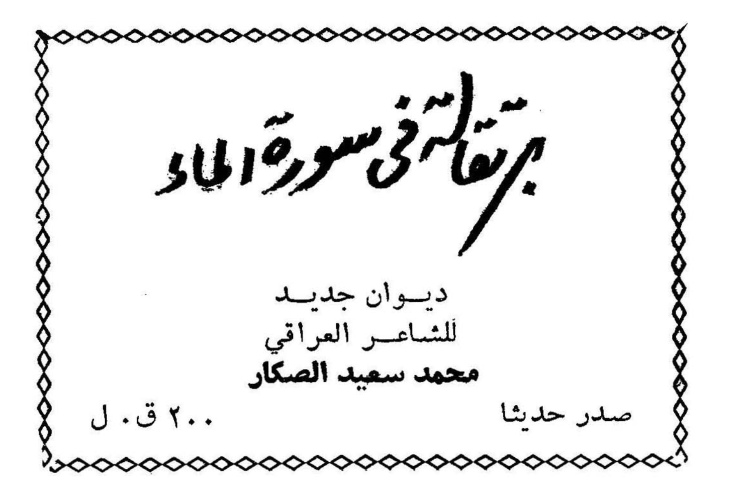
وكذلك الامر في قضية العدوان الثلاثي ١٩٥٦ .. اني اذكر افلام مثل « بورسعيد » و « الله اكبر » ، لقد كان جانب المعالجة دائما ينبع

---

(٥) وقد كنت اضع بعض الكلمات بين هلالين كي لا يساء فهمي مسبقا – نظرا لتشابك الامور وصعوبة البحث واتساع معاني الكلمات .

(٦) وذلك من ناحية ما يمكن لهذين التعبيرين ان يكونا ضد تعبير الميتافيزيكية لا من حيث كونهما يشيران الى الوضوح والسهولة .

(٧) وتجدر الاشارة هنا الى اساليب الدعاية (كنشر لدعوة) المختلفة في النظم السياسية والاجتماعية بل وحتى التجارية . وذلك من حيث ضرورة الوصول ، في كل منها الى هدفين في التاثير المباشر وغير المباشر . والثاني هو الاهم لانه – في اللحظة المناسبة – سيولد ردة الفعل المتطلبة والدائمة . ويبدو ان بحثي هذا – للاسف – مقدر له ان يبقى على شكل ملاحظات من هنا وهناك . والا فان الحاجة واضحة لتطوير كل فكرة ومعالجتها بصورة واسعة ، على حدة . على كل آمل ان اكون قد وفقت – على الاقل – بطرح القضية .



من « قطف » مظهر من مظاهر القضية ثم تطويره من نفس وجهة ذاك المظهر (وهذا من خواص السينما العربية) ، اي « قطف » المظهر العاطفي وتطويره بصورة حماسية . واكرر بأن للامر فوائده العملية ، لكن له مساوئه العملية والفكرية والفنية : الحضارية .

والجدير بالذكر ان تطوير ذاك المظهر بصورة حماسية كان ذا طابع « روائي » ، واقصد بالروائي هنا عكس « السينمائي » وعكس « الواقعي » (ولا اقصد طبعا معنى الرواية التقليدي) وذلك بشكل يخدم فقط في التطوير ، اي وبكلمة اسوأ بـ « الحشو » و « النفخ » وفي تغطية الفراغ : في « خلق » شيء ما من اجل تقديم شيء ما (وارجو ان يؤخذ كل هذا على محمله الموضوعي ، كما اردته) .

لكن أن نحن نظرنا الى فيلم مثل فيلم «معركة مدينة الجزائر»(٨) لجوليو بونتي كورفو والذي حاز على جائزة اسد سان مرقس الذهبي في مهرجان البندقية لعام ١٩٦٦ ، لاتضح لنا كيف تمكن معالجة قضية ثورة ما بصورة « حماسية » فعلية ولكن بطريقة واعية ايضا . لقد استطاع هذا الفيلم تحريك العواطف المتناقضة في بعض انحاء أوروبا بعد خمود قضية الثورة الجزائرية كعداوة عربية ـ فرنسية . واستطاع تحريك الرأي العام ـ من جديد ـ الى جانب اولئك الثوار الابرياء الذين بدأوا يتحركون لتحرير بلادهم ، رغم عرضه الحوادث بكل موضوعيتها . ان الارضية التحليلية التي قام عليها الفيلم والتي عرضت فيها مراحل تفتح الثورة وانتشار العقلية الثورية (ولنتذكر المناظر التي تلت بيان منع المخدرات والبغاء) وتحريك الطاقات الجماهيرية ، قدمت عرضا علميا عنيفا مخر احشاء المشاهدين بقوته وصلادة حماسيته .

ان المهم هو الامساك بالخيوط الاولى التي تتحرك منها الحوادث ، وليس عرض الحوادث بمظاهرها الخارجية دون الالتفات للارضية التي تجري عليها . انه من السهل جدا ان نقول وان نعلن وان نصرخ باننا نكافح من اجل الحرية ، ومن السهل جدا ان ننقل هذا « القول » الى مستوى عمل « فني » ، لكنه من الصعب جدا تقديم عمل فني تعود العواطف الاساسية فيه الى جذورها ولا تبدو هي في حد ذاتها الا كمظهر (تماما كما هي في الواقع) يستند الى فهم عميق لها ولعواملها وعلاقاتها . فالكفاح من اجل الحرية لا يقوم به عشرة من الملائكة شفافي الاجنحة والقلوب ضد عشرة او مئة من الشياطين المردة سود الاذناب (١٠) . انه كفاح يقوم على اسس واقعية يجب عرضها بكل جدليتها وتناقضاتها (٩) . وعلى كل فكل هذا يتغير وفق الغاية التي يبنى من اجلها الفيلم . فاذا كانت غايتنا الحصول على تصفيق المشاهدين (وكفانا الله شر الصفير) وبعدها لن يهمنا من الامر شيئا .. فكل شيء سيكون سهلا . اما اذا كانت الغاية بناء حجر هوى في الطريق.. فالى العمل .

نبيل مهايني

---

(٨) الفيلم صور في الجزائر من قبل ممثلين اوليين وثانويين جزائريين . وهو من انتاج ايطالي ـ جزائري مشترك . وقد ساهم المخرج العربي علي يحيى في الاخراج . وفضلا عن كونه وثيقة تاريخية وفنية هامة ، فقد كان الفيلم ، خطوة جيدة انفتحت معها كادرات السينما الجزائرية على الرياح العالمية .

(٩) وكم اود هنا تقديم شرح امثلة من السينما الروسية الصامتة ـ كمثال واضح ـ او حتى لفيلم معركة مدينة الجزائر نفسه . لكن المجال يضيق علي ، وسأستطيع ذلك ان شاء الله في المستقبل .

(١٠) هي طبعا كذلك في الواقع وفي الفن ، ولكن ـ كما قلت ـ كمظهر فقط ، مظهر يستند في الفن الى « ما ينقل » من الواقع من « دعائم » لتلك المظاهر .



اسمعي يا إسرائيل !

للشاعر النمسوي أريش فريد

اريش فريد يقف في طليعة اليسار الالماني الملتزم حقا ، الى جانب بيتر فايس ، وبيتر دين كورف ، ويهاجم الامبريالية شعرا ونثرا . وقد ادان العدوان الصهيوني فانطلقت تهاجمه السنة الدعاية الصهيونية وخدمها من مدعي اليسار ـ وهو المنحدر من اصل يهودي ـ واعتقد ان هذا هو الموقف الشريف الملتزم الذي يسهم في كشف حقيقة الكثيرين من مدعي اليسار الغربي وعلى الجانب الآخر في توضيح عدالة قضيتنا التي غاب عن ايضاحها مثقفونا واجهزة اعلامنا . فبالنسبة لاريش فريد القضية هي قضية التقدمية والاشتراكية ومحاصرة الامبريالية سواء في الفيتنام او في فلسطين أو في أميركا اللاتينية ... وهذا هو الموقف الذي يفضح ذلك اليسار الذي يدين اميركا في الفيتنام ويبيح لها وللصهيونية العدوان في فلسطين ... وبهذا الصدد يقول فريد : « اليسار هو موقف متكامل » .

« المترجم »

١ ـ اسمعي يا اسرائيل

عندما كنا ملاحقين
كنت واحدا منكم
لكن كيف يمكنني الآن أن أبقى كذلك
عندما غدوتم أنتم أنفسكم تلاحقون.
كان شوقكم
ان تصبحوا كباقي الشعوب
التي قد عملت فيكم تقتيلا
والآن ها أنتم أولاء قد غدوتم مثلهم
لقد نجوتم بجلودكم
من بطش الذين قسوا عليكم
والآن ها أنتم أولاء
يعيش فيكم جشعكم ...
لقد أجبرتم المغلوبين :
« أن اخلعوا احذيتكم »
وكأنهم جداء الخطيئه
سقتموهم الى الصحراء .
لكن آثار الاقدام العاريه
باقية أقوى من آثار قنابلكم ودباباتكم .

٢ ـ مشكلة لياقة

في بيت المشنوق
لا يجوز الحديث عن الحبل
لان جلاده الآن
يعيش هناك
وقد أحيل على التقاعد .

٣ ـ المراقب

الموت الحقيقي
يصغي للاسماء الخاطئه
التي ننادي بها بعضنا البعض
ويسعد لحماسنا .
عندما نقول نحن نحمي السلام
يقترب منا .
وعندما نقول نريد أن نبقى على حذر
يرفع رأسه .
عندما نتحدث عن الحق
يقرأ من شفاهنا .
وعندما نتحدث عن الواجب
يعد أسناننا .

٤ ـ صلابة

ارتعش كلما قيل
بأن طفلا ما قد قتل
انني لست ناضجا بعد
كي أدافع عن وطني
لذا فليقتل اليوم مئة طفل
لذا فليقتل غدا ألف طفل
ولذا فليقتل بعد غد عشرة آلاف طفل
سأدافع في الاسبوع القادم
عن وطني الميت .

المانيا الغربية

ترجمة د. عيسى علاونه

تتمة الابحاث

***

اعمق ايمان بكرامة الانسان وتلك هي ضريبة الدفاع عن الجانب الانساني من حياتنا في هذا العالم الذي يجعل الحياة جديرة بأن يحياها الانسان ... ان تاريخ الانسان هو تاريخ ثورته على الظلم ، وشرفه هو تاريخه ذاك . ويصير العنف التحريري ضد المستعمر وضد الاستغلال اروع مدخل الى اللاعنف الايجابي البنائي كاسلوب حضاري لبناء الامم والشعوب .

***

٢ - تحدث الاستاذ مطاع صفدي في مقاله عن الثورة الفدائية على صعيد العمل و « الثورة النقدية » على صعيد النظر . وهو يرى ان « الثورة النقدية يمارسها اليوم المجتمع العربي بكل طبقاته وافراده وفئاته » . ويقول : « فالفدائية التي تنطوي على الشهادة الكاملة ، تتطلب الفدائية في حقل المواجهة النقدية ، في جو من البراءة الذاتية الكاملة ، والعداء الموضوعي من اية سلطة فكرية او اعتقادية » .

وبغض النظر عن بعض التعبيرات والعبارات الغريبة غير واضحة الدلالة أو التي تفتقر الى الاتفاق المشترك في فهمها ، وبالتالي يتعذر مناقشتها ... فانني فهمت ما يقصده الكاتب بالثورة الفدائية واجدني اتفق معه في كل ما قاله ، اما حديثه عن « الثورة النقدية » فليس بالامر الواضح وهو بحاجة شديدة « الى اعادة ضبط الكلام على حجم الوقائع » على حد تعبير كاتب آخر في العدد نفسه ... وقد كان ايضا بحاجة اشد الى تحديد ماذا يقصد بالثورة النقدية والمرحلة النقدية الشاملة ، وما معالم كل ذلك ؟ ... والسؤال هو : هل هناك حقا في مجتمعنا أي شيء يمكن ان نسميه « ثورة » نقدية ؟ ام هي نوبات من لوم الذات او ما هو قريب من ذلك ؟

٣ - دولة اسرائيل اليوم هي شبح آشيل « الشيطان الذي تحميه آلهة الدول الكبرى » ... آشيل الصهيوني الذي غطسته آلهة الغرب ودعم المستعمرين بزعامة اميركا بنهر الخلود ... اين عرقوبه ومقتله ؟ مقتله يكمن في امر واحد في الارض وفي ابقاء شعور «المنفي» قائما في « اليهودي التائه » . لا وطن له على ارضنا ، ذلك هو الشعار . « وهنا يجب ان تنزل فورا وبالحاح مطرقة الفدائي الساحقة، فلا تزول غربة الصهيوني ابدا » .

هذه هي القضية التي ركز عليها الدكتور شاكر مصطفى في مقاله عن « بين غربة الصهيوني ومطرقة الفدائي : هذا التراب الغريب المرعب » ... وهذا صحيح تماما وعلينا ان نعيه جيدا ، وقد عرض الكاتب موضوعه في اسلوب متنوع الثقافة حاسم الالتفاتات الذكية مما يدل على طول تأمل واناة . وقد كرر التأكيد على الارض فهي رهان النصر ، وتحدث عن الركائز الثلاث للوجود الاسرائيلي - التنظيم الاقتصادي ، والاساس العلمي ، والتكوين العسكري . وكشف عن الارتباط الوثيق بين شركات الهستدروت والشركات الاميركية واطال الوقوف على النشاط العلمي في اسرائيل الذي لا يغيب عنه الاميركي البشع . وقد كنت احب للكاتب ان يشير الى بعض مصادره الاساسية التي استقى منها المعلومات التي اوردها حتى يساعد القارىء الراغب في دراسة الموضوع . فهو مثلا اعتمد اعتمادا كاملا في عرضه للنشاط العلمي في اسرائيل على الكتاب الجيد « اخطار التقدم العلمي في اسرائيل ، ليوسف مروة » دون ان يشير الى ذلك اية اشارة .

والامر الاخر ان الكاتب اهتم بما سماه « الرأي العام العالمي العطوف » « من مهماتنا نحن ان نبني مدماكا بعد مدماك ، هذا الدرع الواقي من الرأي العام العطوف ، الذي لا يكون النصر نصرا نهائيا الا به » ... واحب مرة اخرى ان أؤكد ان الاهتمام المفرط بالرأي العام العطوف امر ضار بقضيتنا ، فهذا الرأي لم يكن يوما عطوفا على «حق» مضيع ولن يكونه ابدا اذا لم يدافع عنه اصحابه بشجاعة ... عندئذ فقط سوف يعطي الرأي العام تأييده وتقديره ، فالعامل الحاسم في اكتساب تعاطف الرأي العام معنا هو ما نصنعه نحن دفاعا عن حقنا ، والرأي العام ليس شيئا ثابتا بل يتغير تبعا لظروف عديدة ولكنه يظل يعطي عطفه فقط للذين يقاومون بصلابة من اجل ارضهم وحقهم ... واذا كان هناك تغير محدود ما في الرأي العام العالمي اليوم تجاه القضية الفلسطينية فانما ذلك راجع فقط الى شيء واحد هو تصاعد المقاومة الفلسطينية والعمل الفدائي ... لست اقول فلنطرح هذا الرأي العام وراء ظهورنا ، وانما علينا الا نعطيه حجما اكثر من حجمه الحقيقي ، ولنتذكر انه عامل ثانوي فقط في قضيتنا . بل قد يكون من الافضل ان نقرر بحسم عدم الاعتماد على الرأي العام العالمي اذا اردنا حلا نهائيا لقضيتنا ، فالرأي العام قد يتعاطف معنا تعاطفا شفويا عندما يرى افراط عدونا في تبجحه وشططه غير المناسب لحجمه فيما يريد ان يبتلعه من ارض ومكاسب ... ولكن عندما يصل الامر الى تهديد « وجود » اسرائيل وحقها في الوجود فانه لا يمكن ان يتعاطف معنا . ومن ثم فليكن تعويلنا عليه محدودا ومرحليا .

امر آخر اشار اليه الكاتب اثناء حديثه عن اسس العمل من اجل قضيتنا وهو « اعطاء القضية البعد الروحي المفقود . اعطاء الدين مكانه في النضال . تجنيد العقيدة » ... فانا لا اتفق مع الكاتب في هذه النقطة لان البعد الاساسي للقضية بعد سياسي وقومي وينبغي ان يكون هذا واضحا وان نحاذر الابتعاد عنه بأي حال من الاحوال . وانا اعرف ان الكاتب يعني بهذا البعد « ان تلتهب كل النيران الداخلية فينا قبسا ونورا وبركانا آتيا » وانه قال « ان وضع القضية على انها عربية او اسلامية ، قومية أو دينية ، خطأ في الاستراتيجية النضالية خطير . هي هذا وذاك معا » . ولسلامة هذه الاستراتيجية ينبغي الا تكون « هي هذا وذاك معا » وانما يجب ان يكون واضحا انها قضية سياسية وقومية أولا وقبل كل شيء ... بهذا الوضع الحاسم يمكن ان نضمن لهذه الاستراتيجية السلامة ونتفادى اخطارا واخطاء عديدة .

***

٤ - اجتهد الدكتور عز الدين اسماعيل في مقاله عن « الاسس العامة لنقد أدب المقاومة العربية » ... ان يكون موضوعيا . وذكر ان هدفه ليس دراسة ادب المقاومة بل تتبع الاسس العامة التي يصدر عنها النقاد في دراستهم لهذا الادب . والقضايا التي أشار اليها وفندها قضايا صحيحة في مجموعها وخاصة محاولة النظر الى ادب المقاومة بوصفه بناء مستقلا ومنفصلا عن كل التجارب السابقة في ميدان الابداع اي انه ادب ينتمي الى نفسه ولا يعرف له جذورا قديمة او حديثة اي ما سماه الكاتب بالنظرة التفريدية الى ادب المقاومة . وخلص من دراسته الى « وعلى الجملة فان ادب المقاومة لن يتميز باشكاله الفنية او مغامراته في مجال الصياغة والشكل ، بل بالنوعية الخاصة لتجربته المتاحة » .

ولكن الملاحظة الاساسية على هذه الدراسة والتي تقلل من قيمة القضايا التي اثارها الكاتب ، تتمثل في ان الكاتب استخلص ما سماه « بالاسس العامة لنقد ادب المقاومة » من نوع واحد من الكتابات هو كتابات بعض الشعراء والكتاب الفلسطينيين بالارض المحتلة عن « دواوين رفاقهم الشعراء الفلسطينيين » واعتمد في استقصائه نماذج النظرة النقدية لادب المقاومة على مصدر وحيد هو بعض المقالات او الدراسات التي نشرت بعدد من مجلة « الطريق » عن ادب المقاومة في فلسطين ... (ولم يشر الكاتب الى هذا المصدر الوحيد عند ايراده النماذج) . ولا يمكننا ان نقول ان هذه الدراسات - او ما سمته تلك المجلة « نماذج من الدراسات والانطباعات » - تعبر عن الاسس العامة لنقد هذا الادب . انها لا تمثل الا جانبا واحدا صغيرا من نقد ادب المقاومة . وكان الاحرى بالكاتب الذي يتعرض لدراسة الاسس العامة ان يلتمس نماذجه وامثلته من العديد من الدراسات التي صدرت وتصدر عن ادب المقاومة سواء في بعض المجلات العربية العديدة وبعض الكتب ، بدلا من اعتماده على عدد واحد من مجلة واحدة ... وعند ذلك كان يمكن لحديثه عن الاسس ان يكون اشمل واصدق واكثر

تمثيلا للنقد السائد لادب المقاومة . وأمر آخر كان ينبغي التعرض له عند دراسة « الاسس » وهو تحديد مفهوم ادب المقاومة ... هل نقصره على شعراء الأرض المحتلة ... ام نجعله يمتد ليشمل ادب «المقاومة العربية » بوجه عام ؟ ... ان الكاتب لم ينظر الا الى ناحية جزئية من الصورة .

***

٥ ـ قدم الدكتور عبد المحسن طه بدر لدراسته عن « فدوى طوقان والبحث عن رؤية جديدة » بمقدمة أوضح فيها رأيه عن ماهية الثورة ومدى العلاقة بين الثورة وبين الادب وحدد ما يعنيه بعمق الاحساس ، وصدقه ، ومظاهر تسطح احساس الاديب . أي انه اوضح مفاهيمه النقدية التي سوف يستخدمها في دراسته التطبيقية وهذا امر هام ومطلوب بصورة عامة ومطلوب أكثر في الدراسات التطبيقية كهذه الدراسة عن تطور الرؤية الشعرية للشاعرة المناضلة فدوى طوقان . وقد نحا الكاتب الى ايراد النماذج التفصيلية لما يقرره من احكام نقدية ولم يكتف باطلاق الاحكام العامة على النحو الشائع في كثير من الدراسات النقدية . وقد ميز الكاتب ببراعة بين الاصوات المتباينة في شعر الشاعرة ، واوضح ان هناك صوتين : صوت فدوى القديم القائم على « الرؤية التقليدية » للواقع ، والصوت الثاني الذي يتمثل في قصائد ما بعد حزيران ومحاولة التفتح على الواقع والخروج من اطار الانغلاق على الذات واثر الرؤية التقليدية وهو صوت يمتاز بعمق في الاحساس واتساع في مدى رؤيته وخصوبة وحيوية فنه ، وهذا الصوت الاخير هو الذي جعله الكاتب تجسيداً لهذه الرؤية الجديدة التي تبحث عنها الشاعرة او ينبغي ان تبحث عنها . وحلل هذا الصوت الى مستويات نغماته المتفاوتة فنيا في طريق تصاعدي حتى يصل الى النغم الرابع الذي يجسد هذه الرؤية الجديدة في « تجربة فنية متكاملة حية ونامية ومتطورة معتمدة على الايحاء وسيلة الفن والادب ، والذي يصنع وسائل التعبير بمهارة في خدمة الرؤية التي ارادت التعبير عنها » .

والحقيقة ان وراء هذا المقال النقدي مفهوما متكاملا في نقد الشعر يعبر عنه صاحبه باناة ودقة ووضوح واتزان ... الا ان الكاتب كرر بعض المصطلحات النقدية التي يتخذ منها نقطة انطلاق لنقده وتقييمه دون ان يعنى بتحديدها بالرغم من اهمية هذا التحديد البالغة. مثل تكراره الحديث عن « الرؤية التقليدية التقريرية والنثرية » فقد كان من اللازم تحديد هذا المفهوم بوضوح لانه مفهوم مفتاحي في كل النقد الذي ساقه . هذا بالرغم من ان الكاتب اشار سريعا الى ما قد يعنيه هذا المفهوم عندما كان يلجأ الى التطبيق ، الا ان هذا لا يكفي خاصة من كاتب مولع بضبط عبارته . وقد قال الكاتب « ان تكرار الصور الجزئية مرات ومرات يفقدها خصوبتها وحيويتها مما يجعلها بعد ان جفت من التكرار اقرب الى النثر ، ويجعلها على حد تعبير نقادنا الاقدمين من « العام المشترك » ، والعام المشترك الذي يفقد خصوبته ليس شيئا اخر سوى الاسلوب النثري التقريري » واحسبني افهم الا علاقة هناك بين العام المشترك والاسلوب النثري التقريري . وكذلك ليس من اللازم ان يكون الاسلوب النثري اسلوبا تقريريا .

***

والدراسة الاخرى المفصلة والمعمقة كالدراسة السابقة هي الدراسة التي كتبها ايليا حاوي عن « تجربة سميح القاسم الشعرية » ، وهي تمتاز ايضا باستقراء الامثلة التطبيقية ، والكاتب هنا يتفق مع الدكتور عبد المحسن في كثير من المفاهيم النقدية ، ويبلغ التماثل احيانا حد المطابقة مع اختلاف العبارة . وقد كنت احب ان يعزف الكاتب في دراسته عن كثير من العبارات الخطابية التي ادانها في نقده ولم يكن في حاجة الى اللجوء اليها في اسلوبه . وملاحظة هامشية : لم يكن الباطنية هم ابرز القائلين او المنتظرين للامام الذي يملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا .

اما المقال عن محمود درويش للاستاذ غسان كنفاني ، فهو مقال عام ونفتقد فيه ما لمسناه في الدراستين السابقتين من جهد واصالة .

***

٦ ـ كتب الاستاذ صبري حافظ دراسته عن « شعر المأساة في الارض المحتلة » . وهذه الدراسة هي الجزء الاول من دراسته عن « ادب ما بعد حزيران » وهو الادب الذي انجبته البلدان العربية عن النكسة . والسؤال الذي يطرحه هو : هل استطاع هذا الادب ان ينهض بالمسؤولية الفادحة الملقاة على عاتقه أم لا ؟ وحتى يستطيع تناول كل هذا الادب الوفير برغم القصور النسبي للفترة الزمنية التي ابدع فيها دونما تسرع او عمومية ، فانه قسمه الى عدة اقسام اولها الشعر الذي كتب في الارض المحتلة (وهذا هو الموضوع الذي نشر في هذا العدد) وثانيها الشعر الذي كتب في بقية البلدان العربية الاخرى وثالثها عن القصة القصيرة في الارض المحتلة وفي البلدان العربية الاخرى » وهو تقسيم يمكن ان يستوعب الموضوع .

والدراسة المنشورة ـ وهي من افضل ما قرأت للاستاذ صبري حافظ ـ قسمان : القسم الاول عبارة عن رصد مرير للظواهر العامة الخاصة بالنكسة والفن وملامح أدب ما بعد النكسة . والقسم الثاني هو دراسته لشعر شعراء الارض المحتلة « وهم شعراء كثيرون بصورة واضحة ومنفردو المواهب والاصوات وينتمون الى اجيال عديدة » ... وقد قدم الكاتب لنا عرضا عاما لرؤية شعراء الارض المحتلة والقضايا الاساسية والمشتركة التي يلحون عليها ، وهو يعرض شعرهم كما لو كانوا صوتا واحدا ممتدا يكمل بعضه بعضا ، أي انه درس شعرهم في مجموعه ولم يدرسه في أعلامه . فالفكرة الواحدة يعرضها ويستشهد عليها ويستكملها ويعمقها بشعر الشعراء الاخرين مما يجعلك تحس بشعر المأساة كما لو كان شعر شاعر واحد فقط .

وقد مر الكاتب مرورا عابرا جدا بقضايا الشكل الفني وقد كنت أحسبه ينبغي عليه ان يطيل في هذه النقطة التي كثر حولها اللغط من المدعين على حد تعبيره .

والملاحظة العامة ان الكاتب يبالغ في حماسته مبالغة مفرطة وانه كان بامكانه ان يركز دراسته ويستكملها ببعض الدراسات المستقلة لبعض من رواد هذا الشعر واعلامه . واني لاجدني متفقا مع تحليل صبري حافظ لقصيدة « بأسناني » لتوفيق زياد (ص ٩٦) اكثر من اتفاقي مع ما قاله عز الدين اسماعيل عن المقطع الاول من نفس القصيدة والذي رأى فيه مجرد تصوير خيالي محض ، لا ينتمي الى حرارة الواقع » (ص ١٣٢) .

٧ ـ الدراسة التي كتبها الاستاذ سامي خشبة بعنوان « البحث عن مسرح للمقاومة ـ مسرحيات القتال او الصراع على الارض » دراسة تكشف عن احتشاد الكاتب لموضوعه ومتابعته للحركة المسرحية والتراث المسرحي بل عن متابعته لبعض المسرحيات التي لم تنشر بعد ، وقد لجأ الكاتب الى التنوع في اختيار المسرحيات التي تعرض لها فهناك مسرحيات من العراق ولبنان ومصر ولم يقتصر على المسرحي العربي المحلي وهذه النظرة العربية في الاختيار تجعل الانسان يحس بالارتياح. وقد اكد الكاتب في دراسته على الجانب الفني والسياسي معا بشكل حاسم . وركز على القضية الجوهرية ، قضية العلاقة بين الانسان والارض وهو يعتقد « ان مهمة من يكتب عن هذا الصراع هي أن يحاول ان يكتشف المزيد من ابعاد هذين النوعين ومن ابعاد صراعهما المتميز الخاص » ثم حدد الاسس التي يصدر عنها في اختياره لنماذج المسرحيات ، وفي الحقيقة فان المقياس الذي وضعه مقياس صعب ولكنه صحيح . والنقد الذي وجهه الكاتب للمسرحيات التي درسها مليء بالالتفاتات اللماحة وبوجه خاص نقده لمسرحية رشاد رشدي وعدم ادراك صاحب مسرحية « الزهور لا تذبل ابدا » لحقيقة محور الصراع العربي الاسرائيلي وانه غير المحور الذي أدار عليه شتاينبك قصته او مسرحيته « افول القمر » ... وقد احسست اثناء قراءتي هذه الدراسة ان الثقافة العربية ابتدأت تتشرب فكر فانون . وعلى الجملة

فان هذه الدراسة سواء بما قدمته من مفاهيم سياسية حول القضية او نقد للمسرحيات التي تعرضت لها من الدراسات الجادة والمتميزة في هذا العدد .

ـ تساءل الاستاذ امير اسكندر في مقاله « ايديولوجية الفداء ـ اتجاهات ونماذج » عن القوة النفسية او الاخلاقية او الفكرية التي تكمن خلف العمل الفدائي ، وتعرض ـ بلا كبير داع ـ لبحث مفهوم كلمة ايديولوجية وتطوره في مختلف العصور . ثم انتقل الى ما يعنيه بايديولوجية الفداء وميز بصورة صحيحة بين الفدائي والارهابي . وهو يرى ان هناك خلفيات ايديولوجية متنوعة خلف العمل الفدائي . وقد ميز في العمل الفدائي أربعة اتجاهات رئيسية تحدث عنها هي : الاتجاه الديني ، والاتجاه الوطني ، والاتجاه الاشتراكي ، والاتجاه الاممي . وهذه الاتجاهات ولا شك بهذا الترتيب تعبر عن التطور التاريخي واحيانا ترتبط وتندمج معا كما في الاتجاه الاشتراكي « الذي يتضمن بداخله الاتجاه الوطني ولكنه يعلو عليه » .

وقد كرر الكاتب قوله « ان الفداء هو الذي قدم المعادل الموضوعي للحق » مرتين (ص ٢٩ ، ١٧١) وهذه الاستعارة « الاليوتية » غير موفقة هنا بل ولا معنى لها في هذا السياق ، فالفداء ليس عملا فنيا بالمعنى الذي يتحدث عنه اليوت، ومن ثم فلا مكان هنا لهذه الاستعارة الاليوتية. وايضا عندما اراد الكاتب ان يفرق بين الاتجاه الديني والاتجاه الوطني قال ان الاتجاه الاول يتعلق بالعلة الغائية والاتجاه الثاني اقرب الى العلة الفاعلة ... فهذه الاستعارة الارسطية ايضا غير موفقة هي الاخرى .

ـ تناول الاستاذ سمير كرم موضوع « استراتيجية العمل الفدائي» واشار بصورة سريعة ومركزة الى اهم الامثلة لحركات المقاومة المسلحة والحرب الفدائية التي هي ظاهرة العصر الحديث . ثم تساءل اين موقع العمل الفدائي الفلسطيني من هذه المقولات الاساسية في استراتيجية الحرب الثورية ؟ وذكر الاهداف التكتيكية للعمل الفدائي الفلسطيني في المرحلة الحالية . وقال « بالنسبة للعمل الفدائي الفلسطيني بالذات فان الرأي المستقر هو ان العمليات الفدائية ليست سوى تمهيد لحرب شعبية شاملة ، مادة الكفاح فيها هذا الشعب العربي بأسره ، انما الشعب الفلسطيني رأس حربة » .

والامر الواضح ـ في تقديري ـ ان العمل الفدائي الفلسطيني بسبيله الى خلق مناهجه الخاصة وتكتيكه الخاص الذي سوف يعمل على ابرازه استمراره وتنوعه وشموله ، وسوف يضيف بذلك عمقا الى الخبرات الثورية المعروفة للشعوب المناضلة ... وكم كنت اتمنى ـ ولكن لا جدوى من المنى الآن ـ أن يكون العمل الفدائي قد اندلع واستمر منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن . لو كان حدث شيء من هذا لكنا قريبين جدا من اهدافنا وما كان في مقدور العدو أن يرسخ من كيانه العسكري والاقتصادي ، ونظرا للتقاعس العربي وانخداع الشعب الفلسطيني طوال هذه الفترة السابقة ، فان علينا ان نعي ان حربنا التحريرية ستكون مريرة وطويلة ، والضريبة التي علينا جميعا ان ندفعها هي تدعيم العمل الفدائي مهما كانت التضحيات ... هذا هو قدرنا ومعركتنا مع الزمن ضد عدونا .

وهناك ملاحظة صغيرة هي أن سمير كرم اشار الى ليدل هارت واقتبس منه دون ان يذكر انه اعتمد في ذلك على مقدمة هارت لكتاب حرب العصابات ترجمة خيري حماد (ص ١٥ ، ص ١٧) .

***

يبقى بعد ذلك عدد من الدراسات الهامة التي تستحق ـ حقيقة ـ هي الاخرى وقفة طولى ... مثل مقال الاستاذ جورج طرابيشي عن « قضية فلسطين من مستوى الدعاية الى مستوى التضامن الاممي » الذي أكد فيه على البعد التحريري للقضية « ففي عصرنا هذا الذي هو بحق عصر التحرر الوطني والانتقال الى الاشتراكية ، تكتسب كل حركة قومية للتحرر الوطني ابعادا أممية مباشرة » ، والترجمة الوحيدة لهذا البعد التحريري هو الاستمرار في الكفاح الشعبي المسلح مما يؤكد هذه الصفة التحررية الوطنية للمقاومة العربية . وان عبء هذا التحرير ، مهما تكن ابعاد التضامن الاممي ، سيظل عبئا قوميا اولا واخيرا .

وهناك دراسة الاستاذ احمد محمد عطية « في الثورة الفلسطينية وأدب غسان كنفاني » وهي دراسة واضحة الجهد بشكل بارز .. وهناك دراسة عن « سينما المقاومة ـ حقيقتها في العالم العربي وواقعها في السينما العربية » بقلم خيرية البشلاوي ، وقد اوضحت مدى التشويه الذي نالته المقاومة في افلامنا بالرغم من اهمية الموضوع الشديدة وضرورة استخدامنا لهذا السلاح الفني الهام ... ان السينما العربية في الواقع لم تعمل عملا فنيا ذا بال على الاطلاق بالنسبة لقضيتنا المصيرية ... ثم هناك دراسة الاستاذ محمد الجزائري عن ديوان الشاعر العراقي الفريد سمعان « اغنيات للمعركة » ... وقد بلغت الحماسة بالكاتب للديوان الذي يكتب عنه حدا بالغ الافراط ... والنماذج التي تناولها لا تبرر كل هذه الحماسة المفرطة ، ولكنني لم اقرأ هذا الديوان ومن ثم فلستاستطيع ان اكون على ثقة من حكمي هنا.

القاهرة

عبد الجليل حسن

تتمة القصائد

●

قصيدته على درجة كبيرة من الغموض والابهام ، وقد حاول ممدوح عدوان أن يخفي هذا عن طريق حشد الصور الشعرية المتعددة ، وعن طريق استغلاله لامكانية بحر الرمل من حيث علو نبرتها الغنائية ، وهذا لا ينفي بالطبع أن بعض الصور الشعرية التيحشدها لها جمالها الخاص في حد ذاتها .

ويبدو ان الشاعر يرمز بالمرآة الى الضمير الذي يدفع الانسان الى مواجهة قضاياه المصيرية بروح الجدية ، دون ان يستهين بها ، وهو يوجه الخطاب في السطرين الاولين من قصيدته الى الغائب وفجأة نجده يوجهه الى المخاطب ابتداء من السطر الثالث بنغمة تذكرنا بنغمات القصائد الكلاسيكية :

واجه المرآة ان شئت التحدي
او فمت خلف الستائر
انت ان لم يهدك الضوء بعينيه
فلن تهديك آلاف المنائر

الى ان يقول في خاتمة الفقرة الاولى :

أنت ميت واهم أنك تحيا
واهم أنك ميت

وهنا يقع في تناقض واضح حيث اكد موت مخاطبه (أنت ميت) ، واكد انه واهم اذا تصور أنه حي ، فكيف يمكن للميت بعد ذلك أن يتوهم انه ميت ؟! أيمكن ان تكون القافية المشتركة بين هذا السطر والسطر السابق له هي التي خلقت هذا التناقض (احتميت ـ ميت) ؟ في الحقيقة لا أدري ... وفضلا على هذا فان الشاعر يترسم خطى الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور في المقطع الاخير من قصيدته من حيث تمثله للصياغة ، وهذا ما يتضح لو قارنا هذا المقطع « حين غابت من لياليناالكواكب ... » بقصيدة « العائد » التي يشتمل عليها ديوان « أقول لكم » مع الفارق الواضح بين الرمزين في هذه القصيدة وفي قصيدة ممدوح عدوان ، حيث يرمز صلاح عبد الصبور بالطفل العائد الى الحب القديم .

٤ ـ المسافر والقضية ـ تركي الحميري

يقول الشاعر ان قصيدته هذه « استبطان رامز لشخصية الفدائي العربي » ، وهو يقسم قصيدته الى عدة اصوات .. صوت العزيمة .. اصوات ساخرة .. شهقة الموجة ١ .. شهقة الموجة ٢ .. الساحل الآخر .. محاولا في النهاية أن يبرز شخصية الفدائي العربي من خلال هذه الاصوات المتعددة ، لكنه يقع في هوة التقريرية حين يبرز الصوت الاول :

هو طفل اذا بكى ، هو ريح اذا زار
هو صلد اذا احتمى ، هو خط على حجر
سيط بالنار عزمه أخذت نفسه الشرر

والى جانب هذه التقريرية في السطور السابقة يسقط الشاعر في هوة أخرى .. هوة استخدام الاوصاف والمعاني التي فقدت دلالاتها نتيجة كثرة تداولها بحيث أصبحت كالكليشيهات الباهتة التي لا نبض فيها .

لكن الشاعر يوفق حين يبرز الاصوات الساخرة نتيجة خروجه من الهوتين اللتين سقط فيهما في الصوت الاول ، وينطلق بعدئذ انطلاقة موفقة الى أن يقترب من « بيت القصيد » ـ كما يقولون ـ حيث يكشف لنا كيف ألقى الفدائي زيفه القديم المتمثل في الحياة الرخية الاليفة ومضى في طريق النضال :

يا وطني نفضت في دربي اليك كل زيفي
جئت صافيا كالدم .. عدت غيمة تستبطن الهطول

٥ ـ أعترافات للثوار الملثمين ـ فايز خضور

يصور الشاعر قصيدته بكلمة نثرية ، تقول ان هذه القصيدة « أغنية من مواطن يتشهى شرف القتل » . والحقيقة أنها قصيدة جيدة تصور رغبة الشاعر الجادة الصادقة في ان يسهم في المعركة مساهمة حقيقية ، لكن هذه الرغبة تقف دونها حوائل ومعوقات عديدة ، ولهذا يحس فايز خضور بالخجل والاستخذاء لان امكانياته لا تستطيع ان تحقق طموحه الصادق الى المساهمة الايجابية البناءة .. ويحس الشاعر ـ حينئذ ـ ان الكلمات لم تعد لها جدوى ، فيقول :

أحبائي
لنا وطن ، خنقنا نبضه الرهاز بالكلمات
وسورناه بالدمعة
لانا قبل هذا الجرح لم نشعل له شمعة

والحق ان هذا الموقف من الكلمات ، لم يقفه الشاعر وحده .. فالاحساس بأن الكلمات صارت هراء نتيجة عدم صدقها ، أو نتيجة عدم شعور قائليها بمسؤوليتها الضخمة نجده واضحا أشد الوضوح في شعر صلاح عبد الصبور حيث يقول :

فليعبث حلقك بالالفاظ ، الالفاظ (هواء)
من يمسكه أو يمسكها تلك الالفاظ الجوفاء

وكما يقول ايضا على لسان بشر الصوفي :

ولانك لا تدري معنى الالفاظ ، فانت تناجزني بالالفاظ

واذا كان صلاح عبد الصبور يبرز احساسه هذا في معرض نقده للنقائص الاجتماعية فان محمود درويش يبرز هذا أيضا ، ولكن في معرض حديثه عن كيفية دخول العرب الحرب في يونيو ١٩٦٧ :

عندما انهار الاحياء الكبار
وامتشقنا لملاقاة البنادق
باقة من أغنيات وزنابق !!

والحق ان القصيدتين التاليتين لقصيدة فايز خضور ، وهما « الحروف من رصاص » لمهدي بندق ، و « الفدائي وأنا » لخلدون الصبيحي تصدران من هذا المنطلق نفسه . وفي قصيدة الحروف من رصاص يحاول الشاعر أن يوحي بهذا ، لكن سيمترية الابيات وغنائيتها الواضحة واستخدام بعض الكليشيهات فيها .. كل هذه الامور قد أفقدت القصيدة قدرتها على الايحاء الى أن تستسلم في الخاتمة للمباشرة والتقرير :

ولن يستكين لحكم القدر
ولن يتغنى بحب البقاء
ولن يتغنى بحب الخطر
ولن يستبيح دموع الهزيمة ...

وعلى النقيض من هذا نلتقي بقصيدة « الفدائي وأنا » التي تهتم بابراز صورتين مختلفتين كلتاهما عن الاخرى .. الاولى صورة الفدائي المناضل .. والثانية صورة الشاعر الخجول .. ويبرز خلدون الصبيحي خجله ثم يعلله قائلا :

أخجل حين تلقاني
لاني لسمت في الميدان
وتحت الياقة البيضاء جلد ما شوته الشمس
ولا حفرت عليه الريح وشم العرس
لاني امضغ الساعات في مقهى بلا عنوان
وأشرب قهوتي وأضيع في الاسفلت
لاني لست في الميدان أخجل حين تلقاني

ويختتم الشاعر قصيدته بصورة رائعة حيث يسأل أحد الفدائيين الذين شوههم النابالم رجلا عاديا ـ مثل الشاعر ـ عن جراحه ، فلا يحير الرجل العادي منطقا :

قد يسأل واحدهم واحدنا أين جراحك ؟
... ...

لا يملك من لم يتألم أن يتكلم .

اما قصيدة « عودة الصياد » للشاعر فؤاد الخشن ، فانها تحفل بالرومانسية على الرغم من أنها تتحدث عن الثورة الفدائية ، وتتعاقب فيها الخواطر على شكل موجات ترد الى مخيلة الشاعر بحكم التداعي.. هذا الخاطر يسلم الشاعر لذاك الخاطر .. وهكذا .. في مطلع الخاطر الاول يقول الشاعر اننا ننتظر في الليل أطيافا :

تفتح مروحة الفجر البيضاء
تفرش منديل الامواج
تمسح مخمله المزبد بالتبر الوهاج !!

ثم ينتقل الشاعر بعدئذ من مخاطبة ابن الانسان ، الى مخاطبة أبناء الفردوس المطرودين ، ومن مخاطبة ياسر عرفات الى مخاطبة من « انعشوا وطنه المنكوب بأنانيات تمتص الطاقات ...

وفي قصيدة « عن العام ١٩٦٩ » للشاعر فوزي كريم ، يبدو لي ان مخيلة صاحبها وقت ابداعها كانت أشبه بالماكينة الصماء التي تستطيع ان تنتج أشكالا هندسية دقيقة ، لكن ليس بمقدورها أن تمنح هذه الاشكال الروح والنبض . هذا الى جانب أن الشاعر يترسم خطى أدونيس ويدور في فلكه بصورة واضحة ملموسة .

نلتقي بعد قصيدة فوزي كريم بقصيدة « يوم غير عادي في حياة موظف عادي » للشاعر يسرى خميس ، والقصيدة تبرز الانفصال التام بين عالمين : عالم السلبيين العاديين الذين يسيرون امور حيواتهم وفقا لاحكام الروتين ، وعالم الفدائيين .. وهذه القصيدة من القصائد الجيدة في العدد وهي تهتم - على عادة يسرى خميس في شعره - بالجزئيات الصغيرة التي تنبثق من مئات الاشياء التي نعرفها من خلال احتكاكنا بالواقع اليومي المألوف ، والشاعر ينتقي من هذه الجزئيات ما يخدم قصيدته ، بحيث تبدو القصيدة صادقة في نقل صورة كل عالم من العالمين على حدة ، وابراز التناقض فيما بينهما .

أما القصيدة التالية فهي « حكاية الولد الفلسطيني » للشاعر احمد دحبور ، وهي قصيدة جيدة تنمو نموا داخليا متقنا نابعا من تطور النضج عند بطل القصيدة ، والشاعر يصور عجز بطله هذا أيام كان طفلا عن تغيير التناقضات التي تقف حائلا في وجه مسيرة الحياة النضالية ، والتي تتمثل في الصراعات العقيمة :

وأبكاني الدم المهدور في غير الميادين
- تحارب خيلنا في السند
ووقت الشاي .. نحكي عن فلسطين

ويرثي الشاعر حسن فتح الباب في قصيدته « رثاء شهيد » فاروق نجم بطل معركة تدمير الصواريخ في سيناء ٢٦ اكتوبر ١٩٦٨ مصورا اياه في صورة نجم مخضوب الجبهة بالدم ثم يتساءل الشاعر هذا التساؤل الذي يدل على عدم تصديقه لخبر استشهاد صديقه :

يا نجمي الغائب
أين طواك الافق الشاحب ؟

لكن الشاعر - من فرط حزنه فيما أرى - لا يستمر في هذا الايقاع الهادىء الحزين طويلا ، اذ سرعان ما نجده يطلق النداءات الزاعقة ... يا شهداء المأساة ... يا أشباح الليل .. يا غزة .. يا لؤلؤة فلسطين .. يا قمما شما في جولان .. يا ضفتنا الغربية .. يا قدس ..

أما قصيدة « ماذا نقول للصغار » لمي علوش ، فهي قصيدة لاتتوفر فيها الطاقة الشعرية ، اذ أنها تبدو أقرب الى المقال الصحفي السريع الذي يتحدث عن الحب والسلام والصفاء ، مبينا ان هذه القيم لن تقوم لها قائمة ما دام الاستعمار موجودا . ان التساؤلات التي طرحت في هذه القصيدة تساؤلات باهتة ، استقدمتها الشاعرة من الواقع الحي دون ان تنجح في التحليق بها الى آفاق الشعر .

ونلتقي بعد هذا بقصيدة « غور الاردن » للشاعر محمد عبد الرحيم الذي يرسم في مطلعها صورة سريعة لغور الاردن :

غور الاردن
ديمومة حرب لم تعلن
جثث تتناثر ، لم تدفن

وينتقل الشاعر بعد رسمه لهذه الصورة ليصور كيف ان ملامح الحياة العادية تتغير حين يهب الفدائيون للقيام بعملياتهم البطولية ، وان كان الشاعر قد قدم من التفاصيل ما هو زائد عن الحاجة ، ثم يصور الشاعر المناضل كيف يتسلل هو ورفاقه الى الارض المحتلة تصويرا بديعا الى ان يعودوا الى قواعدهم ومعهم رفيقهم « الجريح الزنجي المظهر » ويؤكد الشاعر انه في نفس الليلة التي شهدت عمليتهم:

... قد تولد نطفة
في جيل سيناضل خلفه
وستدعم في غدها صفه

اما القصيدة الاخيرة من قصائد العدد الماضي فهي قصيدة « اشياء عن الارض والمقاومة » للشاعر سعد الله حرب ، وهو يقسم قصيدته الى أقسام متعددة تتآزر فيما بينها لكي توحي بالمناخ النفسي العام لها ، وفي الوقت نفسه تخفف من حدة الغنائية فيها . واعتقد ان الشاعر قد نجح في هذا .. وما أروع قوله في الامنية الاخيرة :

لو تقبلوني أنا اليتيم في صفوفكم
قد لا أجيد الحرب والقتال
لكنني أجيد جمع الطلقات الفارغة
لو تقبلونني أنظف السلاح أملأ المخازن - التي
تفرغن - رصاص

واذا كانت الآداب قد فتحت صدرها لخمسة عشر شاعرا عربيا ، كتبوا جميعهم قصائدهم بالشكل الحر ، فهذا أمر طبيعي ، لانه من المفروغ منه - كما يقول ماوتسي تونج - أن مكان الصدارة في الشعر يجب ان يكون للقصائد المنظومة بالاسلوب الحديث .

واذا كنت لم أناقش قصائد المقاومة من الناحية الفنية في أغلب الاحوال ، فذلك يرجع الى ايماني بما قاله نزار قباني من انه ما دام شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة يطلقون الرصاص في صفوفنا فاننا نرحب برصاصهم ... أما بقية التفاصيل الجمالية والفنية فليس هذا وقتها .

القاهرة حسن توفيق

تتمة القصص

هزيمة جديدة .. وراح دم ديوب العاصي هدرا ، عاد الرجال مهزومين من الحرب ، وراحوا يطلقون رصاصهم في زوايا الليل ، وانطوت تمرة على حزنها وهمها : الآن فقط أحست باليتم والترمل والثكل جميعا ، لكنها لم تفقد الامل بعد .. « الذي ينتصر مرتين متواليتين لا يقضي على الحرب ، بل يزيدها ضراما .. لن أموت ها هنا .. مرة ثالثة تفتح الحرب ابوابها ، عندئذ اذهب واموت فرحا حيث قلنا ألما .. » . ومن قلب الليل عاد دمر ذليلا مهزوما يقول لامه « يد واحدة لا تصفق » ، لكنها ترفض ان تقيم معه تحت سقف واحد ، فتترك له البيت منطلقة الى الدرب ، وصوتها يرتفع بوداع أخير :

هوى العز يا غالي هوانا
انتظرت كتير ما نسم هوانا
موت بعز لا عيشة بهوانا
ولا دمر ينادي على الابواب ! ..

تمرة ، هذه الاعرابية الصلبة القوية ، التي تعيش من أجل الثار لرجلها ولارض فلسطين ، وتحتمل كلمات الناس وتقريع أصحاب الارض، وتواجه جفاف الحياة وقسوتها بعزيمة صامدة ، وتستطيع - دون تزيد او افتعال - ان تدرك العلاقة بين ان يمتلك الفلاح أرضه وبين قيام اسرائيل ، هذه المرأة القوية التي تعيش في بادية الشام تكتسب في قصة يوسف المحمود دلالة رمزية موحية : هي رمز الروح العربية الحقيقية في اصرارها على طلب الثار ورفضها للهزيمة ، اما أن تعيش

حرة او تموت حرة .. كما تقول بكلماتها البسيطة : « الدنيا كلها لي اذا قتل زوجي وابني وانا دفاعا عن شبر يخصنا منها .. الملك بالكرامة وليس بشيء آخر .. » .

وقد اختار الكاتب ان يبدأ قصته بحوار عابر بين تاجر على الدرب ودمر الصغير ، رجع بعده لحياة ديوب قبل ان يذهب للحرب ، ثم تابع حياة تمرة من خلال حديث النساء عنها على الدرب نفسه ، ثم انتقل الى حديثها هي مع حماتها ، وحديثها مع النساء ، والجهد الذي تبذله مع تناقص الارض التي تزرعها ، وظل يتابعها حتى عاد دمر من الحرب . هذه الطريقة في التتابع لم تفقد وحدتها الفنية ، بل لعل اختياره للدرب كي يكون هو الرابط بين الاحداث المتباعدة في الزمان هو ما يسوله ان يحكي - في قصة قصيرة موحية - ما حدث في ١٩٤٨ ، وما حدث في ١٩٦٧ وما بينهما .

شيء واحد يأباه الصدق الفني في بناء القصة هو هذه التشبيهات التي يتدخل بها الكاتب ويقحمها على نسيج القصة فتظل نابية عنه لا تمتزج به ، وكنت اتمنى لو تخلص الكاتب منها. أضرب مثالا بتشبيهين فقط : الاول حين يتحدث عن الدرب في حياة ديوب العاصي فيصفه « بشريط تسجيل » ، ويمضي في المقارنة بين طرفي التشبيه ، والثاني حين يصف ملامح تمرة الكثيفة فيشبهها « بخطوط الطبوغرافيا التي تشير الى شدة ارتفاع الجبل » ! .

***

القصة الثالثة من حيث الاهمية في قصص العدد الماضي هي قصة فاروق بيضون .. « كنا خمسة .. » . والقصة تصوير لعالمين متقابلين: مدينة كوبنهاجن - عاصمة الدانيمرك - حيث يقضي الراوي واربعة من رفاقه ليلة رأس السنة وسط صخب المدينة وضجيجها الاحتفالي ، وعالم رجال المقاومة كما يتجسد في كلمات أحد الفدائيين الذي جاء الى المدينة ليعالج من اصابة اثناء احدى العمليات ، ولا زالت كلماته تدوي في رأس الراوي . وسط الاحتفال والصخب والمرح ، في الفندق والطريق والمرقص ، وعن طريق الانتقال بين العالمين ، والمزاوجة بين ما يراه وما يسمعه يرسم فاروق بيضون الاختلاف بين العالمين ، ويشير الى النهاية الطبيعية : رفاق خمسة يقومون باحدى عملياتهم في الارض المحتلة ، ورفاق (خمسة أيضا) يأتون من مدن متباعدة في اوروبا كي يقضوا ليلة مرحة في كوبنهاجن .. باريس الشمال . وانطلق عصام كانه يريد ان يهرب من ظل يلاحقه .. من سؤال ينفجر في اذنيه بعنف ، بقوة :

« - اتمنى لكم اطيب الاوقات في كوبنهاجن . ولكن ..

ولكن . .ولكن ..

وترددت هذه الكلمة في رأسه كالانفجار مدوية هازئة :

- ولكن ماذا تريدون في كوبنها جن ؟ .. »

نعم . ليس هذا مكانهم على أي حال ، فليس يكفي ان يضع أحدهم في حجرته البعيدة خريطة لارض فلسطين ، ولا ان يثور آخر على الصحافة الالمانية لانها تتحيز ضد العرب .. مكانهم الحقيقي حيث جاء هذا الرجل الجريح من الخليل ، يواصلون مع الرفاق رحلة التحرير والفداء .

في القراءة الاولى تبدو انتقالات فاروق بيضون من احد العالمين للآخر طيعة وسلسة ، لكنها - في القراءة الثانية المتمهلة - تتكشف عن تداعيات لفظية وميكانيكية اكثر منها عفوية ومتسقة مع البناء التعبيدي للقصة . انظر مثلا الى التعمد المصنوع في هذه الانتقالات :

- وخرج الاربعة من الفندق ، لفح وجوههم هواء قارس ، والنهر كان قد تجمد من شدة البرد . هذا يحدث في كوبنهاجن ، وعند الكلمات الاخيرة ينتقل الكاتب الى حديث الفدائي : « لقد تجمدت اطرافنا في الليل .. » .

- قال حمد وقد أشار بيده : « نعكف الى اليسار ، ونصل الى المكان الرئيسي .. » . ونرجع الى حديث الفدائي : « وصلنا الى البحر ، واتجهنا الى اليسار .. » .

- في كوبنهاجن كانت الزينة تعشش في كل مكان ، واللمبات الكهربائية الملونة ترسل ضوءها الخافت ، وسط هذا الجو الحافل بأنغام الموسيقى والغناء . عند هذه الكلمات الاخيرة .. « بعد طلقات الرصاص المتواصل ارهفت سمعي .. » .

وهكذا في بقية الانتقالات بين العالمين . يسرع ايقاع الانتقالات في هذا المقطع من القصة : « وخيل اليه انه لم يعد يرى بوضوح ، وان معالم المكان بدأت تضمحل امامه رويدا رويدا .. بل ها هو يرى بوضوح العيون .. عيون الراقصين والراقصات .. لا .. عيونهن : عيون بنات ونساء غزة وهن يتحدين العدو ، أسلاك العدو الشائكة ، رصاص العدو وقد تعالى في الفضاء . والعويل والصراخ قد ملأ الجو .. كلا !.. الضحك والمرح .. فالساعة قد بلغت الثانية عشرة ليلا .. كلا ! ظهرا. ونساء غزة ثائرات في الطريق يهتفن ، يصرخن ، يقعن أرضا مضرجات بدمهن .. كلا ! يقعن أرضا من الرقص العنيف والعبث المجنون .. » .

ان هذا الربط الميكانيكي والمتعمد يطبع القصة كلها بطابع الافتعال .

***

ثلاث قصص تتشابه من حيث اختيار الموضوع واللحظة القصصية في كل منها : « الرفض » لمحمود الريماوي ، و « الجرح لا يساوم » لرشاد ابي شاور ، ثم « الليل والرجال » لوليد الحاج عبد . القصص الثلاث عن فدائيين يسجلون العمليات التي يقومون بها (او خواطرهم بعدها) . اثنتان منهن ترويان بضمير المتكلم رغم ان الكاتب في الاولى اضطر لاضافة مقطع أخير بضمير الغائب بعد ان استشهد الفدائي الذي يكتب خواطره . الفداء في قصة محمود الريماوي رفض للعالم واصرار على تغييره بالسلاح ، كان يعشق دائما ان يكتب يومياته وخواطره ، حين كان ضائعا في المدينة . اما حين رفض العالم أصبحت له لغة اخرى اكثر جدوى . ولم يعد يكتب سوى « سائل وبعض الخواطر السريعة ، لكنه لا يثق كثيرا بأهمية الكتابة ، ولا يثق كذلك بالبيانات التي تذيعها صحف « لا تفهمنا .. » ، وخواطره سريعة مهوشة ، تطوف بكل شيء ولا تقف عند شيء : حياته القديمة ، وزواج أخيه وطلقات الرصاص التي اطلقت فيه ، وحكايات الرفاق الذين ينامون حوله ، وشخير عدنان .. الخ . قد تكون خواطر فدائي في لحظات راحته مهوشة ومتشابكة ومتسارعة على هذا النحو ، لكن الكتابة الفنية بحاجة لحد ادنى من الانتقاء والتركيز ، وهذا ما يضعف من قصة محمود الريماوي . وحين يستشهد صاحب الخواطر في نهاية القصة يتدخل الكاتب لينهي قصته فيعلن : في الصباح صدر بيان جديد ، لكن الرجل كتب قبل ان يغادر جسده « الجرائد لا تفهمنا . هل تلاحظون ؟.. » . هذه هي النهاية الفاترة التي اختارها محمود الريماوي لقصته .

بطل قصة رشاد ابي شاور جرح فقط ، وهو يكتب لامه رسالة بعد ان جرح . وهو واثق تماما من ان امه ستفهمه ، فهي مثله تعرف محمود درويش ومحمود حجازي ، وتعرف الموت المجاني الذي كان يمكن ان يلقاه في تلك البلد التي تضطهد الفدائيين ، اما الفداء فهو ما يمكن ان يعطي للموت معناه . لقد جرح ، وجرحه يطلب الثار ويأبى المساومة : باغتهم كمين مفاجىء بعد معركة الكرامة ، استطاع ان ينقذ رفاقه وجرح جرحا غير بليغ . أمه تستطيع ان تفهمه ، فهي تعرف انه ليس فظا ولا يحب القتل (وضروري انه ايضا كان يحب ابنة الجيران) ، لكنه انضم الى رجال الليل والصمت كي لا يعيش ابناؤه في المخيمات كما عاش . وهو الآن في كل مكان .. « فحيث ترحل اقدامي معهم يكون مكاننا ، نحن لا نلبث في مطرح واحد .. رحيل دائم ، لقد بدأنا .. ولن ننكفىء .. » .

افضل القصص الثلاث قصة وليد حاج عبد « الليل والرجال » ، وهي قصة استشهاد فدائي بعد عملية ناجحة اشترك فيها . مؤثرة ، ومركزة ، وصادقة . انسان لا نعرف عنه سوى أسمه، واصراره البطولي على ان يحمي رفاقه ، وان يظل حتى آخر لحظاته ثائرا ومنتقما ، يطلق الرصاص - بعد ان غطى الدم وجهه - حتى لا يفطن الاعداء الى خلو

الساحة فيتعقبوا الرفاق ، يقدم للاعداء الهدية ويأخذ بثار نفسه قبل ان يأخذه الآخرون . حتى اللحظة الاخيرة ظل محتفظا بوعيه واصراره على الفداء ، حتى حين ازداد الليل كثافة كأن ليل العالم كله القى ثقله في هذا المكان ، « وشعر بمعدته تطحن الفراغ والدوار يعصف برأسه فأيقن انه لن يستطيع صبرا ، وابتسم للغيب وهب واقفا ، وهدر السلاح بين يديه، وكأن مئات الابر وخزت رأسه وصدره وساقيه فهوى، وعندها شعر برباح يقبله مرة أخرى في جبينه .. » .

بمثل هذه النماذج يمكن للمقاومة ان تبقى وتتسع : ثلاثة رجال يخرجون من قلب الليل والظلمة ، يحملون سلاحهم ، والاصرار في قلوبهم ، يولجون في العتمة بيقظة وحذر حتى يصلوا الى هدفهم ، فيدمرونه ، ويسقط واحد ويرجع الرفيقان ليواصلا من جديد دورة الفداء .

***

بقيت في العدد قصتان هما في تقديري اضعف القصص : « قصاصات ورق » لفاروق منيب ، و « الطير تأكل من رؤوسهم » لعبد الرحمن مجيد الربيعي .

قصة فاروق منيب فاترة ومتكلفة : نتف من الذكريات المختلطة ، لا اتساق بين اجزائها المختلفة ، حاول الكاتب ان يكتب قصة عن « الرفض » فجاء بهذا البناء المصنوع الفاتر : حوار بين الذات والذات، واحاله الى كل « القيمات » المطروقة والمستهلكة ، الفن والحب ، ومعنى ان يكون الرجل رجلا . بطل القصة مثال .. اختار ان يعتزل العالم كله الى فنه ، لكنه يكتشف ان الفن عبث . نستطيع ان نفهم : ان هذا التمثال ليس الا جزءا من ذات الفنان ، هو الجزء الذي لا يصالح ويعتزل ، والحوار بين الفنان وتمثاله قد يؤكد هذا الفهم :

« اقترب من تمثاله : زعلانة ؟..

- لا ابدا ..
- ضروري تتعدل
- ضروري طبعا
- خذلتني يا شيخ
- صنعتني بيديك ..
- كان المطلق يسيطر علي
- وما ذنبي أنا ؟ ..
- الذنب ذنبك ..

هذا الحوار يمكن ان يستمر الى ما لا نهاية . انه كما قلت حوار بين الذات والذات ، الجانب الذي يرفض ، والآخر الذي يقبل ويتصالح . كذلك حوار الفنان مع النخلة . النخلة هنا يمكن ان تكون رمزا مزدوجا : هي رمز الصمود في الطبيعة من ناحية ، ورمز الالتصاق بالناس وحياتهم من الناحية الاخرى . قصاصة ثالثة تنقلنا الى صورة لفتاة فلسطينية مقاومة قادمة من الاغوار رأت حياة الكاتب ورفاقه فتأففت منها . أما ذلك المشهد بين الفنان وامرأته فهو ليس صادقا ولا مقنعا ، ولا يؤدي الى ما يستخلصه الكاتب من نتائج . فتململ الصغير الذي يريد الثدي ، وحياد الام « السخيف » بين الزوج والابن هو ما جعل الفراش باردا . هذا الموقف لا يمكن ان نستخلص منه : « ما فائدة الرجال ؟ .. هزموا في الحرب .. كل شيء لا طعم له ، ولا لون ولا رائحة ، الشعر عبث ، النحت عبث ، الطعام عبث ، الجنس عبث ، أرض سينا ملوثة ، المغرب يئن ويتوجع .. المرتفعات محصنة ، وأرض فلسطين تنتظر ... الخ . » .

هذا الموقف نمطي تماما في قصة فاروق منيب . ان الازمة لا تتغلغل داخل البطل ولا تعايش وجدانه ، لكنها مفروضة عليه ، من هنا جاءته القصة فاترة ومصنوعة ولا تنبض بالحياة .

القصة الاخيرة هي قصة عبد الرحمن مجيد الربيعي « الطير تأكل من رؤوسهم » . وهي تسجيل لحادثة شنق الجواسيس التسعة في بغداد . والقصة - في افضل حالاتها - ريبورتاج صحفي يسجل الحادثة ويعلق عليها . لقد قرأت لعبد الرحمن الربيعي قصصا افضل بكثير ، ولا زلت اتوقع منه ان يلتزم بفنية كتاب القصة القصيرة اكثر مما فعل في قصته هذه المتعجلة .

القاهرة

فاروق عبد القادر

تتمة المسرحيات

الدنيا وعرضها انهم انسانيون وانهم ينشدون السلام وانهم يريدون التعايش مع جيرانهم » . ان هذه الافعال تصعد ايقاع الصراع وتكشف عن عظمة هذا الكفاح وما فيه من عدم تكافؤ ماديا ، غير ان الفدائيين يملكون يقينا ملتهبا بعدالة قضيتهم وتماسكا نفسيا يكفل للمواجهة الصمود والاستمرار ، حقيقة ان هناك من تدفعه عواطفه الى ما يشط به لمواقف هي بمثابة رد فعل يدفع لقاء ارتكابه الكثير نتيجة لفقدانه الرؤية الموضوعية للمشكلة التي يواجهها « ليلى » و «هشام»، الا ان هناك مواجهة لهذا النوع من التصرف الواحدي ، موقف المجموعة التي تملك صيغة للتحرك بها وسط معاركها ، ولا تقوى اية ظروف مهما كان ثقلها العاطفي ان تفقدها منظور رؤيتها الموضوعية للامور « نزيه ـ فتحي ـ سعيد ـ الياس » حيث لا تنازلات ولا مساومات او مهادنة من اجل اي شيء ، وبذلك تكتسب فكرة المقاومة الفلسطينية معناها القيم .

تبدأ المسرحية في حل تعقيداتها التي اعقبت الازمة واعاقت الاجابة على السؤال الدرامي العام ، فاذا بهشام يعود من المعتقل حيث ينقذه احمد الذي عمل بالجاسوسية ، بعد ان ومضت داخله شهية ان يصير شريفا في لحظة حقارته خلال الموقف الذي جمعه بهشام في المعتقل وتعرف ان ثقل الرجولة ليس في ان يملك خارجه بقدر ما يملك داخله حيث لا سلطان سوى لما تريده وتختاره ، « لم احس يوما باحتقار لنفسي كما احسست تلك اللحظة . وحين رأيته يفقد وعيه ربما لانه رفض ان يشرب من يدي ، قررت ان انقذه وقلت انني بذلك سانقذ ابني اولا ، وسأتجنب احتقاره واحتقار كل الجيل الذي ينتمي اليه » لقد حول هذا الموقف « احمد » من تشبثه بقيمة علاقته بالعالم الخارجي الى تقدير عالمه الداخلي فكان تغير سلوكه نتيجة للحظة الكشف هذه .

غير ان اجابة السؤال الدرامي العام للمسرحيةاصبحت غير ذات موضوع ، او بمعنى اشمل انه قد اجيب على موضوع السؤال ، وذلك بعودة « زياد » ، موضوع التساؤل وكذلك عودة « ليلى » ، وتنفرج كل التعقيدات التي تشابكت وصعدت الحدث الدرامي لمنتهاه ، ويعود المؤلف ليحلق في جو الرمز مستخدما واقعة اغتيال براءة « ليلى » مؤكدا ذلك التناغم بينها وبين الارض منهيا مسرحيته وهو ينسج بين وقائع المسرحية ومطلق رمزه بشاعرية فائقة ، حين نرى «هشام» ساجدا على الارض ويبدو جبينه معفرا بالتراب ، وتظهر له ليلى كأنها طيف سماوي ترتدي ثوبا ابيض اشبه بثوب العرس (ذهابها للعمل كممرضة باحد المستشفيات) ويهتف هشام « كنت دائما واثقا من انك سوف تعودين الي محررة ، نقية رائعة » ، ان المؤلف قد وظف شخصية « ليلى » توظيفا فكريا ناجحا حين سلبها عفتها وحين لم يفصح عن كيفية هذا السلب ، فكشف الرمز تماما ، وهو ان كان قد انهىمسرحيته في اطار الاحداث التي توالدت وتعقدت ثم انفرجت وحلت تعقيداتها ، الا انه ايضا لم ينه القضية العامة التي تدور في اطارها المسرحية : فالارض ما زالت بعد لم تعد نقية رائعة ، وما زال حلمنا بها ان تعود نقية ، انه مجرد حلم يتراءى لنا ، تماما كما تراءى « لهشام » ، ويطرح المؤلف وجهة نظره في المشكلة ، انه لا مناص من العمل داخل الارض نفسها وعلى ترابها .

ان المسرحية قد تمخضت عن كم من التفاؤل النقي غير المحلق في الاحلام والوهم ، وفق بناء مسرحي جلي بسيط اكسب المسرحية امتلاء حياتيا لشخصياتها فلم يسم بهم الى ما فوق مرتبة البشر ولم ينحط بهم الى مرتبة هياكل الطين ، فجاء استخدامه للشكل المسرحي الذي اختاره يلائم غرضه تماما في مخاطبة ملايين الجماهير حيث تسلم حوادث المسرحية نفسها ببساطة شديدة محدثة اثرها من غير ما تعقيد او تحليق ملغز .

القاهرة — **فوزي فهمي**

الى أين المصير

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الفرقة والشقاق على أسس قومية او اقليمية او قبلية .. الخ . ولهذا فان المقاطعة العربية لاسرائيل ، ورفض الاعتراف بها والاصرار على عدم التسليم بالامر الواقع ليست مجرد موقف غضب للكرامة المهدرة والحق السليب فحسب ولكنها وسائل فعالة فيمقاومة المخطط الصهيوني، بل انها كانت أنجح ما استخدم العرب من وسائل حتى الآن .

فالصهيونية العالمية تريد اذن ، في التحليل الاخير اقامة نوع من الدولة الاستعمارية تسيطر على المنطقة كلها اقتصاديا على الاقل كشريك صغير للامبريالية العالمية ، تخدمها وتستفيد منها . وككل مشروع للاستعمار الاستيطاني ، لا بد للمخطط الصهيوني من ايديولوجية تضمن تحمس القائمين به لتنفيذه ، وتحاول تبريره أمام الرأي العام العالمي . فالغزو الاوروبي للشرق العربي في القرون الوسطى تستر وراء الصليب . وكذلك فعل « الكونكويستادور » حين دمروا حضارة الانكا والازتك في أمريكا الجنوبية والوسطى . وفي شمالي أمريكا كان أولئك الذين غادروا أوروبا في القرن التاسععشر ليبنوا في العالم الجديد مجتمعا أفضل لا يتورعون باسم هذا المجتمع عن القضاء على الهنود الحمر . وغزا الاستعمار الاوروبي أفريقيا تحت شعار نشر المدنية ... الخ .

وأول سلاح في الترسانة الايديولوجية للصهيونية هو **العنصرية** . ونحن في الشرق العربي ألفنا دائما أن ننظر الى اليهودية كدين ، كأحد الاديان السماوية الكبرى التي تمتع معتنقوها بوضع خاص في دولة الاسلام . ولهذا يصعب علينا أن نتصور تميز اليهودي بشيء آخر غير الدين . أما في أوروبا فان الواقع التاريخي لاضطهاد اليهود ، وعزلهم عن المجتمع ، والزامهم بالمعيشة مجتمعين بعيدا عن بقية البشر ، أبقى الى أمد بعيد عناصر تميز للاقليات اليهودية واحساسا بهذا التميز عند الاغلبية المسيحية . وقد نجحت الثورة البورجوازية الديمقراطية في تصفية هذا الوضع الى حد بعيد في أوروبا الغربية . ولكن تخلف الثورة في شرق أوروبا ، حيث تجمع تاريخيا العدد الاكبر من يهود أوروبا ، حال دون تحقيق مثل هذا الاندماج . ولذلك تأكد التمايز اليهودي . وكان يمكن أن يؤدي انتصار الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي الى تصفية هذا الوضع الشاذ . ولكن محاربة الصهيونية العالمية لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها من جهة وتجدد الاضطهاد العنصري على يد النازية من جهة أخرى أعادت طرح المشكلة اليهودية برمتها وبأعنف صورها على الضمير الاوروبي . ومن ثم اصبح عدد كبير من الناس الشرفاء يعطفون على رغبة اليهود في أن يكون لهم موطن يلجأ اليه من يحس منهم بأنه لا يستطيع الاندماج في الوطن الذي يعيش فيه . وتكتفي الصهيونية عادة بهذا القدر الادنى من العطف على أهدافها . ولكنها احيانا تطرح القضية على أساس اعمق فتزعم أن اليهود يشكلون قومية متميزة لان النظرة العنصرية الخالصة غير مقبولة من الرأي العام العالمي . والواقع أن دعوى **القومية اليهودية** المتميزة ليس لها أي سند واقعي أو علمي فليس بين « الفلاشة » في الحبشة « وبني اسرائيل » في الهند من ناحية ، ويهود باريس أو نيويورك من ناحية أخرى أدنى صلة قومية مشتركة من تعايش أو لغة أو تراث فكري وحضاري . وربما كانت الحالة الوحيدة التي تستدعي النظر هي حالة يهود روسيا القيصرية وشرقي أوروبا الذين كانوا يعيشون في تجمعات كبيرة في مناطق متقاربة ، وكانت لهم لغة خاصة هي « اليدش » عاشت عدة قرون وازدهرت كلغة ثقافة . وكان من المتصور أن يكون هؤلاء نواة قومية مستقلة . ولكن الصهيونية العالمية ناضلت بغير هوادة لتقضي على هذه الظاهرة وكافحت لاحياء لغة ميتة هي العبرية ولتقتل لغة حية هي اليدش . فكما حاربت الصهيونية العالمية اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها ، حاربت تطور وضع جماعات منهم الى قومية متميزة لان مثل هذا التطور كان من شأنه أن يهدم الفكر العنصري من أساسه . ومهما يكن من الامر ، فان الاساس العنصري سلاح في يد الصهيونية لتعبئة اليهود في كل مكان لمساندة دولة اسرائيل . والصهاينة لا يكتفون بالتعاطف الطبيعي لدى اليهود بل يلجأون لاشكال ابتزاز سافرة ويفرضون على كثير من اليهود تأييد اسرائيل فرضا بوسائل تصل الى حد التهديد بحرق المتجر وتتضمن بالطبع المقاطعة الاقتصادية . ومن ثم فان اليهود الذين يعارضون الصهيونية يواجهون بالفعل مصاعب جمة ويستحقون التقدير لشجاعتهم . ويبقى بعد ذلك ان تأييد « الدياسبورا » عنصر أساسي في دعم اسرائيل يأتي مباشرة في المرتبة التالية للتأييد الاستعماري .

كذلك **تستغل الصهيونية الدين أسوأ استغلال** . ويبدأ ذلك بمحاولة تأسيس الدعوة لانشاء اسرائيل ، ثم لتبرير وجودها ، بالحديث عن الوعد الالهي لبني اسرائيل بأرض كنعان . فحيث لا يقبل المنطق الحديث عن العودة الى أرض كان يسكنها يهود قبل ألفي عام ، تخاطب الصهيونية العاطفة الدينية لتؤكد لليهود أنه لا بد من « العودة » . ويؤكد طابع استغلال الدين أن عددا من كبار قادة الصهيونية لا دينيون ، وانما هم يستخدمون الدين عن وعي كأسلوب لتعبئة بعض الجماهير . كما يؤكد ذلك أيضا معارضة بعض اليهود لدولة اسرائيل على أساس ديني ، باعتبار أنه لم يسبق قيامها ظهور المسيح . ولا يقف استغلال الدين عند هذا الحد . فالصهيونيون المتعصبون يجدون في التوراة نصوصا تبرر كل جرائمهم . فاقامة دولتهم في وطن الغير ، أمر طبيعي ، لان « يهو » وعد بني اسرائيل بأرض كنعان ، أي بأرض مملوكة لغيرهم، وقادهم **« الى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون**

لم تغرسها ، وأكلت وشبعت » (**تثنية : ٦ – ١١ ، ١٢**) أليس في هذا تبرير للاستيلاء على دور العرب «وبياراتهم» وأرضهم ؟ وحين يقومون بطرد العرب من فلسطين يستشهدون بما جاء في سفر الخروج : « **فاني أدفع الى أيديكم سكان الارض فتطردهم من أمامك . لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا لا يسكنوا في أرض لئلا يجعلوك تخطىء** » (خروج : ٢٣ – ٢٢ ، ٢٣) . أما المطامع التوسعية فسندها عندهم : « **لنسلك أعلى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات** » (تكوين : ١٥ – ١٨) . ولا غرابة بعد ذلك أن يكون جوهر سياسة اسرائيل ترك مشكلة الحدود غير محسومة أبدا ، لانها لا تسلم الا بحدود « اسرائيل الكبرى » من النيل الى الفرات . على ان استغلال الدين لا يقتصر على التأثير على جماهير اليهود ، وانما يمتد على يد الصهاينة الى بعض المسيحيين . فمن المعروف أن المذهب البروتستانتي قد تميز بالدعوة الى دراسة العهد القديم ، وتمثل أحكامه والتأثر بها . ومن ثم تستغل الصهيونية هذه الاوضاع في استدرار عطف البروتستانت على اسرائيل باعتبار أن قيامها واعادة بناء الهيكل بشير بظهور السيد المسيح . وقد نجحت بالفعل في زيادة العطف على اسرائيل في بريطانيا وأمريكا ، كما ان مراجعة موقف الفاتيكان من مسؤولية اليهود عن صلب المسيح تدخل في اطار التقريب من المذاهب المسيحية ، فضلا عن التأثير المباشر للصهيونية على الكنيسة الكاثوليكية نفسها .

واخيرا تستخدم الصهيونية السلاح الايديولوجي التقليدي للاستعمار ألا وهو « **التفوق الاوروبي** » . لقد آمنت أوروبا وأمريكا الشمالية لعشرات السنين بأنها موطن المدنية ، وأنها أرقى شعوب العالم ، وأن رسالتها التاريخية هي تحضير البشرية . وما زالت في الغرب دوائر ترى في تحرير السود والصفر وزيادة عددهم خطرا داهما يهدد المدنية الاوروبية وحضارة الانسان كلها ، ويقدم الصهاينة اسرائيل للغرب على أنها جزء منه ، تتجسد فيها حضارته في مواجهة العرب . ولهذا نجد القوى اليمينية المتطرفة وأصحاب الاتجاهات الفاشية والعنصرية في أوروبا وأمريكا تتبنى قضية اسرائيل ، وتقف الى جوارها ضد العرب . بل اننا نجد النازيين السابقين والجدد يتفانون في خدمة اسرائيل ومعاونتها والتجسس لحسابها ، لا تكفيرا عن الجرم أو شعورا بعقدة الذنب كما يقال في ألمانيا الغربية ، وانما استمرارا في الموقف العنصري الاصيل . لقد قالت النازية ان اليهود جرثومة تهدد الحضارة الاوروبية لانهم ليسوا أوروبيين ، بل ساميون أي شرقيون . وهجرتهم الى اسرائيل هي بالتالي استجابة لمنطق النازية العنصري . ومعاونة النازيين لهم تأكيد لتخليص أوروبا منهم واستخدامهم لهم في مواجهة هبة الشرق العربي التحررية . ان العنصريين يلتقون دائما . وحكام روسيا القيصرية قد أيدوا هرتزل والدعوة الصهيونية . وكبار القادة الصهيونيين كانوا على صلة بهتلر وطغمته . وفيما وراء الدوائر المتعصبة والرجعية ، تجد اسرائيل دائرة واسعة من العطف على فئات كثيرة ليست بالضرورة ذات موقف رجعي في بلادها ، ولكنها قد ترسب في ضميرها تفوق الغرب وتشجيع كل ما هو أوروبي . والواقع أن مصائر اسرائيل بيد يهود أوروبيين هم أوروبيون قبل كل شيء ، يقيمون بالفعل دولة مصطنعة هي امتداد لاوروبا في قلب الوطن العربي . وهذا ما يلقي الضوء على رفض هؤلاء أن « يعيشوا كجزء من أهل المنطقة » كما يحلم بعض مثقفي اليسار الاوروبي . انهم مستوطنون أوروبيون لهم عقلية المستوطن التي لا تتصور العلاقة بأهل البلد الاصلية الا في صورة قهر وطرد وابادة أو سيطرة واستغلال .

المخطط الاستعماري

ويلتقي المخطط الاستعماري ، في خطوطه الرئيسية ، مع المخطط الصهيوني . فالغرب اقتسم تركة الرجل المريض في نهاية الحرب العالمية الاولى . ولم يكن فرض سيطرة الغرب على بلاد العرب أمرا سهلا . فقد اضطرت بريطانيا في سبيل مد سلطانها على هذه المنطقة الى الالتفاف من حول الثورة العربية ، وخداع قيادتها الاقطاعية ، وتغذية الاتجاه الانفصالي في مصر ، وقبول اقتسام الغنائم مع فرنسا . ومع ذلك فما كادت قدم الاستعمار تستقر حتى اندلعت الثورة الوطنية في مصر وسوريا والعراق ، ثم تجددت في المغرب العربي . ولهذا كان طبيعيا أن يقتنع الاستعماريون ، وقد أجهزوا على الرجل المريض بدعوة هرتزل ، وأن يتيحوا للصهيونية ارساء قاعدة للوجود الغربي في قلب الوطن العربي . وليس من قبل المصادفة أن يعاصر وعد بلفور مواثيق ماكماهون مع الشريف حسين ومعاهدة سايكس – بيكو مع فرنسا . وكانت هزيمة الفاشية العالمية نذيرا للاستعمار بتفجير حركة التحرر الوطني في العالم الثالث كله . وكان طبيعيا أن تدوي الثورة في أرض العرب التي لم تخمد نيرانها فيها طوال فترة ما بين الحربين . وكان الاستعمار يدرك أنه سيضطر الى تنازلات . وقد أرغمت فرنسا بالفعل على الانسحاب من سوريا ولبنان وأطاح الشعب المصري بمشروع صدقي – بيفن في حين أسقط الشعب العراقي معاهدة بيفن – جبر . وفي هذه الظروف أعلنت بريطانيا تخليها عن الانتداب في فلسطين بعد أن مهدت السبيل لقيام اسرائيل وبصفة خاصة بعد أن وفرت للوكالة اليهودية جيشا حديثا مدربا ومسلحا هو الهاجاناه . وكان مجرى الاحداث في الربع قرن الماضي في اتجاه المزيد من الانتصارات لحركة التحرر العربي ، والتصفية لقواعد الاستعمار في مصر والعراق والاردن والجزائر واليمن الجنوبي ... وهكذا بدت اسرائيل أكثر فأكثر **التجسيد الحي للوجود الاستعماري الغربي** في وسط منطقة تعج بالثورة الوطنية التي تفتحت أمامها آفاق التحول الاشتراكي . وكان طبيعيا أن يحرص الغرب على الوجود الاسرائيلي ويدعمه . فصدر سنة ١٩٥٠ التصريح الثلاثي

بضمان الاوضاع القائمة بين دول المنطقة . وتعاونت بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بكل ما تحتاج اليه في سخاء لا يكفي لفهمه نفوذ الصهيونية فيها ، وانما يفسره في الاساس احساس تلك الدول بأنها تدافع عن قضية تهمها ، وتصون مصالح للاستعمار الغربي أو « للعالم الحر » كما يقولون .

ولكن الوجود الاسرائيلي قد اثبت انه قادر على أداء خدمات جليلة للاستعمار ، زادت من مساندة الاستعمار للدولة الصهيونية . فالكفاءة العسكرية التي تميزت بها اسرائيل أضفت بعدا جديدا على دورها في المنطقة . لقد رشحتها تلك الكفاءة لكي تكون **كلب الحراسة الشرس** الذي يحمي مصالح الاستعمار . ففي كل فترة مد لحركة الثورة العربية كانت اسرائيل تتحرك لتضرب وتوقف التقدم . فالحرب التي ولدت منها اسرائيل وتوسعت لم تكن تعني بالنسبة للعرب مجرد فقد معظم أرض فلسطين ، ولكنها كانت الفرصة المواتية للاستعمار والرجعية لضرب الحركة الوطنية واعتقال العناصر الثورية واشاعة الارهاب بقصد فرض شكل جديد من أشكال الارتباط بالاستعمار . لقد كانت تلك الحرب نكسة كبرى للعمل الوطني كسرت موجة الثورة العارمة التي هزت ارجاء الوطن من قسطنطينة الى بغداد . وفي سنة ١٩٥٦ ثبتت الثورة الجزائرية اقدامها وبدأ الكفاح المسلح يأخذ طابع الحرب الشعبية الشاملة ، في حين كانت القاهرة تقود الحملة ضد حلف بغداد وتعلي راية الحياد الايجابي وتبدأ التحرر بتأميم قناة السويس . وعندئذ أطلق الاستعمار كلب الحراسة من عقاله وخلفه وحوله قوات بريطانية وفرنسية . وكان هدف العدوان هو ضرب الثورة في مصر واجبارها على الخضوع للضغط الاستعماري وتصفية ثورة الجزائر . في سنة ١٩٦٧ جاء العدوان الاسرائيلي بعد اخفاق محاولات الانقلاب في مصر وسورية ، وبعد الصمود المصري أمام الضغوط الامريكية ، وبعد معركة سورية مع الاحتكارات البترولية ، وبعد انتصار الثورة في جنوبي اليمن ودعمها في شماليه ، وبعد التقارب الواضح بين الدول العربية التقدمية . وهذا الدور الذي تلعبه اسرائيل يكسبها أهمية خاصة في نظر واشنطون . فأمريكا التي تريد ان تقوم بدور الشرطي في حماية مصالح الاستعمار العالمي وضرب حركات التحرر تحلم بوجود عدد من الدول تعتمد على مساعدات أمريكا الاقتصادية والعسكرية والسياسية وتتولى عنها الصدام مع قوى التحرر . ولم تنجح هذه السياسة الا في اسرائيل . فهي الدولة الوحيدة التي ترحب بالمساعدات الامريكية ويغمرها العرفان بالجميل الامريكي . وبها نظام حكم قوي ومستقر ، ولها جيش ضخم يبدأ تدريبه من الطفولة وينشأ على العدوان وتمجيد العنف ويسعده ان يلعب دور « الانكشارية » في خدمة الاستعمار . ان واشنطون مستعدة لدفع الثمن لمن يحمي مصالحها في البلاد العربية ، وفي مقدمتها البترول .

وفيما وراء المصالح المادية الملموسة لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك ، يلوح الهدف الاستراتيجي للغرب الاستعماري، **الا وهو الحيلولة دون الثورة العربية ودون تحقيق وحدة الامة العربية في دولة متحررة ، ديمقراطية وتقدمية** . ان الغرب يرى في اسرائيل جزءا منه زرعه زرعا في قلب الوطن العربي ليقسم الارض العربية ، ويكون ركيزة أمامية تحد من انطلاق الثورة العربية وتستنزف الكثير من مواردها . ان الجو الذي صاحب العدوان الاسرائيلي في الغرب كان جو « حرب صليبية » يعيد الى الاذهان أيام برباروسة وقلب الاسد ولويس التاسع . اننا كثيرا ما ننسى حقيقة الصدام الحضاري بين الغرب والوطن العربي . ان دعاة الحضارة الغربية يرون أنها الحضارة الاسمى (او الحضارة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم) ، ولدت في اليونان ، وانتصرت وانتشرت على يد الرومان ، ثم تفجرت ينابيعها من جديد بعد ظلمات العصور الوسطى في أوروبا الغربية ، ثم بلغت أوجها اليوم في الولايات المتحدة الامريكية . ولكن بلادنا هي التكذيب الصارخ لهذا التبسيط العنصري لتاريخ الحضارة البشرية . لقد كان في وسع الغرب أن يتجاهل الصين والهند ــ على عراقة الحضارة فيهما ــ نظرا لبعدهما ولتأثيرهما المحدود في تطور بقية البشرية . أما بلادنا فهي على الساحل المقابل من البحر المتوسط ، وفيها ولدت أقدم الحضارات على ضفاف النيل والفرات وفي شمالي سورية وجنوبي جزيرة

العرب . وحين سيطرت أوروبا الرومانية على هذه المنطقة لم تستطع ان تغير من وجهها ، ولا أن تطمس حضارتها أو تصبغها بصبغة الرومان . بل ان المسيحية التي ظهرت في أرض فلسطين هي التي غزت الامبراطورية وقوضت دعائم حضارتها القائمة على الرق . وحين صادرت الدولة الرومانية دين الناصرة وبيت لحم لحسابها ، وحاولت استغلاله في دعم سيطرتها ، قاومها مسيحيو الشرق ، وفي مقدمتهم أقباط مصر . ثم ظهر الاسلام نورا وقوة فتحررت الارض ، وقامت دولة كبرى ذات حضارة زاهرة، رفضت التعصب العنصري والديني ، وعرفت من التسامح ما لم يسبقها اليه أحد ، تمثلت ما سبقها من حضارات ، واخرجت للبشرية اعلاما في الفكر والفلسفة والعلوم . وحين أخذ التفكك يدب في الدولة العربية الاسلامية ، سارعت أوروبا لغزو الشرق العربي متسترة وراء الصليب . وغلب العرب في مواقع كثيرة ، ولكنهم نجحوا في النهاية في رد الصليبيين على أعقابهم مدحورين . ولم تنس أوروبا الهزيمة ولا فقدت الطمع . وحين دخل المارشال اللنبي القدس في نهاية الحرب العالمية الاولى ، كانت أولى كلماته : « الآن قد وضعنا حدا للحروب الصليبية » . ان بلادنا كانت في العصر الحديث آخر بلاد وقعت في قبضة الاستعمار الغربي ، وكانت أول بلاد تمردت عليه وتخلصت منه . وهي من البلاد النادرة التي لم يستطع ان يغير من شخصيتها القومية ، أو يقتلع لغتها، أو يضيع معالم حضارتها . ونجاح الثورة العربية يعني قيام دولة كبرى ، لها من عدد السكان واتساع الرقعة والموقع الجغرافي وغنى الموارد والتراث الحضاري ما يجعلها قادرة ، رغم ما تعاني من تخلف في الحاضر ، على ان تتبوأ في السياسة العالمية مركزا مرموقا ، وأن تقطع في طريق التقدم شوطا بعيدا في زمن قصير . وتجربة الصين الشعبية ، التي دخلت عصر الذرة بعد أقل من عشرين عاما من انتصار ثورتها ، دليل ساطع على القدرات الكامنة لدى الشعوب الكثيرة العدد العريقة الحضارة . والغرب الاستعماري يدرك هذا كله . ولذلك فهو لا يألو جهدا في التربص بحركة التحرر العربي ، ويستخدم كل ما تحتويه ترسانته من أسلحة الاستعمار قديمه وجديده ، لينال منها داخليا وخارجيا : يستنزف قواها ومواردها ، ويفرق صفوفها ، ويحاول النيل من عزيمتها . واسرائيل هي القطعة المختارة في لعبة الاستعمار الآثمة .

استراتيجية على مستوى الصدام الحضاري

وهكذا تتضح حقيقة التحدي المروع الذي تواجهه الامة العربية . فاسرائيل عدوان مستمر على الشعب العربي في فلسطين ، وهي حاليا عدوان على الشعوب العربية المجاورة لفلسطين ، وهي مستقبلا عدوان على كل الشعوب العربية في المشرق والمغرب على السواء (فمطامع اسرائيل الافريقية وخبرة فريق من سكانها بالمغرب العربي أمر معروف) ، وهذا كله يندرج في التحليل الاخير في اطار مخططات الاستعمار الغربي ضد الوطن العربي ، ويشكل داخلها جزءا متميزا بأطماعه الخاصة وقدراته الذاتية .

وفي ضوء هذا الفهم ينكشف **سراب الواقعية** ، أيا كان اللون الذي تظهر به . فالعدوان على مطار بيروت وضع حدا ، أو ينبغي أن يضع حدا ، لكل تفكير « واقعي » مبني على أن حسن العلاقة بالدول الغربية ضمان لاي بلد عربي ضد العدوان الاسرائيلي . والدول العربية المنتجة للبترول تقع في وهم خطير اذا ظنت ان مصالح الاستعمار البترولية تقيها ضد مطامع اسرائيل ، لان البترول نفسه هدف أساسي للصهيونية ، والاحتكارات العالمية للبترول مفتوحة أمام النفوذ الصهيوني ، والاحتكارات الامريكية بالذات يسعدها أن تركز عمليات التكرير والتصنيع في اسرائيل لتصدر لاوروبا منتجات بترولية بدل تصدير البترول الخام . كذلك يخطىء بعض المثقفين الذين تؤثر فيهم الدعاوى القائلة بأن سياسة العداء لاسرائيل مهدت الطريق لوثوب العسكريين الى السلطة في عدد من البلدان العربية ، والى اهدار الحريات الديمقراطية ، وتحميل الاقتصاد القومي بأعباء التسلح الجسيمة على حساب التنمية الاقتصادية . ذلك أننا لا نملك أن نسالم اسرائيل، لان السلام الاسرائيلي كالسلام الاستعماري لا معنى له الا السيطرة من جانبها والخضوع المتزايد من جانبنا . وعبثا يقال ان السياسة العربية تستعدي اسرائيل وتحملها على العدوان حملا بتهديدها المستمر لوجودها . فقد رأينا ان العدوان جزء من طبيعة هذا الكيان الصهيوني الاستعماري. وهنا يصدق كلام ماوتسي تونج حين يقول : « انك لا تستفز النمر ، لان النمر مستفز بطبعه » . ولهذا فلن يجدي شيئا ان نسلم بالامر الواقع ، ونتقبل الوجود الصهيوني في جزء من أرض الوطن لندخل معه في نوع من المنافسة السلمية . ولا يجوز الاحتجاج هنا بمنطق التعايش السلمي في المجال الدولي ، لانه لا تعايش سلميا بين الاستعمار وضحاياه، وانما التعايش السلمي والمنافسة السلمية تكون بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي المستقر كل منهما في عدد من الدول المستقلة ذات السيادة .

ومن ناحية أخرى ، لا بد من الاقرار بأن هذا **الصدام الحضاري الذي نواجهه يفرض علينا نضالا طويلا وشاقا ، متشعبا في مجالاته ، متنوعا في أساليبه ، مريرا فيما يستوجب من تضحيات** . فتصفية القاعدة الصهيونية الاستعمارية لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة . اننا يجب ألا نخدع أنفسنا عن الواقع المرير . بل يجب أن ندرك تماما أنه في حدود علاقات القوى الحالية في المنطقة لا يستطيع العرب سحق العسكرية الاسرائيلية ، حتى بدون تدخل مباشر من القوات الاستعمارية . وعبثا نحاول أن ندور حول هذه الحقيقة برفع شعار الحرب الشعبية ، ذلك أن الحرب الشعبية في جوهرها حرب ثورية يخوضها شعب

ضد جيش احتلال أجنبي أو جيش رجعي محلي . وهدفها في الحالة الاولى اقناع المحتل باستحالة الاستمرار في الاحتلال لان تكلفته باهظة تفوق بكثير كل المزايا التي يحصل عليها المستعمر منه . وهذا بالدقة ما حدث في الجزائر فحمل حكومة ديجول على المفاوضة ثم الانسحاب. وهذا ما يحدث اليوم في فيتنام . فالنضال البطولي للشعب الفيتنامي لم يقذف بالامريكيين في المحيط ، ولكنه أثبت لهم استحالة استمرار العدوان وتحقيق اهدافه . أما في الحرب الاهلية ، فان الحرب الشعبية اما ان تفضي الى انهيار النظام الرجعي من الداخل ، واما أن تتحول الى حرب نظامية . وجيوش ماو التي وجهت الضربة القاضية الى تشانج كاي تشيك واحتلت بكين وكانتون وشنغهاي كانت جيوشا نظامية . اما اسرائيل فانها تمركز قوتها الضارية داخل حدود دولية معترف بها وفي اطار سيطرتها العددية . وحتى اذا تخيلنا مواجهة عامة للاستعمار واسرائيل بحرب شعبية على نطاق الشرق العربي كله ، فان الاعداد لها وتوفير ظروفها داخل الدول العربية أمر يستغرق عدة سنوات ، كما أن الحرب الشعبية نفسها ليست حربا خاطفة وانما هي بطبيعتها سنوات قتال طويلة . ولكل ذلك فلا بد أن نتخلى عن نفاد الصبر وقصر النفس وأن نهيىء أنفسنا لنضال طويل ومرير . ولنا أن نتمثل تجربة العدو الصهيوني الذي رسم استراتيجية على مدى قرن ، فقد مرت اكثر من عشرين سنة بين تحديد الصهيونية لهدف اقامة دولة في اسرائيل وبين الحصول على وعد بلفور ، ومرت ثلاثون سنة بين الوعد المشئوم واقامة الدولة بالفعل . ولم يكن كل ذلك الا خطوة أولى .

وما دام الصراع طويلا ومريرا بهذا المدى فلا بد له من استراتيجية . لا بد له من تخطيط واضح لهدف ، طويل المدى ، يحكم كل المواقف التكتيكية . أما الهدف فيجب أن نتفق عليه ونوحد رأي غالبية العرب حوله ، وهو لا يمكن أن يكون الا : القضاء على القاعدة الصهيونية الاستعمارية . وليس في هذا الهدف بحال تصفية سكان اسرائيل عضويا ، أو القاؤهم في اليم أو اخضاعهم لاي تمييز عنصري أو قهر ثقافي من أي نوع . ولما كان هذا الهدف بعيدا ، فان من الطبيعي ألا نملك منذ الآن تحديد اشكال محددة وأساليب عملية يتحقق في اطارها ، وانما كل ذلك يتحدد عمليا حين تنضج الظروف لتحقق الهدف وتحت تأثير تلك الظروف بالذات . لقد قبلت الثورة الجزائرية من اتفاقيات افيان بقاء المستوطنين الاوروبيين والاقرار لهم بالحق في اختيار الجنسية الجزائرية أو الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية أو التمتع لمدة ثلاث سنوات بالجنسيتين معا . وبالرغم من ذلك غادر المستوطنون أرض المليون شهيد . ومهما يكن من امر فأننا نعتقد ان الصياغة التي نقدمها تكفي لتحديد هدف النضال العربي بالقدر الذي يسمح لنا باتخاذ المواقف التكتيكية والمرحلية على أفضل وجه تتيحه ظروف كل مرحلة ، وفي ضوء الهدف الاستراتيجي .

وكل ما نملكه الآن هو تحديد عناصر الاستراتيجية العربية . وفي اعتقادنا أنه يمكن تحديد أهم تلك العناصر على الوجه الآتي :

١) المحاصرة ، أي محاصرة اسرائيل حتى تتم تصفية وضعها كقاعدة استعمارية صهيونية . فمحاصرة المنطقة الموبوءة أول اجراء وقائي تفرضه ضرورات حماية الوطن له . وكوبا لا تستطيع مرحليا تصفية قاعدة جوانتنامو ، ولذلك فهي تحاصرها . وهذا الحصار يقتضي قبل كل شيء رفض الاعتراف القانوني باسرائيل ، وعدم التسليم بشرعية وجودها ، وبالتالي عدم التفاوض معها . وليس في هذا ما يمكن أن يسمى سياسة النعامة . فنحن لا ننكر الوجود المادي لاسرائيل ، وموقفنا الفعلي منها هو موقف الاعتراف الواقعي الذي تمثل في توقيع اتفاقيات الهدنة وفي الجلوس معها في المحافل الدولية . ولكن الاعتراف القانوني معناه التسليم بشرعية العدوان . وهذا ما يجب أن نرفضه في اصرار. ولا يوجد في قواعد القانون الدولي ما يلزمنا به . ويجب أن نقاوم أي ضغط من أية جهة يرمي الى انتزاع هذا الاعتراف . وأول تطبيق عملي لفكرة الحصار هو **المقاطعة الاقتصادية** . وقد رأينا أن هدف اسرائيل هو في النهاية الاستعمار الاقتصادي

للمنطقة . ومن ثم يجب أن نسد كل المنافذ أمام محاولات التسرب الاسرائيلية . ويلي ذلك أهمية التوعية بالخطر الصهيوني الاستعماري وضرورة الاستعداد لمواجهة احتمالات العدوان في أي لحظة .

٢) **دور شعب فلسطين** ، في النضال من أجل حقه المشروع في وطن مستقل . ان أهم ظاهرة ايجابية في فترة ما بعد هزيمة ١٩٦٧ هي بروز دور الشعب الفلسطيني نفسه . واسرائيل لا يمكن أن تستقر وأن يهدأ لها بال ، والشعب الذي طردته من أراضيه يطالب بحقه ويناضل من أجله . ولو نجحت الصهيونية والاستعمار في تصفية القضية الفلسطينية بأي شكل من الاشكال ، نكون قد خسرنا أهم معاركنا في هذا المجال . والمقاومة الفلسطينية ليست العمل الفدائي وحده . ان بطولة الفدائيين يجب ألا تلهينا عن أشكال المقاومة الاخرى . فالاضراب ، ورفض التعاون مع السلطات الاسرائيلية ، والمظاهرات الشعبية ... الخ أساليب أساسية في المقاومة . بل ان مجرد البقاء في الارض والصمود لمحاولات الطرد تعد في مواجهة الاستعمار الاستيطاني سلاحا حاسما .

٣) **ضرب الاستعمار في أضعف مواقعه** ، وما دمنا نسلم بالترابط الوثيق بين مخطط الصهيونية وخطط الاستعمار ، وندرك أن اسرائيل كلب الحراسة للمصالح الاستعمارية ، وأن الاستعمار يساندها من أجل ذلك بكل ما يملك من أسباب القوة ، فانه يغدو واضحا أن كل اضعاف لمراكز الاستعمار في المنطقة اضعاف لاسرائيل . ان تطور موقف فرنسا من اسرائيل لا يمكن فهمه في ضوء شخصية ديجول وحدها ، بل انه انعكاس لتطور علاقة فرنسا بالبلاد العربية . فحين كانت فرنسا تحتل الجزائر وتحتفظ بالقواعد العسكرية في تونس ومراكش شاركت اسرائيل في عدوان ١٩٥٦ . ولما تمت تصفية المواقع الاستعمارية الفرنسية في البلاد العربية فقدت اسرائيل الجزء الاكبر من أهميتها في نظر فرنسا ، وتغلبت عندئذ ضرورات المحافظة على علاقات طيبة ببلاد تضم قرابة المائة مليون نسمة وتتمتع بموارد طبيعية ضخمة . ولنا أن نتوقع في المدى القريب تطورا مماثلا في سياسة بريطانيا ، وان كان لا بد من أن يحد منه ارتباط السياسة البريطانية باتجاهات واشنطون . وما دامت المعركة ضد الصهيونية وضد الاستعمار معركة واحدة ، فانه يتعين علينا ان نختار اضعف الحلقات ونبدأ بتوجيه الضربات اليها . ولا شك ان اسرائيل ليست أضعف الحلقات في هذه الجبهة . وبالعكس يمكن مثلا في مستقبل قريب للغاية تصفية **القواعد العسكرية الاستعمارية** في الوطن العربي ، تلك القواعد التي تستخدم في مساندة اسرائيل . ويلي ذلك **تأميم البترول العربي** . اننا نتميز في البترول بميزة نادرة وهي أن المستهلك الاساسي لانتاجنا منه هو أوروبا الغربية ، في حين أن المستثمر الاساسي هو الولايات المتحدة الامريكية . ولهذا فلن يترتب على التأميم مقاطعة شاملة للبترول العربي لا سيما اذا اقتصر التأميم على مصالح الدول التي تساند اسرائيل ، لانه سيكون من مصلحة أوروبا شراء البترول من عندنا لان سعره أرخص من البترول الامريكي ، ولانه يمكن دفع ثمنه بصادرات أوروبية الى بلادنا .

٤ **بناء الوطن العربي اقتصاديا وسياسيا وعسكريا** ، فالتفوق العسكري الاسرائيلي محصلة درجة معينة من النمو الاقتصادي والتصنيع والتقدم التكنولوجي والتنظيم السياسي العصري . وهذا التطور غير ممكن الا في ظل التحرر من الاستعمار واختيار طريق التطور الاشتراكي والسعي الدؤوب لتحقيق الوحدة العربية . فنضالنا من أجل التنمية الاقتصادية ونشر التعليم وتحرير المجتمع والمواطن من الاستغلال ، وبناء الصناعة واقامة جيوش وطنية مسلحة بالوعي وليس فقط بالسلاح الحديث ضرورة حيوية في هذا النضال المصيري .

٥) **اليقظة والقدرة على الردع** ، ولن تتركنا اسرائيل والاستعمار نبني في هدوء ونستعد ليوم اللقاء الحاسم . بل لا بد عند كل تقدم حاسم نحرزه من أن نتوقع عدوانا جديدا أيا كانت الدوافع والظروف . ومن ثم لا بد من اليقظة الدائمة ازاء مؤامرات الاستعمار والصهيونية . ولا بد أن تكون لدينا القدرة العسكرية على الردع . ان العدو لا يفهم الا منطق القوة . واذا كانت علاقات القوى لا تسمح لنا حاليا بسحق العسكرية الاسرائيلية فانه يجب ان نكون قادرين على مواجهة العدوان ورده ، وان نستطيع ان نهزم اسرائيل في بعض المعارك . لا بد من أن نضع حدا لمنطق القوة الذي تعيش به الصهيونية بين ظهرانينا . يجب ان نثبت لاسرائيل أنها لا تستطيع ان تفرض مشيئتها في أي وقت بقوة السلاح ، ونجعلها تدرك أن امامها خصما يتعين عليها أن تحسب له ألف حساب . وتندرج تصفية آثار عدوان ١٩٦٧ في هذا الاطار . فنجاح العرب في ارغام اسرائيل ـ بأية وسيلة ـ على العودة الى حدود ٤ يونيه ضربة مؤكدة لمنطق القوة وسياسة الارهاب . ان هذا النجاح يمكن أن يكون نقطة التحول الحاسمة في نضالنا كله .

٦) **الرأي العام العالمي** ، وعلينا ان نواجه الرأي العام العالمي بهذا الموقف الواضح . ذلك أنه لا يمكن ان نتجاهل دوره في كل نضال عادل . ومن السذاجة أن نقول فيما بيننا غير ما نعلن على العالم . لا بد أن تكون لنا لغة واحدة جوهرها الدفاع عن حقوقنا ضد مخططات الاستعمار والصهيونية بعيدا عن كل تعصب عنصري ، ومع النبذ الكامل لدعاوى القاء اليهود في البحر ... وما الى ذلك من العبث الضار الذي ينافي تقاليدنا الحضارية .

٧ – الرأي العام الاسرائيلي ، ويجب ألا نهمل اسرائيل من الداخل وما يجري فيها من صراعات . لقد حذرنا من الانخداع بالخلافات بين « المعتدلين » و « المتطرفين » من حكام اسرائيل . ولكن هذا لا يعني أننا ننفي تماما حقيقة وجود قوى تقدمية داخل اسرائيل مهما تكن ضعيفة . ان اسرائيل بعد عشرين عاما من قيامها تشكل مجتمعا له تناقضاته . ففيها استغلال استعماري يمكن ان يثير نزعات معادية للامبريالية . وفيها استغلال رأسمالي يمكن أن يفجر صراعا طبقيا . وفيها تمييز عنصري ضد اليهود الشرقيين يمكن أن يحدث انقساما خطيرا . حقا ان الجو العنصري المعادي للعرب بصفة عامة يستغل في طمس معالم الصراع الطبقي . وكلنا نعلم ان فقراء البيض في جنوبي أفريقيا او الولايات المتحدة ليسوا في العادة أقل تعصبا من الاغنياء . وهذا ما يفسر ضعف مواقع القوى التقدمية في اسرائيل . ولكن هذا لا يعني انكار وجودها . ففي الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية يوجد بيض يذهبون الى السجون لرفضهم الاجراءات العنصرية . وفي اسرائيل قوم يخاطرون بحياتهم لادانتهم العدوان واعلانهم شرعية المقاومة الفلسطينية . ولهذا لا بد من أن نقر ، ونقدر ، موقف أي اسرائيلي يدين العدوان . وعلينا أن نوضح بما لا يحتمل الشك أننا لا نعادي اليهود من حيث هم يهود ، واننا لا نحلم بقتل النساء أو الاطفال أو بالقاء كل اسرائيل الى البحر . ان سياسة واسعة الافق واضحة العبارة ازاء الرأي العام الاسرائيلي يمكن ان تحدث أثرا مزدوجا : هجرة العناصر المتمسكة بالتفوق الاوروبي والتي لا تريد أن تعيش في سلام مع العرب ، وانما في سيطرة عليهم ، وكذلك الانفصال التدريجي لاولئك الذين لا يعنيهم الا العيش في سلام عن القيادات العنصرية العدوانية المتطرفة .

***

وبعد ، ان موطن الضعف الاساسي في اسرائيل كمشروع للاستعمار الاستيطاني هو أنه جاء متأخرا مائة عام على الاقل ، وأنه اختار أرضا تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ولذلك فهو لا بد ان ينهار . ولكن هذا القانون الموضوعي ، ككل القوانين الموضوعية التي تحكم المجتمع البشري ، يمثل اتجاها تاريخيا ويتوقف ظهور مفعوله في الواقع على نضال الجماهير صاحبة المصلحة في تحقيقه . ان النصر في المدى الطويل للعرب . ولكن طول هذا المدى يتوقف في المقام الاول على دور العرب ونضالهم المثابر ونجاحهم في الربط بين المعارك المباشرة والهدف البعيد . ان مفتاح الموقف في يدنا . والقضية كلها هي ان نحسن استخدامه .

د. اسماعيل صبري عبد الله